



صورة دوريان جراي

هذه الترجمة الكاملة لرواية

Oscar Wilde

The Picture of Dorian Gray

أوسكار وايلد

صورة دوريان جراي

ترجمة / وكالة سفنكس

مراجعة / محمود بطروخة

الغلاف / هانيبال - هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من أيرلندا

الطبعة الأولى / القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٨٤١٤

ISBN: 978 - 977 - 6299 - 34 - 4



وكالة سفينكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد - القاهرة
ت/ف: ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناسر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014



صورة دوريان جراي

أوسكار وايلد

ترجمة
أحمد إبراهيم



دار الكتب



الفصل الأول







كان اتيليه الرسام يفوح بأريج الورد، وحين داعب
نسيم الصيف الأغصان في الحديقة، تسرب عبير الليلج
الطاغي عبر الباب المفتوح، ينافسه عبير أزهار النسرين
المنعشة.. وعلى الأريكة ذات الفرش العجمية، توسد
اللورد هنري وتون ليواصل تدخينه المعتاد بلا ملل، وهو
يتأمل من مكانه بهاء الأزهار المنثورة على أغصان شجرة
النحل بتمعن، فتترأى له صفراء كالشهد، حلوة كالشهد..
وتتراقص الشجرة متباهية بجمال زهرها التي تحمله
أغصانها، وتتراقص معها خيوط الضوء الذهبي الساطع..
وعلى ستائر النافذة الحريرية السميقة ترسم الظلال طيوراً
عابرة، فيموج في الغرفة نبض ياباني تغمره حركة الحياة..

ويجول بخاطر اللورد هنري الوجوه الشاحبة لرسامي

طوكيو، وكيف يعبرون بفنهم الكلاسيكي البحث عن إيجاء الحركة والسرعة.. ويتخلل تأملاته طنين النحل المقبض وهو يطوف بين الحشائش الشعثة، ويحوم في إصرار حول طلع اللبلاب الذهبي الزاحف على جدران الحديقة، وكأنه ينشد الفرار منها، فلم يبدد بطنينه مشاعر الضيق والضجر.. أما صخب لندن فهو خافت بلا هدير، كصوت أرغن كظيم يهدر من بعيد.

كان في منتصف الغرفة برواز عليه صورة كاملة لشاب طاغي الجمال.. جلس الرسام بازل هولورود يطالعها من مسافة قريبة متأملاً.. أجل! بازيل هولورود حديث الناس القاصي منهم والقريب ومثار فضولهم لإختفائه منذ بضع سنين، وقيل عن تواريه الأقاليل.

كان الرسام يتأمل الصورة التي أبدعها بريشته بسحر وتناغم، وارتسمت على شفثيه بسمة تبوح بالرضا وتأبى أن تفارق محياه، ثم نهض فجأة وهو يغطي جفنيه بأصابعه، كأنما يخشى أن تفارق الصورة خياله!

قال اللورد هنري:

- هذه الصورة من أروع ما رسمت يا بازيل بلا منازع، لا بد أن تعرضها الموسم القادم في معرض جروفنور، فمعرض الأكاديمية غير جدير بها فهو مبتذل، ودائماً أراه مكتظاً بالزائرين بما يحجب عني الصور، أو مكتظاً بالصور فأنصرف عنها لرؤية الزائرين!.. الجروفنور هو المعرض الأنسب لك.

قال بازيل وهو يدفع رأسه للخلف بطريقته التي طالما

كانت تضحك زملاءه في اكسفورد:
- لا أظن أنني سأعرضها في مكان ما.. بل من المؤكد ذلك.

قال هنري رافعاً حاجبيه في إندهاش ناظراً إليه من خلال حلقات الدخان الأزرق المنبعثة من سيجارته الممزوجة بالآفيون في تداخل بديع:

- تقول أنك لن تعرضها؟!.. كيف ذلك يا صديقي العزيز؟ وما الداعي لذلك؟!.. ما أعجب أحوالكم أيها الرسامون، من أجل الشهرة تقيمون الدنيا وتقعدها،

فإذا نلتموها بها أعرضتم عنها زاهدين!.. هذا غباء منك يا بازيل، فأساء من أن تكون حديث الناس ألا تكون موضع حديثهم!.. جدير بهذه اللوحة أن تجعلك على رأس شباب الفنانين في إنجلترا، وستملئ الغيرة قلوب كبار فنانيهم منك!
أجاب الرسام:

- أدري أنك ستسخر مني، ولكن في الواقع لا يمكنني عرضها، فقد وضعت فيها من نفسي بأكثر ما ينبغي أن يفعل رسام في لوحة.
انتابت اللورد هنري نوبة من الضحك وهو ممدد على الأريكة.. فقال الرسام:

- هذا ما توقعته منك، غير أنني لم أقل سوى الحقيقة!
- تقول أنك وضعت من نفسك فيها فوق الحد؟!.. هذا تكبر منك وغرور بالغ.. أقسم أنني لم أكن لاراك مغروراً

من نفسك إلى هذا المدى!.. أفأنت أيها الجاف المهول ذو
الشعر الأسود، ترى نفسك كذلك الفتى الذي ينازع
أودنيس جمالاً؟.. أو تبدو مثله كصنم لعباد الفتنة مكسوة
بأوراق الورد؟.. أيها الصديق بازيل إن صاحبك في هذه
اللوحة هو نرسييس إله الباطن والظاهر.. أما أنت وإن
كنت تملك من سمات المفكرين بما لا أنكره عليك، إلا أن
الجمال المدرك يخبو أمام المعية الذكاء.. والذكاء هبة نابعة من
الطبيعة، وتلك الزيادة النابعة تفسد التناسب في ملامح أي
وجه.. ففكر المرء يشكل فيه جبهة عريضة أو أنف عظيم أو
شئ كمثل ذلك.. إذا استعرضت أعظم النابغين الخائضين
في تيار الفكر، سترى صورهم غاية في البشاعة باستثناء
رجال الكنيسة وإن كان من الطبيعي أنهم لا يفكرون
أصلاً!.. فالأسقف وهو في الثمانين يرتل ما تلقنه وهو في
الثامنة عشر.. لهذا تجده محتفظاً ببهاءه الجميل حتى أرذل
عمره.. إن صديقك الشاب الذي تضمن علىّ باسمه وتتوجه
بإكليل من الغموض قد بهرتني صورته، ولكني أؤكد لك
بأنه لا يفكر أبداً، ما أبدعه من مخلوق جميل لا عقل له!..
خليق به أن يقضي معنا الشتاء، لتكون طلعتة عوضاً لنا عن
الزهور الغائبة! وخليق به أن يقضي الصيف معنا لنجد فيه
ما يشبع ذكاءنا!.. لا تخادع نفسك يا بازيل، فليس فيك شيئاً
منه!

أجاب الفنان:

- لم تصب في إدراك فهمي يا هاري، فأنا أعلم أنني لا

أشبهه، ولا أحتاج من يؤكد ذلك، بل تراني لو قدر لي أن أكون مثله لأزعجني ذلك!.. أراك تهز كتفيك مستخفاً، ولكني صادق فيما أقول.. فالقدر يغالب أصحاب الذكاء الأفاذا والجمال الأخاذ، فيتعقبهم كما يتعقب الملوك بلا رحمة منذ مهد التاريخ.. ومن الخير لنا أن نكون من عامة الناس، فالأغبياء وقبيحوا الهيئة هم أسعد أهل الأرض جميعاً.. فبإمكانهم أن يجلسوا آمنين، ويحدقوا تحديق البلهاء الناظرين لموكب الحياة الحافل.. فإن لم يغنموا النصر لم يتذوقوا مرارة الهزيمة، وهم يحيون كما نبغي الحياة، يعيشون في صفاء وأمن ولا يهتمهم شيء، لا يفسدون حياة أحد، ولا يفسد أحد حياتهم، أما نحن فنُدفع ثمناً غالياً لتفوقنا.. فأنت تدفع ثمن جاهك ومنزلتك، وأنا أدفع ثمن فني وذكائي أياً كان قدرهما، ودوريان جراي يدفع ثمن شبابه وجماله.. أجل يا هاري سندفع ثمن ما وهبتنا الآلهة من نعم المأ وعذاباً.

هَبَّ اللورد هنري واقفاً أمام بازيل هولورود متسائلاً:

- دوريان جراي!.. أهكذا اسمه؟!
- أجل.. هكذا اسمه، غير أنني لم أكن لأبوح به.
- ولماذا تريد إخفاؤه عني؟!
- لا أدري كيف أفصح لك!.. غاية الأمر أنني إذا أحببت أحداً من أعماقي، فإني لا أبوح باسمه، ففي إعلان اسمه خيانة في عرفي!.. فأنا مولع بالأسرار، بل أراها هي الإرث الباقي في هذا العصر بما يضيفي على الحياة إثارة وغرابة، فالجهول مرغوب ويحرك فينا الفضول وإن كان تافهاً.. لذلك تراني

كلما غادرت لندن فلا أخبر أحداً إلى أين سأذهب، وإن
أخبرت عنها فلا تستقيم الأمور في رحلتي.. أدري أنك قد
تراها عادة سيئة وقد تراني مخبولا لولعي بالأسرار، ولكني
أراها تملئ الحياة بالخيال الساحر..

أجاب اللورد هنري:

- الأمر ليس كذلك يا عزيزي بازيل!.. يبدو أنك نسيت
أني متزوج، وأن حياة الغش في الزواج تعد

لازمة للطرفين، فأنا لا أعلم أين تذهب زوجتي، كما أن
زوجتي لا تعلم ما أفعل، وحين نلتقي للعشاء خارج المنزل،
أو حين نذهب سوياً لزيارة أبيها الأحمق، يقص كلانا على
الآخر سخف من الأكاذيب متصنعاً الجدد.. وزوجتي تفوقني
نبوغاً في هذا الفن! فلا يبدو عليها أي ارتباك عند سرد
التواريخ بل يبدو ذلك على.. وإن بدا لها تناقضاً في أقوالي،
لا تثور أبداً، وليتها تثور! فهي تقنع بالضحك الساحر مني!
قال بازيل هولورود وهو يتقدم في اتجاه باب الحديقة:

- عجباً لك يا هاري، فأنا أراك رجلاً نبيلًا، فلا أحب أن
تتحدث هكذا عن حياتك الزوجية ولكنك تخجل من
إستقامتك، فما سمعتك تقول كلمة طيبة، ولم أراك تصنع
شراً، ولكنك ساخر من كل شيء بتكلف مصطنع!
علق اللورد هنري بقوله:

- التكلف ضروري لتبدو طبيعياً!.. وكم أعاني من
التكلف لكي أبدو طبيعياً!

خرج الرجلان إلى الحديقة، وجلسا على مقعد متسع من

الجريد في ظل شجرة الغار، وأشعة الشمس تلامس الأوراق الملساء والنور الأبيض يهتز بين الحشائش.. وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنري ساعته وقال:

- حان وقت رحيلي الآن يا بازيل.. ولكنني لن انصرف قبل أن تحيييني على سؤالتي الذي طرحته عليك من قبل.

أجاب الرسام مستفهماً:

- أي سؤال هذا؟!
- لا تراوغ، فأنت تعرف!
- لا أفهم ما تعني!
- للمرة الثانية أسألك عن السبب الحقيقي وراء امتناعك عن عرض صورة دوريان جراي.
- قد ذكرت لك الحقيقة.

- كلا.. بل ذكرت أنك وضعت في الصورة من نفسك أكثر مما ينبغي، وللحق هذا تعليل ساذج.
- نظر بازيل إلى اللورد هاري وقال بنبرة حاسمة:
- استمع لي يا هاري.. حين يرسم الفنان بمشاعره

- فإنما يرسم بصدق ما في أعماقه هو، وليس صورة قلب، فالقلب صورة عارضة لا يكشف عنها الرسام بل يكشف عن إنطباعاته وأحاسيسه هو عنها.. فما أبديته في هذه الصورة هو سر روحي، فكيف أبوح به؟!

ضحك اللورد هنري متسائلاً:

- ترى كيف يكون هذا السرّ؟
- سأطلعك عليه!

قال صاحبه وهو لا يحول بصره عنه:

- كلي آذان صاغية، فهات ما عندك!

قال الرسام:

- الأمر ليس لغزاً كما تعتقد، وإن كنت أخشى أن تشك في صدق ما أقول، أو يصعب عليك فهم ما أعنيه.

ابتسم اللورد هنري، ثم جنح ليقطف زهرة وردية من بين الأعشاب، آخذاً في تأمل ميسمها الذهبي الصغير:

- تراني سأفهم ما تقول.. أما عن الشك، فما دامت ما أسمعه شيء معقول فأنا اصدقه.

هبت نسمة فتساقط معها بعض أوراق الشجر والزهور، وأخذت أزهار السوسن في التمايل فتبدو وكأنها مجرة زاخرة بالنجوم، وغرد جندب بجوار السور، ثم عبر الحديقة طائر طويل نحيل ليلوح بجناحيه البنية الشفافة كخيط أزرق، ويكاد اللورد هنري أن يسمع خفقات قلب بازيل هولوردد، ومتعجباً لحاله.. وأي عجب!.. وشرع الرسام يقول:

- إليك ياهاري القصة.. منذ شهرين قصدت دار الليدي براندون لقضاء سهرة، فالفنانون يلزمهم التواجد في المجتمعات بين حين وآخر، ليدرك الناس أن الفنانين ليسوا وحوشاً.. فأنت القائل بأن أي أمرىء في عصرنا هذا يمكنه أن يبدو متحضراً طالما يملك حلة السهرة البيضاء، حتى السمسار بإمكانه ذلك، وحتى لا أطيل في حديثي فقد قضيت عشر دقائق في الصالون أتنقل وسط سيدات عجائز ضخام الهيئة وعليهن الثياب الفاخرة وأنا أتحدث مع

جمع من الأكاديميين الثقلاء، ثم انتبعت فجأة لفتى يطالعني ملياً فاستندرت قليلاً لأراه.. كانت هي المرة الأولى التي أرى فيها دوريان جرای،

- وحين تلاقت نظرانا تصاعد الدم ليكسو وجهي وانتابني اضطراب عجيب.. أدركت أنني أواجه شخصية ساحرة ومهلكة! ولو طال الحال على ما هو عليه لإحتوت نفسه نفسي وإنسلت روحي عني ليتملكني، ولما كنت سيد نفسي وأبى أن ينتزعني أحد، آثرت الأنصراف وأنا ينتابني نداء غامض يهتف بي بأن الأقدار تدخر لي أفراحاً لا تماثل وأحزاناً لا نظير لها، فأدركني جزع شديد، وهممت بالانصراف ليس بداعي من ضميري بل جنباً وأشفافاً على نفسي.

- الجبن والضمير اسمان لمدلول واحد يا بازيل، وغاية الأمر أن الضمير هو الاسم الدارج، أو كما يقولون الماركة المسجلة.

- لست معك في هذا يا هاري، ولا أظنك جاداً فيما تقول.. ولعل الكبرياء كان دافعي، فقد كنت سالفاً شديد الكبرياء، عموماً أياً كان الدافع فقد وجدتني أجتاز الباب مصطدماً بالليدي براندون التي صاحت بي وهي تقول: "لن أدعك تنصرف بهذه السرعة يا مستر هولوورد"، وأنت بالطبع تدري نبرتها الحادة.

قال اللورد الشاب وهو ينزع أوراق الزهرة واحدة تلو الأخرى بأنامل عصبية:

- نعم.. فهي تشبه الطاووس في كل شيء عدا الجمال!
- هكذا لم أستطع التملص منها، فقدمتني لبعض أفراد الأسرة المالكة، وإلى أشخاص أكتافهم مزينة بالنجوم ويختالون تيهاً بالأوسمة، وإلى سيدات عجائز بأنوف شاحخة لا يحاكيهن إلا البغاوات وتعلو رؤسهن التيجان.. أخذت تحدث الجمع عني وكأني صديق من أعز أصدقائها.. وهي لا تتوانى عن التعظيم من شأني، رغم أنني لم أكن قد رأيتها سوى مرة سابقة.. فربما يكون الداعي لذلك إحدى لوحاتي التي لاقت آنذاك نجاحاً باهراً وقد أسهبت في مدحها الصحف اليومية، ولا يخفى عليك أن الصحف عند أهل القرن التاسع عشر سجل الخالدين.. وفجأة وجدتني أواجه الشاب الذي سلب لبي مرآه، ودنا كل منا للآخر حتى كدنا نتلامس وتلاقت نظراتنا ثانية، فلم أجد سوى أن أطلب من الليدي براندون أن تقدم كلانا للآخر، ولو لم تفعل لتناجينا دون سابق معرفة.. ولعلك ترى أن موقعي لم يكن بدافع الجرأة كما خيل لي آنذاك، بل لأنني إنسقت إليه مجبراً.. وقد صرح لي دوريان فيما بعد أنه عايش نفس مشاعري وأنَّ القدر ساقنا لهذا التعارف.

سأله صاحبه:

- وماذا أخبرت الليدي براندون عن هذا الشاب المثير؟!.. هي دائماً ما تذكر نبذة عابرة عن ضيوفها عند تقديم أحدهم للآخر.. أتذكر أنها قامت بتقديمي إلى أحد النبلاء، كان أحمر الوجه وذو طلعة مهيبة، وقد امتلأ صدره بأوسمة ونياشين، وبعد تقديمي مالت على أذني لتهمس لي

بنبرة مؤثرة بإطناب عن تفاصيل مدهشة، ولا شك أنها
أسمعت كل من في القاعة!، ولما كنت أفضل استكشاف
الناس بنفسني آثرت الإنسحاب.. أما الليدي براندون فهي
تعامل مدعويها كخبير مثنى لسلع معروضة في مزاد، فتارة
تعرضهم بإسهاب ممل، وتارة تذكر عنهم كل شيء إلا ما
يهمك معرفته!

قال هو اوورد:

- مسكينة الليدي براندون، حكمك قاسي عليها يا
هاري.

- يا عزيزي.. من أين يأتي إعجابي بها، وهي حين
أرادت إنشاء صالونا افتتحت مطعمًا!.. ولكن ماذا قالت
لك عن دوريان جراي؟

- عبارات إعجاب: "يالهِ من فتى ساحر!.. كنت وأمه
المسكينة لا نكاد نفترق.. لا أدري ماذا يعمل الآن؟.. أظنه
بلا عمل، آه لقد تذكرت إنه يلعب على البيانو بإتقان، أم
ترى أنه يعزف على الكمان؟!.. أهى الكمان يا مستر
جراي؟!.. فأنفجرنا في الضحك، وزال التحفظ بيننا على
الفور.

قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى:

- الضحك ليس بداية سيئة للصدقة.. ومن المؤكد
أنها نهاية طيبة كذلك.

هزّ هولوردد رأسه قائلاً:

- يا هاري.. أنت لا تفهم معنى الصداقة، بل أيضاً لا
تفهم معنى العداوة، فأنت تستلطف الناس جميعاً، ولا تبالي

بأحد!

قال اللورد هنري وهو يطالع في السحب السابحة في
سماء الصيف الفيروزية ناسجة خيوط حريرية بيضاء:

- لقد ظلمتني يا بازيل!، فأنا أنزل الناس منازلهم،
فأختار أصدقائي لجمالهم، وزملائي للمائة أخلاقهم،
وأعدائي لذكائهم، وأكون حذراً في اختيار أعدائي، ولن تجد
من بينهم غيباً واحداً!، لهذا تراهم يقدروني حق التقدير..
هل ترى في هذا غرور يا بازيل!؟

- بالتأكيد يا هاري.. وإذا عدنا لتصنيفك للناس، أراك
تدخلني في قائمة الزملاء!.

- يا صديقي بازيل.. أنت عندي أقرب من مجرد زميل.
- وأبعد كثيراً من أن أكون صديق!.. قد أكون عندك
بمثابة الأخ.

- لا تذكرني بالاخوة، فأنا لا أحمل حباً على الإطلاق
نحوهم.. فأخي البكر متشبث بالحياة ولا يريد أن يموت!..
والاخوة الصغار أراهم دائماً على مشارف الموت!

عبس هولوردد وبنبرة زاجرة قال:

- لا تقل مثل هذا الكلام يا هاري!
- لست أعني ما أقوله حرفياً يا صديقي، ولكني لا أحب
أقاربي رغماً عني.. وقد يعلل ذلك أن المرء يسوءه أن يرى
غيره يشاركه عيوبه.. فأنا متعاطف من صميم فؤادي مع
الكراهية التي تبديها الديمقراطية الإنجليزية نحو ما تسميه
مساويء الطبقة الراقية.. فالعامة تشعر بأن العربلة
والإنحلال امتيازات خاصة بها.. وإذا اتصف أحدنا بنقيصة

من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على خصائص تلك الطبقة!.. فلما تقدم سدوك المسكين إلى محكمة الطلاق، غضبت العامة بضراوة.. ولا أظن أن أصحاب الأخلاق الفاضلة يتجاوز عشرة في المائة من أبناء الشعب.

- لا أصدق كلمة واحدة مما تقول، بل يخيل إليّ يا هاري أنك تقول ما لا تعتقد!

أخذ اللورد هنري يعبث بلحيته السمراء، ويضرب حذاه الرقيق بعصاة الأبنوس المحلاة بالأصداف، ثم قال:

- يا لك من انجليزي صميم!.. لثاني مرة تبدي فيها
- هذه الملاحظة، ومجرد عرض فكرة من الأفكار على
الانجليزي صميم يعدّ حماقة!.. فالانجليزي الصميم لا يبحث
عن صدق الفكرة أو خطئها، فكل ما يهمه منها هو مدى
إيمان صاحب الفكرة بفكرته.. أما أنا فأرى أن جمال الفكرة
لا علاقة له بإخلاص صاحبها، بل كلما قلّ إيمان المرء
بفكرته، كلما كانت أقرب إلى الصدق، لأنها آنذاك ستتحرك
من ميوله الشخصية ومن موروثات أحكامه.. ولكني لا
أرغب الآن في جدالكَ عن الأمور السياسية أو الاجتماعية،
وإلا سوف أخسر صداقتك.. فالأشخاص أهم عندي من
المبادئ.. والمتجردون من المبادئ أفضل عندي من أي
شيء في الحياة!.. ثم لنعد إلى دوريان جراي، هل يزورك
كثيراً؟

- كل يوم.. وبالشقائي إن مرّ يوماً دون أن أراه، فهو
لازمة من ضرورات حياتي!

- أمر غريب!.. كنت أحسب أنك لا تهتم إلا بفنك.

وبنبرة جادة أجاب الرسام:

- دوريان جراي أصبح الآن كل فني.. وأحياناً أرى أن تاريخ العالم لا يحوي إلا عصران ذاتا أهمية، الأول هو - العصر الذي ظهرت فيه أدوات التعبير الفني، والثاني هو العصر الذي ظهرت فيه شخصية أصبحت موضوعاً للفن.. فابتدأ الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند البندقية ما كان لوجه انتينوس في الفن اليوناني القديم.. ودوريان جراي سيكون ثورة في فني لا تقل خطراً عن هذين الانقلابين.. وليس ذلك لأنني أصوره أو أنقل على اللوحة ملاحظه وقسماته، فقد اعتادت ريشتي ذلك، ولكن لأنني لا أنظر إليه كمجرد نموذج فحسب، ولست أعني أنني غير راضي عن الصور التي نقلتها عنه، أو أن جماله لا يطاوع الفن، فالفن لا يستعصي عليه شيء.. ومنذ أن عرفت دوريان جراي تقدم إنتاجي، بل اكتسبت إتقان لم أكن عليه من قبل.. ولا أدري إن كنت متفهماً ما يعنيه كلامي أم لا.. لقد ألهمتني شخصيته أسلوباً فنياً جديداً كان خارجاً عني، فاختلفت رؤيتي وفكري للأشياء عما اعتدت عليه، فلحياة أصبحت أراها على نسق جديد لم أعيشه من قبل.. هل تذكر صاحب قول: "أيامي تأمل.. ولكني

- أحلم بالجمال" لست أتذكره الآن، إلا أنه أصبح مقام دوريان جراي عندي.. وإن كان قد تجاوز العشرين ربيعاً إلا أنه في نظري لا يزال صبيّاً غضاً.. وليتك تدرك ما يعنيه كلامي يا هاري!.. فمجرد إطلالة هذا الصبي تلهمني أسس مذهب جديد أنساق إليه بلا

وعى، وتغمرنى هذه الأسس فى نوبة من الأحاسيس
المجسدة، فتلهمنى غمط جديد أمتزج فيه خيال المدرسة
الرومانسية مع سمو الروح اليونانى.. أسلوب قائم على
تجانس الروح والجسد، فما أروعها من حلم!.. وهما نحن
بجماقة قد فصلنا الروح عن الجسد، وجعلنا منهما فناً
واقعياً مبتذلاً، خاوياً من كل معنى وفن.. وليتك تعرف
مكانة دوريان جراى عندي يا هارى.. ولا شك أنك تذكر
المنظر الطبيعى الذى رفضت التنازل عنه لـ أينو رغم
العرض السخي، فهو من أبدع ما رسمت فرشاتي، أوتدري
لم ضننت به عليه؟!.. لأن دوريان جراى كان بجوارى ساعة
أن رسمته، يسرى منه وحي ساحر لطيف يغمرنى، ولأول مرة
فى حياتى أكشف عن ذلك السحر الذى كنت أفتش عنه
دون أن أدرك معناه، فترجمت بريشتى كل ذلك فى اللوحة.

- عجيب هذا!.. لا بد أن أرى دوريان جراى يا بازيل.
نهض هولوررد من المقعد سائراً فى الحديقة وما
لبث أن عاد إلى مكانه وقال:

- دوريان جراى عندي ليس سوى حافظ ملهم يسوقنى
إلى الإبداع الفنى يا هارى.. فلن ترى فيه شيئاً عجيباً.. أما
أنا فأرى فيه كل شيء، فحتى لو غاب عني، ظهر فى فني أكثر
منه وهو قريب، كما قلت هو لي إلهام لأسلوب جديد، أجده
فى الخطوط الدقيقة، وأعثر عليه فى الألوان الصائبة، هذا
كل ما فى الأمر.

سأله اللورد هنرى:

- إن كان الأمر هكذا.. فلم تحجب صورته عن

العرض؟!

- لأنني وضعت فيها رغباً عني ما يعبر عن الوثنية الفنية بشطحاتها الشاذة.. وبطبيعة الحال هو لا يعرف عنها شيء، ولن يدرك عنها شيء، ولكن ربما يفطن

- إليها أحد، ولست أحب أن تتجرد روحي عارية أمام أنظار الفضوليين الأغبياء.. كلا ياهاري لن يكون قلبي محلاً لأنظار المشتريين يطالعون أسرارهم، فقد وضعت في هذه الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي.. بالفعل يا هاري أكثر مما ينبغي!

- أرى الشعراء أقل وسوسة منك، فهم يدركون ثمار العواطف عند سوق النشر، ونحن في عصر تعاد فيه طبعات القلب الممزق مراراً!
قال هولورود:

- هذا ما يجعلني متحفظاً على الشعراء.. فالفنان عليه أن يصنع الأشياء الجميلة ولكن محظور عليه أن يودع فيها شيء من نفسه.. فهذا الزمان ينظر فيه الناس للفن نظرهم إلى اليوميات التي يدونها الكاتب عن حياته الخاصة.. هكذا فقدنا القدرة على تذوق الجمال المجرد، ومن المؤكد أنني سأكشف للعالم يوماً عن سرّ هذا الجمال المجرد.. ولنفس السبب سأحجب الصورة التي رسمتها لدوريان جراي عن العالم مهما كلفني ذلك.

- أظنك مخطيء يا بازيل، ولكني لن أجادلك كشأن السفهاء.. ولكن قل لي أيحبك دوريان جراي؟
صمت الفنان مفكراً ثم أجاب:

- أجل.. أعرف أنه يجبني، والأمر ببساطة لأنني كثيراً ما أمتدحه، وأشعر بمتعة خاصة عندما أقول له أشياء أعرف أنني تسرعت في قولها، وهو دوماً شديد التلطف معي.. ونقضي وقتاً طويلاً في الاستديو نتحدث في أمور شتى، وأحياناً ينتابه طيش أحرق فأجلده مستمتعاً بحق في الاساءة لي، هنالك ياهاري أشعر أنني أملكك روحي إلى مخلوق ينظر لي كمن ينظر إلى زهرة تصلح لتزيين سترته، ويرى في فني حلية تشبع غروره أو تجعل يومه مشرقاً!.

قال اللورد هنري:

- أيام الصيف طويلة، وربما مللته قبل أن يسأم منك، ولا شك أن العبقرية أبقى من الجمال، وهذا أسوء ما في الحياة، لذا ترانا نتصارع على تثقيف أنفسنا، وفي خضم صراعنا للبقاء نفتش عن ذخيرة باقية، فترانا نملئ رؤسنا بالحقائق والزيف على السواء كي تبقى لنا مكانة في هذه الحياة، وهذا هو السخف بعينه..

- إن مثلنا الأعلى في زماننا هذا هو الرجل الذي يعرف كل شيء، ورأس الرجل الذي يعرف كل شيء صندوق يحوي ضجيجاً مزعجاً، أو لعله خان عاديات وأثار مكتظ بالوحوش المجسمة ويكسوه التراب، ولن تجد فيه سلعة لم يبالغ في تثمينها.. لا أزال أعتقد يا بازيل أنك ستمله قبل أن يسأم منك، وسيأتي يوم ترى فيه صاحبك هذا قد صار نموذجاً بالياً لا يصلح للرسم، أو يزعجك تباين الألوان فيه أو ماشابه ذلك، عندئذ سيقسو حكمك عليه وتظلمه في أعماقك، وتحس أنه قد

غدر بك فينطفيء حماسك كبركان خامد، ولا شك أن
تقلبك هذا سيكون أمراً مؤسفاً لك.. إن ما رويته عليك
رغم عنفه هو قصة الفن إن جاز التعبير.. وأفطع ما في
الخيال هو أن تصحو على مرارة الحقيقة.

- كفى ما قلته ياهاري، فدوماً ستظل شخصية دوريان
جراي تغمرني ما بقيت حياً.. ومع تقلب طباعك لن
تستطع أن تقدر مشاعري.

- بل طبعي المتقلب يا بازيل هو ما يجعلني أقدر
احساسك.. فالحب لا يرى الحب إلا من جانب ساذج، أما
المتقلبون فيتذوقون مرارته.

أخذ اللورد هنري في مواصلة تدخين سيجاره بعد أن
عاود إشعاله بعود ثقاب أخرجه من علبة فضية أنيقة، راضياً
هاديء البال، وقد لخصّ بجملة واحدة فلسفة الحياة.. واستمع
إلى صوت حفيف اللباب الداكن الخضرة حين لامسه
سرب من الطيور وسط زقزقة العصفير.. ورسمت الغيوم
على الحشائش ظلالها يطارد أحدها الآخر، وكأنها في سباق
فيما بينها على مسطح الحديقة.. ما أروع الحديقة! وكذلك
بدت له عواطف الناس أجمل! تفتنه أكثر مما تفتنه
أفكارهم.. وتساءل عن سرّ الحياة ومنبعه، فرأه ينبع من روح
المرء ومن عواطف أحبائه.. ثم ذهب اللورد هنري ليتناول
وجبة الغذاء في بيت عمته التي فاتته ببقائه كل هذا الوقت
مع بازيل هولورود فاغطبتت نفسه لذلك، فلو ذهب إلي
بيت عمته لوجد بلا شك اللورد جودبودي هناك، ولدار
الحديث حول الفقراء وإطعامهم، وحول ضرورة الشروع في

بناء البيوت النموذجية.. بالطبع لو ذهب إلى بيت عمته
لسمع الأغنياء يتحدثون عن

مزايا الاقتصاد، ولسمع بلاغة الكسالى وهم يتحدثون
عن شرف العمل!.. هو على كل حال يسعده تحاشي هذا
الجو الخانق، وفي شروده حال له خاطر فقال من فوره:

- لقد تذكرت الآن يا بازيل!
- وماذا تذكرت يا هاري؟
- تذكرت المكان الذي سمعت فيه اسم دوريان جراي!
- وبقليل من التجهم قال الرسام:
- وأين كان ذلك؟

- لا تعبس يا بازيل كأن في الأمر سوء.. لقد سمعت
باسمه في بيت عمتي الليدي أجاثا، وقد قالت العمة أنها
عشرت على شاب يساعدها فيما تقوم به من أعمال خيرية
في حيّ الإيست إند، واسم هذا الشاب دوريان جراي..
وللحق لم تتحدث قط عن جمال هذا الفتى، وهو أمر طبيعي
فالنساء لا يتذوقن الجمال، أو على الأقل الصالحات منهن!..
كل ما قالته أنه شاب جاد طيب النفس، فتخيلته رجلاً على
عينيه نظارة، خفيف الشعر مشوه وجهه بأثار الجدري!..
فليتني أدركت أنه صديقك الملهم!

- كان سيضايقني لو أنك علمت ذلك يا هاري!
- وما السبب؟

- لأنني لا أحب أن تلتقي به!
- أنت لا تحب أن ألتقي به؟!

- نعم!
- في تلك اللحظة قدم كبير الخدم إلى الحديقة ليعلن:
- مستر جراي دوريان جراي في الاستديو يا سيدي.
- قال اللورد هنري ضاحكاً:
- لا بد أن تقدمني إليه يا بازيل.
- التفت الرسام إلى الخادم قائلاً:
- سل مستر جراي الأنتظار، فلن أتأخر عليه.
- انحنى الرجل وبادر بالانصراف.. ونظر الرسام إلى اللورد هنري قائلاً:
- اسمع يا هاري.. إن دوريان جراي أعزّ صديق لي، وهو غرض النفس مفطور على الخير.. وقد أصابت
-
- عمتك تماماً فيما قالته عنه، فلا تفسده بتأثيرك عليه، فإن تأثيرك في الناس سيء.. أملك متسع في هذا العالم وهو يعج بالآف من البشر الذين يستحقون اهتمامك، فلا تحرمني من الصديق الأوحـد الذي استلهم منه فني، وأنا أعلم أن مستقبلـي كفنان متوقف عليه دون سواه.. تذكر يا هاري أنني أثق بك.
- كان هـولـورد يتكلم مكرها وبتؤدة كأن كل كلمة تخرج منه تعتلج فؤاده.. وبدأ هنري محتجاً على كلامه إذ أخذ ذراعه تحت إبطه باسمّاً متجهاً إلى البيت وكأنه يسوقه جراً!!



الفصل الثاني



حين دخل الرجلان الاستديو شاهدا دوريان جراي، كان
يجلس أمام البيانو يتصفح في كراسة مناظر الغابة
للموسيقي شومان، فلم يشاهده من مواجهته.. قال:
- رائعة نوت الموسيقي هذه يا بازيل، ألا تعيرني إياها،
أود أن أدرسها.

- بلى يا دوريان سأعيرها لك بشرط ألا تتحرك كثيراً
بينما أقوم برسمك.

استدار الفتى بمقعد البيانو وأجاب متأففاً:
- قد سئمت الجلوس، ولست أرغب في صورة بالحجم
الطبيعي.

وقع بصره على اللورد هنري، فارتبك قليلاً واعتراه
الخجل فاحمرت وجنتاه للحظات، فنهض قائلاً:
- معذرة يا بازيل.. كنت أظنك بمفردك!

- هذا هو اللورد هنري، صديقي منذ أيام الطلب في
أكسفورد.. ومنذ دقيقة كنت أخبره عن إنك أفضل من
جلس أمام رسام، وها أنت قد أفسدت كل شيء.
تقدم اللورد هنري إلى الشاب باسطاً يده بترحاب:

- بل يسعدني لقاءك يا مستر جراي، فعمتي تحدثني
كثيراً عنك، وهى مغرمة بك، وأراك واحداً من ضحاياها!
ارتسمت ملامح الأسف على وجه دوريان جراي
وأجاب:

- أراني الآن في قائمتها السوداء!.. فقد وعدتها
بالذهاب معاً إلى نادي بحي هدايت تشايل، كنا

سنشترك في عزف بعض المقطوعات الموسيقية ولكنني سهوت عن الموعد، ولن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن.
- لا عليك!.. فسوف أصلح بينكما، ولن أجد صعوبة في ذلك، فهي مغرمة بك، ولا أظن أن تخلفك أفسد شيئاً، فعمتي أجاثا حين تعزف على البيانو تثير ضجة كبيرة، فيحسب سامعيها أن هناك عازفين لا عازف واحد!
قال دوريان جراي ضاحكاً:

- ما تقوله قسوة عليها، ويعدّ إهانة لي!
نظر اللورد إلى دوريان بامعان.. يراه بديع الوسامة: شفته حمراوان من صنع فنان دقيق، وعينه زرقاوان في صفاء، وشعره الذهبي المتموج صناعة فنان كريم.. شخصية يجتمع فيها أوج الشباب وصفاء الطهارة، وقوة الحيوية.. لا غرو أن يحياه يوحى بالثقة ويشد الأنظار، كأنه مخلوق يسمى عن عالم الدنيا.

رأى اللورد هنري أن بازيل هولوردد كان محققاً فيما أخبر عنه، وفي السكون له.. ثم تابع حديثه:

- الثقلاء هم من يهتمون بشئون الإحسان، أما أنت يا مستر جراي، شاب لطيف، بل أنت اللطف نفسه!

قال ذلك ثم جلس على الأريكة وأشعل سيجارة.. في الوقت الذي كان الرسام منشغلاً في إعداد أدواته وألوانه، ويبدو عليه القلق، إلا أنه ما أن سمع عبارة اللورد هنري حتى التفت إليه قائلاً بعد قليل من التردد:

- هاري!.. لا بد أن أنتهى اليوم من رسم هذه الصورة، ولا تراني جافاً إذا رجوتك أن تتركنا.

ابتسم اللورد هنري وأجفل لدوريان جراي بنظرة موحية.. قال:

- أنصرف يا مستر جراي؟!
- بل آمل أن تظل معنا.. فإني أرى بازيل اليوم متجهم النفس، وأنا لا أحتمله حين يكون هكذا، بجانب ذلك أود أن تبين لي قولك من أن الأعمال الخيرية غير جديرة باهتمامي.

- لا أراني سأحدث عن الجمعيات الخيرية، حتى لا يكون الحديث مملاً، إلا أنني سأملك معكما طالما قد طلبت ذلك مني.. وبودي يا بازيل ألا يسبب بقائي ضيق لك.. ألم تفتأ تقول أنك تحب لمن ترسمهم جليساً يدفع عنهم الملل؟!
عضّ هولورود على شفثيه وأجاب:

- بالطبع إذا كان دوريان يريد بقاءك معنا، فلا ينبغي لك إلا البقاء، فلا أحد يملك مخالفة رغباته سواه!
إلا أن اللورد هنري سحب قفازه وقبعته قائلاً:

- شكراً لتوددك في بقائي يا بازيل، ولكن لا بد أن أنصرف، فأنا على موعد في نادي أوليانز.. إلى اللقاء يا مستر جراي ويسعدني زيارتك لي في شارع كيرزون وقت العصر في أي يوم، فأنا دائماً بمنزلي في الساعة الخامسة إلا نادراً، اكتب لي موعد زيارتك، وضع في حسابك أنني سأأسف كثيراً إن لم أراك ثانية.

صاح دوريان جراي قائلاً:

- اسمع لي يا بازيل.. إذا انصرف اللورد هنري سأفعل مثله!.. فصمتك مطبق حين ترسم، وكم مللت من المثل

أمامك كل يوم أتكلف الابتسام!

قال هولوردد وهو يتملى في الصورة:

- ليتك تبقى يا هاري لترضى دوريان وترضيني.. حقاً ما
قاله دوريان، فأنا لا أتكلم ولا استمع للغير أثناء العمل،
ولا شك أن من أرسهم يضايقهم ذلك، فهل لي أن أرجوك
لتبقى؟!!

- وكيف لي أن أخلف مواعيدي في نادي أوليانز؟!!

ضحك الرسام وأجاب:

- هذا أمر هين!.. ابق مكانك يا هاري، وأنت يا دوريان
مكانك على القاعدة!، وخذ حذرک من الاستماع لكلام
اللورد هنري، فهو ذو تأثير خبيث في كل أصدقائه، لم ينج
منه غيري!!

اتجه دوريان جراي إلى القاعدة وكأنه يساق إلى الهلاك!،
وأخذ مكانه عليها وهو يتأفف كما لو يشكو حاله إلى
اللورد هنري الذي جذبه.. ورأى دوريان جراي أن اللورد
هنري وبازيل ضدان، وكم أن صوت هنري يأخذ السمع!..
وبعد برهة توجه دوريان جراي إلى اللورد هنري متسائلاً:

- هل حقاً ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنري، أن لك

تأثير خبيث في الآخرين؟!!

- لا وجود للتأثير الطيب يا مستر جراي، فالتأثير في
حد ذاته يتنافى مع الأخلاق، هذا إذا أردت أن يكون
حكمك واقعياً!!

- لا أفهم!

- إن تأثيرك في شخص ما يعني هيمنة روحك عليك، مما يفرض عليه فكراً ليس من أفكاره ويسبغ قلبه بعواطف ليست من طباعه، ويكون مرآة لمساوئ الغير فتبدو فيه.. فأكون بذلك مردداً لانشودة شخص آخر، أو مشخصاً يؤدي دوراً عن غيره.. وللحق لقد خلّقنا لنحافظ على طبيعتنا وأن تسمو ملكاتنا وترتقي ذواتنا، إلا أن الناس في هذا الزمان يخشون من أنفسهم، ويغفل عنهم واجباتهم نحو أنفسهم أولاً فنراهم يطعمون الفقراء ويكسون المساكين العراة وأرواحهم جائعة عارية، ولا مفر من أحد أمرين: إما أن قومنا فقدوا شجاعتهم، وإما أن الشجاعة لم تكن من سيماتهم منذ الأزل، فنحن عبيد للخوف.. الخوف من الله وهو رأس الحكمة ومسلك الدين، والخوف من المجتمع وهو داعي للأخلاق، ومع هذا....

كان الرسام منهمكاً في عمله فلم تسمع حواسه الحديث، إلا أنه رأى وجه دوريان جراي يشع بريق لم يبد عليه من قبل.. فقال:

- أدرّ رأسك قليلاً يا دوريان.

أخذ اللورد هنري في استئناف حديثه بصوت خافت، معبراً بيديه عما يعنيه بعفويته المعتادة منذ كان تلميذاً في كلية إيتون:

- ومع هذا لو افترضنا أن يولد مع الأيام رجل واحد يعيش سائر عمره مصوراً خلجات نفسه، ومعبراً عما يدور بخاطره من فكر ويترجم كل حلم يراود صفحة خياله إلى واقع، لأصبحت الحياة وردية رائعة ولأنقذتنا من كوابيس

القرون الوسطى التى لا تزال تغشانا.. بالفعل لو فطرت الأيام مثل هذا الرجل لعاودتنا الفضائل السامية لحضارة هيلاس.. حضارة اليونان، بل وارتقيننا إلى ماهو أسمى من حضارتهم المثمرة إلا أن "عنتر زماننا" يرتعد هلعاً على نفسه فإنكار الذات الذي يجب عنا حقائق الحياة هو إرث لتراث همجية رجل الغاب حين كان يمزق جسده بيده، ولا يخفي أننا ندفع ثمن قناعتنا وانتكاسنا فى الحياة، فالكبت الذي يملك نفوسنا يقتل الأمل فى الحياة ويسقم قلوبنا.. يخطئ الجسد مرة واحدة، بعدها يصبح بلا خطيئة فالتجربة تطهره وليس بعد إلا نشوة الذكرى! أو عبرة الندم!.. ولا نجاة من مطلب النفس إلا بالركون إليه والرضوخ له، فإن قاومته يخبو نور روحك من مطلبها للمحظورات، ولم يجرم المحذور إلا رؤياه.. ومن ثم نحن باكية لمطلب الحرم، وما حرمه إلا يأسها وخوفها.. يقال أن الأحداث الكبرى بدايتها عقل الإنسان، أما أنا فأقول وأيضاً الجرائم الكبرى بدايتها عقل الإنسان... الإنسان فحسب!.. حتى أنت يا مستر جراي بشبابك المشرق وطفولتك النقية، قد راودتك شهوات ارتعد لها ضميرك، وتغشَّتْ خواطر أخفقت قلبك رعباً، وعاشت فى اليقظة والمنام أحلاماً يندى لها جبينك خجلاً حين تذكرها!

قاطعهُ دوريان جراي قائلاً:

كفى!.. لقد شئت فكري، فهناك ردّ على ما تقوله ولكني عاجز عنه، فالتزم الصمت ودعني أفكر.
ظل دوريان جراي ملازماً مكانه بضع دقائق مستغرقاً فى

فكره، ويشع فى عينيه ضوء عجيب.. كان يعيش حساً مجهولاً بأنه واقع تحت تأثير ما.. ويسيطر عليه نفوذ جديد، لم يأت من الغير، بل فاض من أعماق نفسه.. فالكلمات القليلة التى قالها صديق بازل قد لامست وترّاً فى فؤاده، وأيقظت فيه مشاعر جديدة.. ومن المؤكد أن اللورد هنري قد تعمد إلى حد ما أن يوقع دوريان فى حيرة، إلا أن كلماته جاءت مرتجلة ومسترسلة دون سابق إعداد.

لم تكن تلك المشاكل جديدة على دوريان جراي، فقد كانت للموسيقى مثل هذا التأثير الذى يتغشاها قلقاً وحيرة.. ولكن الموسيقى خرساء لا تفصح ولا تخلق فينا عالماً جديداً متماسكاً ومرتباً، بل عالماً من الفوضى.. أما الكلمات فلها سلطان عظيم ورسمها دقيق وتعبيرها قاس، تلاحق فى فراك منها حيث ذهبت.. ورغم ذلك فلها سحر الأوتار، وعذوبة العود والكمّان،

وهي تهيمن على العواطف فتبدد الشرود.. يا للكلمات!.. لا معبر عن الحقيقة بصدق مثلها!

أمور كثيرة مرت بدوريان جراي حين صوته، لم يدركها في حينها، وهاهو الآن يفهمها!.. هكذا أكتست الحياة فجأة فى عينيه بنيران تتعاقب ألوانها العنيفة وكأنه فى منام يرى أنه يمشي بين ألسنة اللهب دون أن يصاب بلهبها، وباليته يصاب! كان اللورد هنري يتأمله بابتسامة تفصح عن مغزى، فقد كان يعرف متى يتوقف عن إرسال حديثه، ليكون صمته البلاغة!.. ذكره إعجابه من تأثير كلامه المفاجيء ذلك

الكتاب الذي قرأه فى السادسة عشر من عمره، وتعلم منه
علومًا عن أسرار الحياة، وأن دوريان جراي يعيش الآن ما مر
عليه.. لم يكن ما قاله اللورد هنري إلا رمية بلا تصويب،
فهل أصابت الهدف؟!.. وباله من هدف!

لم ينتبه هولوردد إلى حال السكون السائد فى الحجرة،
فقد كان عاكفًا على الرسم بألوان صريحة تمزج الأناقة
بالرقة ليكونا مظهرًا للقوة فى الفن على الأقل!
قال دوريان جراي:

- لقد تعبت من طول الوقوف يا بازيل، والهواء هنا
يخنقني، لابد أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلًا.
أجاب الرسام:

- معذرة يا صديقي، فقد شغلي الرسم عن كل شىء،
لقد كنت تقف اليوم أفضل من أي يوم مضى، فكنت
ساكن الحركة.. كما أننى وجدت فيك التعبير الذي كنت
أنشده وتمكنت من نقله، أعني ذلك البريق فى عينيك،
والأنفراج الطفيف فى شفئك.. ولا أدري عما حدثك
هاري إلا أن حديثه بلا شك قد كسا حياك تعبير لا
مثيل له!..! أكان يمتعك حديثه كل هذا الوقت؟!.. عموماً
مهما قال فلا تصلق كلمة واحدة من أقواله فهو يجذف!
قال دوريان:

- بل لم يكن حديثه إطراء وثناء، وتجدي متشكك فيما
قاله.

أعترض اللورد هنري
فأجاب الرسام:

- عفواً يا صديقي، فقد أنساني الرسم كل شيء. إن وقفتك اليوم يا دوريان أجمل من وقفتك في أي يوم مضى، فلم تُبد منك أدنى حركة، كذلك أمكني أن أنقل التعبير الذي كنت أطلبه، أقصد ذلك البريق في عينيك، وذلك الانفراج الحفيف في شفتيك. ولست أعرف بم حدثك هاري، ولكن حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيراً لا نظير له. أكان يطريك طيلة هذا الوقت؟ مهما يكن من شيء فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول فهو يلقي الكلام جزافاً.

قال دوريان:

- كلا. لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة، وكذا تجدني أميل إلى الشك في كل ما قاله.
قال اللورد هنري معترضاً، وهو ينظر إليه بعينيه الناعستين الحلمتين:

- بل أنت تؤمن بصدق ما أقول، وأنت تعلم ذلك. إن الحرارة هنا خانقة فلنخرج معاً إلى الحديقة. آتنا شراباً مثلجاً به شيء من "الشليك" يا بازيل.

- بالتأكيد يا هاري. أمامك الجرس فاطلب خادمي باركر ومُره بما تشاء أما أنا فباق هنا لأتم هذه الصورة، وأرجوك ألا تعطل دوريان في الحديقة طويلاً إذ لا بد لي منه ثانية، فأنا أحس برغبة في العمل لم أحس بها من قبل. يا لها من صورة رائعة، فما أسعدني بها! لسوف تكون أبدع ما رسمت حين تتم، بل لا أغالى إن قلت إنها أبدع ما رسمت في وضعها الحالي.

وخرج اللورد هنري إلى الحديقة فوجد دوريان جراي
يدفن وجهه بين أزهار الليلج المنعشة يشم عبيرها كأنه نبيذ
كريم. ودنا منه ثم وضع يده على كتفه وقال فى صوت
خافت:

- ها قد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان، فما
يطهر الروح إلا الحواس، وما يطهر الحواس إلا الروح.
فانزعج الفتى وارتد قليلاً. وكان عاري الرأس فبعث
أوراق الشجر بشعره المتموج، وتشابكت خيوطه الذهبية،
وبدا في عينيه ارتياح عظيم كأنه نائم أوقظ فجأة من منامه
وارتجف أنفه الدقيق، ونبض فى شفثيه القرمزيتين عصب
دفين فتركهما ترتعشان بلا أنقطاع.

واستأنف اللورد هنري حديثه قائلاً:

- نعم يا مستر جراي، هذا سر من أسرار الحياة، بل سر
من أسرارها الكبرى، وأعني شفاء النفس عن طريق
الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس، وأنت نموذج
من نماذج الخلق الرائع، وشوقك إلى معرفة الحياة أكبر من
معرفتك بها، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن.

فأظلم وجه دوريان جراي، وأشاح برأسه عن اللورد
هنري، فلقد بدأ على الرغم منه يتعلق بهذا الرجل المديد
القامة الرشيق التكوين الواقف إلى جواره، وأثار اهتمامه
محياء الأسمر الحالم وملاحه المتعبة. أما صوته الخفيض
الكسلان فقد كان يسحر الحجر، ويداه الناصعتان الناعمتان
كان لهما سحر زهرة غريبة، وكانتا تتحركان بلا انقطاع

كلما تكلم حركة تشبه إيقاع لحن رتيب، فيكاد سامعه أن يفهم ما تقولان. ولكن دوريان برغم ذلك كله خامره الخوف منه، وإن أخجله أن يخاف. وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذى يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كتاب مفتوح، ويهتك أمامه ما خفى عليه من أسرارها. لقد عاش دوريان جرای بازيل هولوردد فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء، ثم دخل فى حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها. ولكن مم يخاف؟ لو أنه كان صبياً غريباً أو بنتاً قليلة الحيلة لجاز له أن يخاف. أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق. قال اللورد هنري:

- هيا بنا إلى الظل نجلس فيه. هذا باركر قد أتانا بالشراب، ولو مكثت فى هذا الجو المحرق طويلاً لأتلفتك الشمس، ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم. فحذار من الشمس يا مستر جراي، فالسمرة لا تناسبك. فأجاب دوريان ضاحكاً وهو يجلس على مقعد فى طرف الحديقة:

- وما أهمية ذلك.
- بل أهميته جوهرية بالنسبة لك.
- وكيف ذلك؟
- لأن شبابك لا نظير له، والشباب هو كل ما
- يستحق أن نتمناه لأنفسنا فى الحياة.
- ولكني لا أحس بشبابي يا لورد هنري.
- هذا طبيعي، وأنت لا تحس بشبابك لأنك تملكه، ولن تحس به إلا إذا فقدته، ولسوف تفتقده

يوم يضيع منك. ستفتقله حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالغضون. ستفتقله حين يحفر الهم أخايدته فى جبينك الجاف، ويكوي الأسى بنيرانه شفتيك. أنت تفتن الدنيا أينما ذهبى الآن، فهل يدوم لك ذلك؟ ما رأيت وجهاً قط فى جمالك وجهك يا مستر جواي، ولا تعبس فهذه حقيقة مقررة. والجمال لون من ألوان النبوغ، بل الجمال أعلى قدراً من النبوغ، وهذه أيضاً حقيقة مقررة. فإن كنت تشك فى ضوء الشمس أو فى الربيع أو فى القمر الفضى حين ينعكس خياله على المياه المظلمة أو فى أشباه هذه الحقائق الأولية، فلك أن تشك فى صدق ما أقوله. إن الجمال يحكم العالم بإذن من الله، ولا ينازعه فى دولته شئ فى الوجود، فمن حبه الطبيعة به جلس عرش القلوب. أراك تبتسم لهذا الكلام، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحي، ولعلمهم صادقون فيما ذهبوا إليه، ولكن الجمال مهما كان سطحياً فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر.

ولو سألتني الرأي لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب، ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية، ولكن الظواهر هي كل شئ فى الحياة، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئاً عن لغز الحياة. فلغز الحياة هو ما نراه، وليس ما لا نراه. نعم يا مستر جراي، إن الآلهة تحبك، ولكن لا تنس أن الآلهة تسترد ما تمنح، ولم يبق أمامك إلا سنوات معدودات تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكمل وجه. فحين يزوي شبابك يزوى معه جمالك،

ولسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت، وتفهم معنى الهزيمة، أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل، وهذا أشد مرارة من الهزيمة. إن كل شهر يفوت بذكرى مجدك الزائل، وهذا أشد مرارة من الهزيمة. إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم. فالزمن ينفس عليك شبابك ويغار من وردك ورياحينك،

وحين يصروعك الزمن يشحب لونك يتجدد خداك وينطفئ البريق الذى يلمع الآن فى عينيك، وتتعلم كيف يكون الشقاء. فانعم بشبابك ما بقى لك. أيامك ذهبية، فلا تبعثر ذهب أيامك مستمعاً إلى نصائح الوعاظ الثقلاء أو أخذاً بيد العاثرين أو مكرساً حياتك للجهال والسفهاء، فهذه أهداف عصرنا وهو مريض، وهذه مثله العليا وهى زائفة. عش وانعم بالحياة المفتحة فيك، واستفد من كل اختبار يمر بك، وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئاً. فعصرنا بحاجة إلى دين جديد، إلى وثنية جديدة، إلى إحياء عبادة الجمال التى أنطوت تحت أنقاض اليونان. ولتكن أنت رمز هذه الفلسفة الجديدة، فالدنيا وما عليها طوع بنانك حتى ينطوى ربيعك الناضر. لقد أدركت لأول وهلة حين لقيتك أنك تجهل حقيقة نفسك، وتجهل ما ينتظرك من أفراح، وها أنا أفصل لك أمرك لأن قوة خفية فيك جذبتنى إليك فأشفقت أن يضيع منك كل هذا الشباب المكنوز، وهو خليق بأن يضيع. وإن الأزهار الساذجة النامية على البطاح تذبل مع الخريف، ولكنها تتجدد فى مقدم الربيع،

وهذه الشجرة الصفراء التى تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار فى مثل هذه الأيام من العام القادم، ولسوف تكسو النجوم الحمراء حدائق الداليا بعد شهر واحد، وتلمع تلك النجوم فى ليل أوراقها الخضراء سنة من أخرى، أما نحن فشابنا المهراق لا يعود، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تفتّر بعد أن كانت تهزنا هز الأعاصير فى سن العشرين. كذلك تهن أبداننا وتنطفئ حواسنا وتؤول إلى دمي كريهة لا نفع فيها، دمي تحن إلى ما فات، وقد كانت تخاف قديماً من نداء السعادة، وتتأوه على الغوايات الحاة، وقد كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب. فحىّ الشباب إنه كل ما فى الدنيا من صور النعيم.

وكان دوريان جراى يستمع إليه عاجباً، فسقطت من يده باقة اليلج على الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة. واندفعت نحوها نحلة طنت قليلاً ثم بدأت تدب فى اليلج الملفوف. وطفق يتأمل هذه الظاهرة التافهة باهتمام عظيم كما نفعل عادة حين نضطرب لأمر جلل، أو حين تهزنا عاطفة جديدة لا نستطيع

التعبير عنها، أو حين تلح علينا فكرة رهيبة وتأبى إلا أن تخضع لها. ثم طارت عن اليلج النحلة، وشاهدها دوريان جراى تقتحم زهرة وتختفى فى أعماقها، ورأى الزهرة ترتجف، ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار. وظهر الرسام فجأة بباب الرسم، وأشار لهما بالعودة، فتبادلا النظرات وابتسما، وسمعا يقول:

- أنا فى الانتظار، والضوء الآن جميل، فعودا وتناولوا شرابكما هنا. فنهض الرجلان وسارا متكاسلين فى ممشى الحديقة، وطارت بجوارهما فراشتان إحداهما بيضاء والأخرى خضراء، وسمعا عصفوراً يغرد فى شجرة الكمثرى عند طرف الحديقة، وقال اللورد هنرى:

- أسعيد أنت بلقائي يا مستر جواى؟

- نعم، أنا الآن سعيد بلقائك، ولكن هل سأظل هكذا دائماً؟

- لا تقل "دائماً" يا مستر جراى، فكلمة "دائماً" كلمة فظيعة تجلبنى أرتجف خوفاً، والنساء مولعات بها إلى حد كبير، فهن يفسدن كل علاقة جميلة برغبتهن فى أن تدوم هذه العلاقة إلى الأبد. إن كلمة "دائماً" كلمة لا معنى لها. والفرق الوحيد بين النزوة العارضة والعاطفة الدائمة هو أن النزوة العارضة أطول عمراً من العاطفة الدائمة.

وفيما هما يدخلان المرسم أمسك دوريان جراى بذراع اللورد هنرى، وقال فى شجاعة أخجلته:

- إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة.

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرسام. وأرتمى اللورد هنرى على مقعد كبير، أخذ يتأمله عن كثب. وخيم على المكان صمت طويل، فما كان يسمع إلا حفيف الفرشة على اللوحة، وبين وقت آخر كانت تسمع خطوات هولود وهو يتراجع ليمتحن عمله من بعيد. وفى

أشعة الضوء المتدفقة خلال الباب المفتوح سبحت ذرات
التراب وبدأت كدقائق التبر، وتأرج كل شئ بعطر الورود.
وتوقف الرسام عن العمل ربع ساعة أو يزيد.

وأدمن النظر طويلاً إلى دوريان جرای ثم إلى الصورة،
وهو يعرض فرشته الضخمة فى تجههم واضح، وأخيراً صاح
قائلاً:

- لقد اكتملت الصورة.

وانحنى كثيراً، وكتب اسمه فى ركنها الأيسر بحروف كثيرة
حمراء، ودنا اللورد هنرى من الصورة ليمتحنها بنفسه،
فوجد لها آية من آيات الفن لا تبارى، ووجدها نسخة تطابق
صاحبها تمام. وقال:

- أهنتك يا بازيل من صميم قلبى، فهذه أجمل صورة
رسمت فى العصر الحديث. تعال يا مستر جرای لترى
نفسك.

كان الفتى مسترسلاً فى أحلامه فأفاق منها، ونزل من
القاعدة وقال فى صوت خافت:

- هل انتهت الصورة حقاً؟

فأجاب الرسام:

- الشكر لى يا بازيل، فلولاى لما أحسن الوقوف. أليس
كذلك يا مستر جرای؟

لم يجب دوريان بل مر أمام صورته بغير اكتراث ثم
التفت إليها فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء
واشتعل خداه لحظة من فرط السرور، وفاضت عيناه بالبشر

كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى. وثبت فى مكانه كالسحور لا يعى شيئاً مما يدور حوله، اللهم إلا صوت هولوورد فقد جاءه كاللحم. لقد أشرق عليه وجهه الصبح ففاجأه جماله كأنه وحى عظيم، وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس، فقد كان من قبل لا يقيم وزناً للكلام بازيل هولوورد، وبحسب إطراره إياه مجاملة لطيفة من مجاملات الأصدقاء. وتذكر دوريان جراى إطراره بازيل هولوورد. كم أصغى إليه و كم ضحك منه وكم نسيه! إن إطراره بازيل لم يترك فى نفسه أى أثر. والآن أقبل اللورد هنرى وتون ورنم ألامه ترنيمة الشباب وحذره من الزمن الغدار الذى ينسخ الشباب، فاهتز فؤاده لكلماته. وفيما كان دوريان يتأمل نضارته تملأ اللوحة. فهم مغزى تلك الكلمات، واقتنع بأنها تعبر عن الواقع الملموس. فلسوف يأتى يوم يتشقق فيه وجهه، وتنطفئ عيناه، ويغدو قده المياس عوداً يابساً، ويهرب القرمز

من شفثيه والذهب من شعره الجميل، وتمسخ الحياة جسده، وقد كان خليقاً بها أن تجدد روحه. أجل. ولسوف يصير إلى مخلوق مشوه كرية.

وحين خطر له هذا الخاطر أحس بالألم يمزق أوصاله كأنه طعن المدي، وارتجف كل عصب فى بنيانه، وازرقت مقلته، وترقرقت فيهما الدموع، وخيل إليه أن يداً من جليد تمس قلبه الدافئ. أما الرسام فلم يفهم لهذا الصمت معنى، وأتى له أن يعرف ما كان يدور برأس الفتى من هواجس فقال

حزيناً:

- ألا تعجبك الصورة؟

فقال اللورد هنرى:

- وكيف لا تعجبه؟ بل كيف لا تعجب العالم كله؟
إنها آية من أفخم آيات هذا الجيل يا بازيل، ولا بد أن
أشترئها. أطلب أى ثمن يروقك فهو لك.

- إنها ليست ملكاً لى يا هارى.

- من صاحبها إذا؟

- دوريان جراى بطبيعة الحال.

- ياله من فتى محظوظ..

فقال دوريان جراى وعينه لا تنصرفان عن الصورة:

- بل إنى لفتى تعس! نعم. إنى فتى تعس! سوف
يتقدم بى العمر، وأصبح مخلوقاً بشعاً تنفر منه العيون. أما
هذه الصورة فستظل أبداً ناضرة الشباب، ولن يزيد عمرها
عن هذا اليوم من شهر يونيو. ليت الأمر كان بعكس ذلك!
ليت الصورة تكبر، وأخلد أنا فى شبابى! إنى لأنزل عن
أعز ما أملك لتتم هذه الصفقة، وليس فى العالم كله ما
أضن به ليتحقق لى هذا الحلم. هذه روى أنزل عنها مختاراً
ليكون لى ما أريد.

ضحك اللورد هنرى وقال عابثاً:

- لا أحسب هذه الصفقة فى مصلحتك يا بازيل،
فالخطوط التى يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك
الجميل.

فأجاب هولوردد:

- طبعا أنا أمانع فى ذلك بكل ما أملك من قوة.
- عندئذ التفت دوريان جراى إليه، وقال متفرساً فيه:
- هذا لا يدهشنى منك يا بازيل، فأنت تقدم فك

- على أصدقائك، وما مقامى عندك إلا مقام تمثال من البرنز، بل لعل تمثال البرنز أثمن عندك منى.

فحملق الرسام فيه من فرط دهشته، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام. إن دوريا جراى الذى يعرفه لا يفكر على هذا النسق. أفهذا جزاؤه منه؟ ترى ماذا حدث له؟ وصعد الدم إلى وجه بازيل هولوردد، واستولى عليه غضب شديد فالتهب خداه. ولكن دوريان مضى فى حديثه قائلاً:

- نعم. إن موقعى عندك لأهون من موقع هرمز العاجى هذا أو هذه الغزالة الفضية التى تحرص عليها حرصك على الحياة، وحبك لهما لن يبلى على الزمن، فكم يدوم حبك لى؟ سيدوم حبك لى مادامت لى نضرتى، وحين تظهر فى وجهى أول بادرة من بوادر الهرم سأخرج من قلبك جملة. لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شئ يوم يفقد جماله، مهما كان حظه من الجمال. صورتك علمتنى ذلك يا بازيل، ولقد أصاب اللورد هنرى فى كل ما قال، فالشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا فى هذا الحياة، ولسوف أقتل نفسى حيث أعرف أن شبابى قد ذهب.

عندما سمع هولوردد هذا الكلام سحب لونه، وأمسك بيد دوريان جراى وصاح به:

- ماذا دهاك يا دوريان! ما كنت أرجو فيك أن تقول مثل هذا الكلام، فما أخلصت لأحد إخلاصى

لك ولن أخلص. أصبحت تغار من الجمادات يا دوريان؟
دع عنك هذه الأوهام، فأنت أصفى معدناً من كل هذه
الأشياء!

- إني أغار من كل شئ جماله لا يموت، أغار من
الصورة التي نقلتها عني. فكيف يبقى جماله، وأفقد أنا جمالي
برغمي؟ إن كل لحظة تمضي تقتطع مني شيئاً وتضيف إليها
شيئاً، فليت الأمر كان على عكس ذلك. واهاً لي! ليت
الصورة تتغير وأبقى أنا على حالي. ماذا دفعك إلى رسمها؟
إنها ستسخر مني حين يأتي الأوان.

وفاضت عيناه بالدموع، ونزع يده من يد هولورود،
وألقى بنفسه على الأريكة، ودفن وجهه في وسائدها كأنه
يتلو الصلوات. فقال الرسام في مرارة:
- أنت المسئول عن هذا يا هاري.

- بل هذا دوريان جرای الحقيقى.

- ليس هذا صحيحاً.

- علام تلومنى إذا؟

قال الرسام بصوت متقطع:

- كان خليقاً بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف

يا هاري.

فأجابه اللورد هنرى قائلاً:

- ولكن سألتنى أن أبقى.

- اسمع يا هاري. أنت ودوريان أعز أصدقائي، ولن

أستطيع أن أخاصمكما معاً فى وقت واحد. لقد جعلتمانى

أبغض أجمل شئ أنتجته فى حياتى، ولذا سأحطم هذه الصورة. إن هى إلا خيش وألوان، ولن أضعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا.

فلما سمع دوريان جراى هذا الكلام رفع رأسه الذهبى من الوسادة، ونظر إليه شاحب الخد داعم العين فرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التى يجمع فيها أدواته. ماذا عساه يفعل؟ إنه يبحث عن شئ، فأصابه تحسس شيئاً بين الأنابيب الفارغة والفرش الجافة. إنه يبحث عن السكين الفولاذية الحادة التى يستخدمها فى مزج الألوان، ولقد وجدها. وها هو يهم بتمزيق الصورة.

فوثب دوريان جراى من الأريكة وقد اختنقت فى صدره زفراته، وهجم على هولوورد وانتزاع المدية من يده، وقذف بها إلى طرف المرسم صائحاً:

- كلا. كلا يا بازيل! هذ والقتل سواء!

قال الرسام ببرود بعد أن أفق من دهشته:

- أشكرك يا دوريان على هذا التقدير، وإن جاء متأخراً.

ما كنت أظنك ستقدر الصورة.

- لا تتحدث عن التقدير يا بازيل بل تحدث عن

التقديس، فأنا أعبدُها عبادة لأنها قطعة من نفسى. وهذا هو إحساسى الصادق.

- إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تجف أولاً، ثم

أضع عليك الورنيش لتلمع، ثم أحبسك فى إطار، ثم أرسلك أخيراً إلى بيتك وحيث تصل إلى بيتك أفعل بنفسك ما تشاء.

وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من

الغرفة ودق الجرس وقال:

- أتحب أن تتناول قليلاً من الشاي يا دوريان، انت يا هاري؟ هل لك في فنجان من الشاي أم تراك تحتقر هذه المتع البسيطة؟

فأجاب اللورد هنري قائلاً:

- وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل، وهى عزاؤنا الباقى كلما مللنا المتع الكبيرة! ولكن كفى مشاحنة، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على المسرح، ولم أر أسخف منكما إنساناً. ما أبعدكما عن العقل، فأى أحق هذا الذى وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيراً، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات، ولكن العقل ليس من ملكاته، وهذا ما يحببنى فيه. إن احتدادكما بشأن الصورة قد ساءنى، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقية إليها.

فصاح دوريان جراى قائلاً:

- اسمع يا بازيل، لو أعطيتها لأحد سواى فلن أعتفر لك ذلك، ثم إنى لا أسمح لأحد بأن يصفنى بأنى ولد طائش.

- أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود.

- وأنت تعلم يا مستر جراى أن سلوكك لم يخل من الطيش، وعهدى بك أنك لا تغضب إلا ذكرك أحد بمحادثة

سنك.

- لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح، يا لورد هنرى.

- آه من هذا الصباح! يا لورد هنرى.

- آه من هذا الصباح! لقد فات هذا الصباح، وانطوى من عمرك بعضه.

وطرق الخادم الباب مستأذناً فى الدخول، ثم دخل حاملاً صينية عليها أطيب المأكولات، ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية، وارتفع صوت الأطباق والفنجانين، والماء المغلى بخاره المكتوم يتصاعد من الإناء القديم الذى يحتويه فيصفى صفيراً مسموعاً. ودخل خادم آخر بالصحن الصينية، وتقدم دوريان جراى ليصب الشاي فى الفنجانين على حين سار الرجلان فى ثقيل صوب المائدة، وكشفاً أغشية الأوانى ليريا ما خبئ تحتها من ألوان الطعام. وأخيراً قال اللورد هنرى:

- أقترح أن نذهب الليلة إلى المسرح، وأعتقد أننا نجد مسرحاً مفتوحاً، لقد وعدت أن أتعشى هذا المساء فى مطعم مع صديق قديم لا أكثر، وسأرسل له برقية أعذار فيها بأن صحتى معتلة أو أقول فيها إنى أرتبط بموعد آخر، وهذا أفضل، لأنه سيجد فى صراحتى مفاجأة لطيفة تنسيه الإساءة.

وقال هولوردد:

- أنا أمقت ملابس السهرة، فارتداؤهما يضايقني ومنظرها لا يطاق.

أجاب اللورد هنرى:

- هذا صحيح. إن ملابس السهرة فى القرن التاسع عشر فظيعة، فلونها قائم مقبض، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة فى الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة.

- يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جراى.

- أى دوريان تقصد؟ دوريان الذى يصب الشئى لنا الآن. أم دوريان الذى نراه فى الصورة؟
- كليهما.

قال الفتى:

- أود أن أصحبك إلى المسرح يا لورد هنرى.

- فلنذهب معاً إذاً. وأنت يا بازيل، هل أتيت معنا؟

- كلا، فعملى يمنعنى.

- فلنذهب بمفردنا إذاً، أنت وأنا يا مستر جراى.

- ذلك يسرنى جداً.

فعض الرسام شفته، وسار نحو الصورة حاملاً فنجاناً فى يده وقال فى أسى:

- أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقى.

تقدم الفتى صوبه وقال:

- أهذا الذى نراه فى الصورة دوريان الحقيقى؟ أهذه

صورة صادقة منى؟

- نعم، هذه صورة صادقة منك.

- ما أجملها صورة يا بازيل؟

فتنهده هو لورد وقال:

- أنت تشبهها فى المظهر على الأقل، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير، وفى هذا بعض العزاء.

قال اللورد هنرى:

- ما هذا اللغو الكثير الذى يردده الناس عن الوفاء! إن الحب نفسه مسألة فسيولوجية ولا دخل للإرادة فيها. أرى الشبان يحاولون الوفاء فيعجزون عنه، وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها. هذا مانستطيع أن نقوله فى الموضوع.

قال هولوردد:

- لا تذهب إلى المسرح الليلة يا دوريان، بل أبق معي للعشاء.

- لأستطيع.

- ولماذا؟

- لأنى وعدت اللورد هنرى أن أرافقه.

- ولكن اللورد هنري لن يقدر فيك الوفاء بعودك، فهو يخلف وعوده باستمرار. أرجوك أن تبقي معي. فضحك دوريان جراى، وهز رأسه دلالة الرفض.

- أتوسل إليك أن تبقي معي.

تردد الفتى قليلاً ونظر إلى اللورد هنري فألفاه واقفاً بجوار مائدة الشاى يتأملها وهو يتسهم. وأخيراً قال:

- لا بد أن أذهب يا بازيل.

فأجاب هولوردد وهو يضع فنجان الشاى على الصينية:

- إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر، ولا بد أن تستبدل ملابسك. إلى اللقاء يا هارى. إلى اللقاء

يا دوريان، ولا تغب طويلاً. تعال غداً.

- بالتأكيد.

- أرجوك إلا تنسى.

- لن أنسى بالطبع.

- اسمع يا هارى!

- نعم يا بازيل؟

- تذكر رجائي إليك حين كنا فى الحديقة هذا الصباح.

- أى رجاء هذا؟ لقد نسيت.

- أنا أثق فيك.

- ولكنى لا أثق فى نفسى. هيا بنا يامستر جراى

فعربتى تنتظر فى الخارج. وفى إمكانى أن أصل بك إلى

بيتك. إلى اللقاء يا بازيل. لقد كان يومنا حافلاً.

ولما أقفل الباب دونهما ارتقى الرسام على إحدى

الأرائك، وتملكه حزن شديد.

الفصل الثالث





خرج اللورد هنرى وتون من منزله فى شارع كيرزون فى الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالي، وسار إلى نادى أوليانى ليزور عمه اللورد فيرمور، وهو شيخ أعزب، طيب القلب، خشن المعاملة، تناقضت فى وصفه الآراء، فمن يجهلونه يصوفه بالخسة والأنانية لأنهم لا يستفيدون منه شيئاً. أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء لأنه يطعم كل من يسلّونه. وقد كان أبوه سفيرنا فى مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وبريم لم يولد بعد، ولكنه استقال من السلك السياسى فى لحظة الضيق لأن وزارة الخارجية ضنت عليه بسفارة باريس، وهو منصب كان يعده حقاً من حقوقه الطبيعية، ويؤهله له طيب منبته، وكسله، وجمال أسلوبه فى الخطابات الرسمية، ونهمه الشديد لزينة الحياة.

أما الابن فقد كان يؤمئذ سكرتيراً لأبيه، واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة فى التصرف. فلما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور، خصص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم، فن البطالة. وكان يملك منزلين فسيحين، ولكنه أثر أن يستأجر شقة فى لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح، وتعود أن يتناول وجباته فى ناديه. وقد وجه اللورد فيرمور بعض التفاته إلى إدارة مناجم الفحم التي يملكها فى الميدلاندز، وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة، وهو أمر مبتذل لا يغفر فى جنتلمان، قائلاً إن للفحم منزلة واحدة لا غناء عنها فى أى مجتمع سليم، هى أنه يمكن الجنتلمان من استخدام الخشب فى مدفاته، وهو ترف لا تعرفه السوق مستهلكة الفحم. وكان فى السياسة محافظاً حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم متهماً إياهم بأنهم عصبة من المجددين. أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلاً فى نظر خادمه الخاص لأن خادمه كان يتجبر عليهم، وكان كابوساً فى نظر أفراد أسرته. لأنه كان بدوره يتجبر عليهم. وكان يقول فى كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض. أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية، وأما حقله الموروث على كل جديد فلم يعدم من يدافع عنه.

ودخل اللورد هنري الغرفة فوجد عمه جالساً يدخن سيجاراً، ويطلع صحيفة التايمز متذمراً. قال السيد العجوز: - ماذا جاء بك يا هارى فى هذا الوقت المبكر. لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل

الساعة الثانية، ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة.
- أؤكد لك يا عمى أن شوقى إليك هو الذى دفعنى
إلى الجئ. لقد جئت لأطلب منك شيئاً.
فقال اللورد فيرمور عابساً:

- أظنك جئت تطلب مالاً. اجلس وارو لى القصة من
أولها إلى آخرها. إن شباب هذا الجيل يرون أن المال هو كل
شئ فى الحياة.

قال اللورد وهو يصلح من عروته:
- هذا صحيح. وحين يتقدم بنا العمر ندرك صحة
ذلك. ولكنى ما جئت لأطلب منك مالاً، فما يطلب المال إلا
شخص يسدد ديونه، وأنا لا أسدد ديونى مطلقاً. فلاستدانة
رأس مال الابن الأصغر، والحياة جميلة برأسمال كهذا. ثم إنى
أتعامل مع تجار دارتمور ولهذا أسلم من المضايقة. إنما جئت
لأطلب معلومات، أقصد معلومات تافهة لا معلومات نافعة
بطبيعة الحال.

- فى استطاعتى أن أخبرك بكل ما ورد فى الدليل
العام يا هارى، وإن كان الدليل العام مشحوناً بالكاذب
فى هذه الأيام. لقد كانت الأمور خيراً مما هى الآن حين
كنت فى السلك. ولكن بلغنى أخيراً أنهم يعقدون امتحاناً
لطالبي الالتحاق فى هذه الأيام، وهذا خطأ يا سيدى.
فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة، واجتئلمان.

قال اللورد هنرى فى تراخ:
- جئت أسألك عن مستر دوريان جراى، وهو لم يرد فى
الدليل العام يا عمى.

قال اللورد فيرمور وهو يعقد حلجبيه الكثيقتين:

- ومن يكون مستر دوريان جراى هذا؟

- هذا ما جئت أسألك عنه يا عمى. أنا أعرف من يكون، فهو حفيد آخر لورد كلسو وأمه سليلة ديفيرو. وأمه هى اللىدى مرجريت ديفيرو، وقد جئت لأعرف شيئاً عنها، فحدثنى عنها وعن زوجها. أنت عرفت أكثر أبناء جيلك، فلعلك عرفتها فيمن عرفت. وقد قابلت مستر دوريان جراى فى الأيام الأخيرة فأثار اهتمامى.

قال اللورد فيرمور مسترجعاً الماضى البعيد:

- حفيد كلسو! حفيد كلسو! دعنى أتذكر. حقا ما أغبانى! نعم كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال، وأعتقد أنى حضرت الاحتفال بتعميدها. لقد كانت مرجريت ديفيرو آية من آيات الجمال، وأثارت غيرة الرجال حين فرت مع شاب مفلس لايساوى شيئاً. نعم، يا سيدى، فرت مع جندى فى فرقة المشاة أو ماشابه ذلك. وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة. نعم، أذكر كيف قتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور فى مبارزة مدبرة، وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول إن "كلسو" قد استأجر سفاحاً بليجيكييا ليهين زوج ابنته أمام الناس. نعم، يا سيدى: استأجره بالمال ليقتله، فأجهز عليه كما تجهز على حمامة وديعة، وأخفيت الحقيقة عن الناس، ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمناً طويلاً نتيجة لذلك الحادث. وقد بلغنى أنه رد ابنته إلى كنفه، ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت. وقد ماتت بعد شهور قليلة. نعم، يا

سيدى، لقد كانت قصة محزنة، ولم أكن أعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل. ما حال هذا الغلام؟ وإن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيماً.

فقال اللورد هنرى مؤمناً على كلامه:

- إنه آية من آيات الجمال.

-

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلاً:

- أرجو أن يجد هذا الفتى من يعتنى به، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف فى ماله فسيجد هذا الغلام شيئاً كثيراً فى انتظاره. كذلك كانت أمه من أهل الثراء، فقد ورثت كل أملاك جدها فى سلبي. وكان جدها يمقت كلسو ويحتقره لأنه كان كلباً قذراً. أذكر أنه نزل بمديرد حين كنت بها، فكانت مصدر خجل دائم لى. وقد سألتنى الملكة مراراً عن ذلك النبيل الإنجليزى الذى كان فى شجار مستمر مع سائقى العربات بسبب أجورهم، وكانت فضيحة الموسم، فلم أجرو على الظهور فى البلاط شهر كاملاً. أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيراً مما كان يعامل سائقو العربات.

فأجاب اللورد هنرى:

- لا أعرف عن هذا الموضوع شيئاً. ولكنى أظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد، وإن كنت أعلم أن سلبي تقع فى أملاكه لأنه ذكر لى ذلك بنفسه. أكانت أمه جميلة حقاً؟

- نعم: لقد كانت مرجريت ديفيرو تحفة فى الجمال يا

هارى، ولم أفهم قط ما الذى دفعها ذلك المسلك الشاذ، فقد كان فى وسعها أن تتزوج من تشاء من الرجال. فكارلنجتون مثلاً كان مجنوناً بحبها، ولكنها كانت فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرته، ويا لمن من نساء رائعات! أما رجال الأسرة فقد كانوا جماعة من الأوباش. وقد ركع كارلنجتون أمامها مرة كما أخبرني بنفسه. فضحكت منه. أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات لندن يطاردنه، وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يا هارى، ما هذا الجدل الأحق الذى أسمعه عن رغبة دارتمور فى أن يتزوج بأمريكية. إلا يجد فى إنجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له؟

- إن الزواج بأمريكيات هو آخر تطور فى الذوق الإنجليزي يا عمى.

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح:

- أنا أراهن بكل ثروتى على الفتاة الإنجليزية.

- لكن الناس يراهنون الآن على الأمريكيات.

فأجاب عمه:

- لقد بلغنى أنهن متقلبات.

-

- أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن، ولكنهن يظهرن

فى سباق الحواجز، فمفتاح قلوبهن السرعة، ولا أعتقد أن دارتمور سيصادف نجاحاً كبيراً.

قال السيد العجوز ساخطاً:

- بنت من تكون هذه الفتاة؟ ما أسرته؟ أها أسرة؟

فأجاب اللورد هنرى، وهو يتأهب للإنصراف:

- إن الأمريكيات يجدن إخفاء نسبهن كما تجيد الإنجليزيات إخفاء ماضيهن.

- أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بعمل الحامبون.

- من مصلحة دار تمور أن يكونوا كذلك، فقد قيل لى إن عمل الحامبون أربح مهنة فى أمريكا بعد السياسة.

- أجميلة هى؟

- إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات، وهذا سر فتنتهن.

- إذا كانت أمريكا حقاً جنة النساء كما نسمع دائماً من الأمريكيات، فلماذا يخرجن من هذه الجنة؟

فقال اللورد هنري:

- ولكن أمريكا جنة النساء فعلاً، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها. والآن لا بد لى من الانصراف، وإلا وصلت متأخراً للغداء فوداعاً يا عمه، وشكراً على مازودتنى به من معلومات، فأنا أحب أن أعرف كل شئ عن أصحابى الجدد، وأحب أن أجهل كل شئ عن أصحابى القدماء.

- وأين تتناول غداءك اليوم يا هارى؟

- عند عمتى أجاثا. فقد دعوت نفسى، ومستر جراى إلى مائدتها، فمستر جراى آخر اكتشاف اكتشفته عمتى.

- إذا فأرجوك أن تبلغ عمتك أن تعفينى من نداءات البر التى توجهها لى، فقد ضاق بها صدرى. إن هذه السيدة المباركة تخال أن عملى فى الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية.

- سأبلغها ذلك يا عمى وإن كنت أعرف أن كلامى لن يثمر، فأهل البر يفقدون كل شعور إنسانى.
وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنرى فى رأى. ودق الجرس ليستدعى خادمه، وأما اللورد هنرى فصار مخترقاً ممراً سقفه ذو قباء حتى بلغ شارع برلنجتون، ثم سار فى اتجاه ميدان باركلى.

هذه إذا قصة دوريان جراى. إن اللورد فيرمور قد رواها له فى غير تنسيق، ولكن أى قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة، وأى خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات، ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حياً، حتى فى القرن التاسع عشر. فialها من مأساة مروعة. هذه امرأة جميلة تغامر بكل شئ لترضى شهوة جامحة. وialها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهى بجرمة وحشية. وialها من شهور طوال من العذاب الصامت تنتهى بميلاد طفل شقى بين الأحزان. هذه أم تموت فى مقتبل العمر فتترك وليدها فى كنف رجل مسن منزو لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ليسومه مر العذاب. لقد كان لدوريان جراى ماض غير مألوف، ماض جدير به، فلا بد لهذا الجمال الفذ من قصة فذة تمهد له، والجمال لا ينبت إلا فى بيت الأحزان. وإن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت فيها أول زهرة، فكيف بدوريان جراى ذى الجمال القهار! لقد جلس أمامه فى الليلة السالفة يتناول معه العشاء فى النادى، وكان فاعراً فاه محملاً عابجاً، يغمره مزيج

من الخوف والطرب، وسقط عليه من الشموع نور أحمر
ضرج خلده الوردي بورد جديد، فبدا كإله فاتن مشدوه. لقد
كان الحديث معه أشبه شئ بالعزف على كمان حنون، لأن
أوتار قلبه كانت تهز لكل كلمة تقال. ما أشبه الخضوع
لأفكار الغير بالعبودية، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا
بالاستعباد. إن التأثير في الغير يكسب الإنسان إحساساً
بالقوة لا نظير له في الحياة. فما أجمل أن تمتد الروح إلى
الخارج وتسكن جسداً آخر، ولو للحظات معدودات. وما
أجمل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة
بنفس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون. وما أجمل أن يمتزج
الطبع بالطبع امتزاج السائل السحري بالسائل السحري
أو امتزاج العطور. إنها لذة لا تساويها لذة، ولعلها كل ما
بقي لنا من مباهج الحياة في هذا العصر السوقي المحدود،
هذا العصر

الغليظ الذوق الرخيص الأهداف الساعى وراء أفراح
الجسد وحدها. ولقد كان هذا الفتى الذى عرفه مصادفة فى
مرسم بازيل هولوردد نموذجاً عالياً لشباب الجيل، ولو لم
يكن لأمكن أن يصاغ منه نموذج عال لشباب الجيل على أية
حال. فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا والجمال. وإن دوريان
جراى طينة لينة فى يد من يصوغها. ولقد يكون منه ماردا
شاهق أو دمية تلعب بها الأطفال، فواها لهذا الجمال يوم
يزول. ثم إن هناك بازيل، وبازيل فى ذاته دراسة نفسية
متعة! لقد كان بازيل صاحب أسلوب فى الفن جديد،

وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة، وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدرى أنه ملهم. ولقد كانت روحه فيما مضى روحاً صادقة نافرة تسكن الأدغال المظلمة وتمشى خفية بين الحقول، وها هي الآن تتجلى فجأة فى وضوح الضحى كأنها حورية من حور الغاب لا تجزع من شئ لأنها صحت على رؤيا عالم عجيب، عالم فيه كل شئ صاف، وكل شئ يرمز لفكرة مثالية لا تتحقق إلا به. وما أعجب هذه الرؤيا! أو لم يصف لنا أفلاطون، فنان الفكر، هذه الرؤيا فى القديم؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتى فى رخان ملون متماسك كأنه قريض شاعر عظيم؟ ولكن هذا كان ممكناً فى الماضى، أما فى هذا العصر فهو المعجزة الكبرى. فليمكن اللورد هنرى لدوريان جراى إذا ما كانه دوريان جراى لبازيل هولوردد، وليسيطر على نفسه سيطرته على نفس الفنان.

ولقد أصاب فى ذلك بعض النجاح، ولسوف يملك ذلك الروح البهى فى قبضته كما يملك الساحر الجان فى قبضته. إنه ابن الحب والموت، وهو نسب فى طرفيه عظيم. ثم توقف اللورد هنرى فجأة عن المسير، أخذ يتأمل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيراً، فابتسم لشروء ذهنه وعاد إليه. وحين دخل القاعة الموحشة أنبأه كبير الخدم أنهم يتناولون الغذاء، فسلم قبعته وعصاه ودخل حجرة الطعام، فلما أن رآته عمته صاحت به وهى تهز رأسها مؤنبه:

- أراك قد جئت متأخراً كعادتك.

فأسعفه خياله بعذر من الأعذار المألوفة، ثم احتل مكانه فى المائدة إلى جوارها، وأجال فى المدعوين بصره فرأى دوريان جراى فى طرف المائدة، وشاهده ينحنى فى خجل محيياً إياه، وقد بدا عليه السرور لمراه. وكانت دوقة هارلى تجلس قبالة، وهى سيدة محبوبة طيبة القلب حلوة الشمائل، ولكنها كانت قطعة ضخمة من العمارة الراسخة التى يراها مؤرخو هذا العصر فى الدوقات فيسمونها صحة وعافية، ويرونها فى النساء العاديات فيسمونها بدانة واستكراشاً. وعن يمينها جلس السير توماس بيردون وهو عضو من أعضاء البرلمان راديكالى المذهب يتبع رئيس حزبه فى الحياة العامة، ويتبع أمهر الطهاة فى الحياة الخاصة، فتراه يأكل على موائد المحافظين، ويشارك الأحرار نظرياتهم فى الحياة تمشياً مع المثل السائر المعروف. وعن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهو سيد مسن من أهل تريدلى لطيف المعشر واسع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هى صمته المستمر، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدى أجاثا بأنه أستنفد كل ما فى جعبته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين. أما جارة اللورد هنرى ذاته فكانت مسز فاندلور وهى صديقة من أقدم صديقات عمته أجاثا لها صفات القديسات، ولكنها سيئة الهيئة تذكر بكتاب من كتب التراتيل مهلهل الغلاف. وإلى جوار مسز فاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل فى عمله برغم ذكائه المتقد، يذكرك رأسه الأصلع ببيان وزارى فى مجلس العموم، خلا

من كل تنميق. وكانت تتحدث إليه فى جد وحماسة وهى غلطة لا تغتفر يتورط فيها ذوو النوايا الطيبة، ولا ينجو منها أحدهم مهما اجتهد.

قالت الدوقة وهى تحي اللورد هنرى بإشارة من رأسها:
- نحن نتحدث عن دار تمور المسكين يا لورد هنرى، فهل تعتقد أنه سيتزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يقال؟

- أنا يا سيدتى الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه. فصاحت الليدى أجاثا:

- هذه نكبة! أليس هناك من يتدخل؟
قال السير توماس بيردون فى كبرياء واضح:
- لقد بلغنى من مصدر عليم أن أباه يملك متجراً للبضائع الجافة.

- من رأى عمى أنه يتاجر فى لحم الخنازير المحفوظ.
فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين فى تعب:
- وماذا تكون هذه البضائع الجافة؟ نعم، ماذا تكون؟
فأجاب اللورد هنرى وهو يتناول سمانة:
- البضائع الجافة هي القصص الأمريكية.
فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكبة. وهمست الليدى أجاثا فى أذنها قائلة:
- لا تلقى بالاً يا صديقتى لما يقوله اللورد هنرى. فحديثه هزل متصل.

وقال عضو البرلمان الراديكالى:

- لما استكشفت أمريكا.....

واسترسل فى سرد بعض التفاصيل المملهة، وأراد أن يستنفذ الموضوع فاستنفذ صبر سامعيه. وتنهدت الدوقة وباشرت حقها فى المقاطعة فقالت:

- ليت أمريكا لم تستكشف قط، فالأمريكيات لا زلن يزاحن بناتنا فى سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهن، وهذا ليس من الإنصاف فى شئ.
قال مستر إرسكين:

- ومن يدرينا أنها استكشفت؟ فأنا مثلاً أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا إلا أنها قارة موجودة.
فأجابت الدوقة قائلة:

- هذا غير صحيح، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسى، ولا بد أن أعترف بأنهن رائعات الجمال صاحبات أناقة يشترين كل ملابسهن من باريس، وكم تمنيت أن يكون لى المال الذى يعود على بكل هذا الترف.

كانت عند السير توماس تشكلىة كبيرة من الفكاهات القديمة، فقذف الحاضرين بواحدة منها. قال:

- يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم.

فسألته الدوقة قائلة:

- عجباً! أين يذهب إذا أشرار الأمريكيين؟

قال اللورد هنرى فى صوت خافت:

- يذهبون إلى أمريكا.

فعبس السير توماس بيردون، وقال لليدى أجاثا:
- أرى أن ابن أخيك يا سيدتى متحامل على هذا البلد
العظيم. لقد زرت أمريكا بلداً بلداً فى سيارات أعدها لى
مديروا الشركات، فهم قوم يعرفون كيف تكون المجاملة.
وأؤكد لك يا سيدتى أن فى زيارة أمريكا ثقافة للزائرين.

فاعترض مستر إريسكين على ذلك بقوله:
- هل من الضرورى أن أرى شيكاغو لتتم ثقافى؟ يا
لها من رحلة مضية.

قال السير توماس مشيراً بيده:
- إن مستر إريسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته،
أما أمثالنا من الرجال العاملين فنحن نفضل أن نرى الدنيا
لا أن نقرأ عنها. وأعتقد أن الأمريكين شعب جدير
باهتمامنا، فهم أهل تفكير مستقيم، بل إن التفكير المستقيم
أول صفاتهم. نعم، يا مستر إريسكين، إن الأمريكين أهل
منطق لا يخطئ، وأؤكد لك أن الغفلة ليست من صفاتهم.
فصاح اللورد هنرى قائلاً:

- هذه مأساة، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها أما المنطق
الصارم فلا سبيل إلى احتمالها، وليس من العدل استخدامه.
قال السير توماس محتداً:

- لست أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى.
قال مستر إريسكين مبتسماً:
- أنا أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى.
قال السير توماس:

- ان التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل فى بابها

ولكن.....

فقاطعه مستر إريسكين قائلاً:

- لست أرى فيما قاله اللورد هنرى تعبيراً عن شيء بنقيضه، ولكن ربما كنت مخطئاً في فهمي. مهما يكن من شيء فالتناقض طريق الحقيقة. فإذا أردنا أن نتأكد من صدق شيء وجب أن نراه من جميع وجوهه. وجب

- أن نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذي يسير على حبل مشدود.

قالت الليدي اجاثا:

- ويلنا منكم معشر الرجال، فكم تحبون الجدل أقسم أني لا أفهم كلمة واحدة مما تقولون. أما أنت يا هاري فإني مستاءة منك أشد الاستياء لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جرای عن الاهتمام بالفقراء، وأؤكد لك أن في امتناعه عن الاشتراك في أعمال البر خسارة لا تعوض، فقراء الإيست إند سيسرون به إذا رفه عنهم بالمقطوعات الموسيقية.

فابتسم اللورد هنري، ونظر إلى دوريان جرای فلقى في وجهه ما يشجعه فقال:

- لأنني أريده أن يرفه عني أنا بالمقطوعات الموسيقية.

اعترضت الليدي اجاثا قائلة:

- ولكن الفقراء في هوايت تشابل في شقاء لا يوصف.

فقال اللورد هنري وهو يهز كتفيه استخفافاً:

- إن صدري يتسع لكل شيء، ولكنه يضيق

بالشقاء. نعم، أنا لا أعطف على الشقاء فالشقاء بشع،
الشقاء كرية، الشقاء يكسر القلوب، وأنا أرى اهتمام أهل
هذا الجيل بالألم نوع من المرض، فالواجب أن نهتم بألوان
الحياة الزاهية، بجمالها، بأفراحها. فخير لنا أن ننسى أوجاع
الحياة.

قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلى بتصريح
خطير:

- ولكن الإيست إند مشكلة برغم كل ما تقول.
فأجابه اللورد الشاب قائلاً:
- لست أشك في ذلك. إنها مشكلة العبودية، ونحن
نحاول حلها بتسليية العبيد.
- فنظر السياسى إليه نظرة فاحصة وسأله:
- إذا فأني تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة؟
ضحك اللورد هنرى وقال:
- أنا لا أقترح تغيير شئ في إنجلترا إلا جوها، ويكفيني
من الإصلاح مجرد التفكير الفلسفى فيه. ولكن إذا كان
القرن التاسع عشر قد استنفد كل ما يملكه من

- عطف على فقرائه حتى أفلس تماماً، فأنا أقترح أن
نلجأ إلى العلم لعل العلم يقوم اعوجاجنا. إن مزية
العواطف أنها تضللنا، ومزية العلم أنه خال من العواطف.
وتجبرأت السيدة فاندلور على الاشتراك في المناقشة،
وقالت في حياء:

- ولكن مسئولياتنا خطيرة.
- وأيدتها الليدى أجاثا
- قائلة:

- بل جد خطيرة.
- فنظر اللورد إلى مستر إرسكين وقال:
- إن الإنسانية تهتم بنفسها أكثر مما ينبغي، ويبدو أن هذه هي خطيئتنا الأولى، فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ.
- قالت الدوقة فى تنعيم مضحك:
- إن حديثك ينزل على قلبى برداً وسلاماً يا لورد هنرى، فكلما جئت لأعود عمتك عنفنى ضميرى لقلّة اهتمامى بالإيست إند. أما وقد عرفت رأيك فلن أخجل منها بعد الآن.
- فقال اللورد هنرى:
- إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتى الدوقة.
- فأجابت:
- نعم، إذا كن فى مستقبل العمل، أما مثيلاتى من العجائز فالخجل فيهن دلالة سيئة. واهاً على الشباب يا لورد هنرى! هلا علمتنى كيف أستعيد شبابى!
- ففكر لحظة ثم سأها:
- أتذكرين حماقة كبرى ارتكبتها فى شبابك يا سيدتى الدوقة! قالت:
- أجل. بل أذكر حماقات وحماقات.
- قال فى لهجة جادة:
- ارتكبيها إذا من جديد، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب حماقاته من جديد.
- فصاحت الدوقة قائلة:

- هذه نظرية جميلة، وسأعتمد إلى تطبيقها فوراً يا لورد هنرى.

قال السير توماس:

- بل هذه نظرية خطيرة!

وهزت الليدى أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور.
أما مستر إرسكين فأخذ يستمع إلى اللورد هنرى وهو يمضى
فى حديثه قائلاً:

- نعم هذا سر من أسرار الحياة الكبرى. فنحن اليوم
يفتك بنا وباء نسميه التفكير السليم، وهو يدب فى
أعضائنا قليلاً حتى يشلنا تماماً فنموت، وعندما نفقد كل
شئ ندرك أن أخطأنا هى الأشياء الوحيدة التى لا نندم
عليها فى الحياة.

فضحك القوم.

فلما رأى أن الفكرة أعجبتهم أعطاهم المزيد فيها. أخذ
يلعب بها ويخرج منها شتى التخريجات ثم يستطرد، وما
توشك أن تفلت من يده الفكرة حتى يتلقفها من جديد.
وهكذا اجتهد فيها حتى وضع عليها كل توابله. وهكذا
اجتهد فيها حتى طلاها ببريق الخيال، وزودها بأجنية
التعبير السحرى. وما إن فرغ من بيانه حتى أصبح تمجيد
الحماقة لفضله فلسفة ناضجة، وأصبحت الفلسفة
الناضجة بفضله عذراء بقاء خضب النبيذ ثيابها، توجت
الأكاليل رأسها، تشتاق إلى اللذة الحرام، وترقص فوق تلال
الحياة رقصة البنات السكارى فى أساطير اليونان، وتعنف

بالخوس على صحوه واتزانه، ووطئت قدمهاها البيضاوان
حان الخيام حكيم الزمان وخاضتا فى عصير العنب الذى
فاض من حولها أنهاراً، وبللت صفائرها فقاقيع النبيذ
الأرجوانى حين طفح زبله الأحمر على جوانب الوعاء
السوداء، وانحدر قطرة قطرة. وكان حديثه مرتجلاً لا أثر
للتحضير فيه، ولكنه ملك القلوب. وفيما هو يتكلم أحس
بعين دوريان جراى تحملقان فيه، فذهب ذلك بعقله، فجر
ذكاه وجعله ينمق ويجود ويحسن التأويل لعله يوقظ
وجدانه ويأسر فؤاده. وتتابع عباراته زاهية الألوان رخيمة
الأنغام خطرة على السامعين، وفتن كلامه الحاضرين فنسى
كل نفسه، وراح يتبع هذا المزمар الطروب، ويرقص على
أنغامه الفرحة. كل هذا ودوريان جراى لا يحول عنه عينيه،
بل ثبت فى مكانه كالمسحور يبتسم الرضا على شفثيه،
وتحملك الأحلام فى عينيه.

وأخيراً أفاقوا على الحقيقة، وكانت الحقيقة التى

قطعت عليهم هذا الجو المرح هو خادم الدوقة. دخلت
الحقيقة من الباب ترتدى ثياب العصر وأعلنت أن عربة
الدوقة تنتظرها ففركت الدوقة يديها تتكلف غصص
اليأس وقالت:

- يا للنكد! لابد أن أنصرف لألتقى بزواجى فى النادى،
ومن ثم أصحبه إلى اجتماع سخيف فى بيت واليس
ليرأس الاجتماع، ولو تأخرت عنه لغضب غضباً شديداً،
وأنا الآن فى حالة لا أحتمل معها الشجار. فيجب أن

أنصرف يا عزيزتى أجاثا. الوداع يا لورد هنرى. إنك لرجل
ساحر ومفسد للأخلاق، ولست أدرى كيف أستقبل آراءك
هذه. لا بد أن تأتى للعشاء معنا فى أقرب فرصة، أيناسبك
يوم الثلاثاء؟ ما رأيك فى يوم الثلاثاء؟
فألحنى اللورد هنرى بأدب جم وقال:
- إنى لأبطل أى موعد فى سبيل إرضائك يا سيدتى
الوقة.

فقالت:

- هذا كرم منك، ولكنه خطأ عظيم، مهما يكن من
شئ فنحن فى انتظارك.
وخرجت الدوقة من الغرفة تتبعها الليدى أجاثا وسائر
السيدات، ولما استعاد اللورد هنرى مكانه وانتقل مستر
إرسكين إلى جواراه، وأمسك بذراعه قائلاً:
- إن كلامك يملأ المجلدات يا لورد هنرى، فلماذا لا
تضع كتاباً.
فأجاب اللورد هنرى قائلاً:

- إن شغفى بالقراءة يجعلنى أزهد فى الكتابة يا مستر
إرسكين. لا شك أنى أحب أن أضع قصة يوماً ما، قصة
تشبه البساط العجمى فى جمالها وغرابة تصميمها. ولكن
الجمهور فى إنجلترا لا يهتم إلا بالصحف وبالكتب
المدرسية وبدوائر المعارف. إن الإنجليز أفسد أهل الأرض
ذوقاً من الناحية الأدبية.....

قال مستر إرسكين:

- أعتقد أن هذا صحيح لسوء الحظ، ولقد كانت لى

أطماع أدبية منذ زمن طويل ولكنى طلقته. والآن يا

- صديقى الشاب، هل لى أن أسألك إذا كنت حقاً
تعتقد فى كل ما قلته لنا أثناء الغداء؟

فابتسم اللورد هنرى وأجاب:

- لقد نسيت ما قلته تماماً. أكان كلامى معيباً حقاً؟
- نعم، كان معيباً إلى حد كبير، وأنا أعدك رجلاً خطراً
على المجتمع، ولو أصاب الدوقة مكروه لحملناك جميعاً تبعه
ذلك. ولكنى مع ذلك أتوق إلى استطلاع آرائك فى الحياة،
فالجيل الذى أنتمى إليه جيل ممل. وإنه ليسرنى أن تزورنى
فى تريدلى يوم تزهد فى لندن. وفى تريدلى تستطيع أن
تشرح لى فلسفة اللذة التى تبشر بها بين كئوس النبيذ
"البورغونى" النادر.

- ذلك يسعدنى حقاً يا مستر إرسكين، ففي زيارة
تريدلى شرف عظيم لى، وسوف أجد فيها مضيفاً كريماً
ومكتبة رائعة.

فألحنى مستر إرسكين بأدب وأجاب:

- إن مكتبتى لن تكمل إلا بك. والآن يجب أن أستأذن
عمتك الفاضلة فى الانصراف، لأن على أن أكون فى نادى
الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء.

- أتنامون جميعاً فى النادى يا مستر إرسكين؟
- نعم. نحن أربعون عضواً ننام فى أربعين مقعداً
وثيراً، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية.
ضحك اللورد هنرى ونهض قائلاً:

- أما أنا فسأخرج للنزهة فى هايد بارك.

وفيما هو خارج ضغط دوريان جرای علی ذراعہ، وقال
بصوت خافت:

- أسمح لی أن أرافقك.

فقال اللورد هنرى:

- ألم تعد باذیل هولوورد بزیارته؟

- هذا صحیح، ولكنی أفضل صحبتك، وشعوری یملى

علی أن أرافقك فاسمح لی بذلك، وعدنی بأن تتحدث إلى
طول الوقت فما من أحد یجید الحديث كما تجیده أنت.

قال اللورد هنرى مبتسماً:

- لقد تحدثت الیوم بما فیہ الكفاية، وكل ما أبغیه هو

أن أستعرض موكب الحیاة، فتعال لتستعرضه معی إذا
أحببت.

الفصل الرابع



مر شهر من الزمان. وكان دوريان جراي جالساً في
استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبة اللورد هنرى فى
بيته بحى مايفير. وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على
طريققتها الخاصة، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية
طلاؤها أخضر، ويزدان سقفها السمنى وكورنيشها السمنى
بنقوش من المصيص البارز، ويغطى أرضها بساط من
الصوف الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات
الزوائد الحريرية الطويلة. وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف
تمثال صغير لكلوديون وإلى جانب التمثال كانت هناك
نسخة من كتاب "القصص المائة" جلد كلفيس إيف فى
الأيام الغابرة للملكة مرجريت دى فالوا، وعلى الكتاب
وشى من القصاصات الذهبية التى اتخذتها الملكة شارة لها.

وقد رصت على رف المدفأة بعض الأواني الصينية الكبيرة الزرقاء. ونفذ الضوء فى ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفئ. ولم يكن اللورد هنرى قد عاد بعد إلى بيته، فقد كان من مبدئه أننا نضيع العمر بالمواظبة، ولذا بدا على دوريان جراى شئ من العبوس، وهو يقلب صفحات نسخة من قصة "مانون ليسكو" محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة. وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر، ظلت تلق دقا منتظماً أثار أعصابه، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف، ولكنه سمع أخيراً أقدام فى الخارج، وانفتح الباب فقال الفتى فى صوت خافت:

- لقد تأخرت كثيراً يا هارى!
- ولكن صوتاً حاداً أجابه مصححاً:
- إن هارى لم يصل لم يصل بعد يا مستر جراى.
- فالتفت دوريان جراى إلى الباب بسرعة، وحين أدرك خطئه بادر بالوقوف وقال:
- أطلب عفوك يا سيدتى، فقد حسبت.....
- نعم، حسبت أن زوجى هو الداخل. اسمح لى أن أعرفك بنفسى فأنا زوجة هارى، وقد عرفتكم من صورتكم لأننى رأيت صوراً منك كثيرة، وأظن أن زوجى قد جمع سبع عشرة صورة من صوركم.
- سبع عشرة صورة يا ليدى هنرى؟
- هل أخطأت فى العدد؟ لعله جمع ثمان عشرة. كذلك رأيته معه ليلة أمس فى دار الأوبرا.

وضحكت السيدة ضحكة عصبية، ورنّت إليه بعينين ناعستين. وكانت الليدى هنرى امرأة غريبة حقاً، فثيابها تدل على اضطراب صانعها واضطراب لابسها معاً. وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقي على أوهامها عن الحب. ثم إنها كانت تتعمد الإهمال فى ملابسها لتلفت الأنظار إلى جمالها فتلفت النظر إلى إهمالها، وكان اسمها فيكتوريا. وكانت تترد على الكنيسة بكثرة تدل على الجنون.

- إذا فقد رأيتنى فى دار الأوبرا؟ أظن أن ذلك كان ليلة "لوهنجرين" يا ليدى هنرى.

- نعم، كان ذلك ليلة "لوهنجرين"، وأنا أحب فلانجر أكثر من أى موسيقى آخر، لأن ألحانه عالية الضجيج، وهذا يدع لى فرصة للكلام أثناءها دون أن يسمع أحد شيئاً مما أقول، وهذه مزية كبرى. إلا توافقنى على ذلك يا مستر جراى؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثانية، على حين أخذت أصابعها تعبت بنصل من النصال التى يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة، فابتسم دوريان، وهز رأسه قائلاً:

- يؤسفني أن أختلف معك فى هذا الموضوع يا ليدى هنرى. فأنا لا أتكلم بتاتاً حين أسمع الموسيقى الجميلة. أما إذا كانت الموسيقى رخيصة فمن الواجب إسكاتها بالكلام.

- ولكن هذا رأى من آراء هارى يا مستر جراى، أليس

كذلك؟ إن آراء هارى تصلنى عن طريق أصدقائه، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئاً. ولا تظن يا مستر جراى أنى أكره الموسيقى الجميلة، فأنا أقدرها، بل أعبدها، ولكنها تخيفنى. كذلك أقدر الموسيقين بل أعبدهم، ولكم شغفت بعازفى البيانو حتى إن هارى كان ينبهنى إلى أنى أعشقهم أزواجاً فى بعض الأحيان ولست أعرف ما يحملنى على حبهم، ولكن لعل منشأ حبى لهم أنهم أجانب، فعازفوا البيانو جميعهم من الأجانب، أليس كذلك؟ حتى الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجانب، أليس كذلك؟ وأعتقد أن هذه مهارة منهم، كما أنها تحية للفن الذى يخدمونه، فهى تخرج به عن دائرة إنجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية. أنت لم تحضر أية حفلة من حفلاتى يا مستر جراى، ولا بد أن تشرفنى مرة بزيارتك. وإذا حضرت حفلة من حفلاتى فلن تجد فى بيتى أزهار الأوركيد، فهى غالية الثمن إلى حد لا يطلق، ولكنك ستجد فيه كثيراً من الأجانب لأن الأجانب يزينون البيت، وأنا أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم. ها قد جاء هارى! اسمع يا هارى. لقد جئت لأستفسر عن شئ، ولكن نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه، وقد وجدت مستر جراى هنا، وتحدثنا عن الموسيقى حديثاً شهياً، وأعتقد أن آراءنا متشابهة تماماً. كلا. إن آراءنا ليست متشابهة تماماً بل مختلفة تماماً. ولكنى سررت بلقيه على أية حال فقد كان مثال اللطف معى.

- أنا سعيد بذلك يا حبيبتى، نعم، سعيد. ولا تؤاخذنى يا دوريان إذ كنت قد تأخرت، فقد قصدت شارع واردور

لأشترى قطعة من الدنتلا الأثرية، وضاعت منى ساعات طويلة فى المساومة. إن الناس فى هذه الأيام لا يعرفون قيمة شئ، ويعرفون ثمن كل شئ.

ثم حل صمت ثقيل فقطعته اللىدى هنرى بضحكتها الصبيانية الفجائية وقالت:

- لا بد أن أنصرف الآن، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها فى نزهتها. إلى اللقاء يا مستر جراى، وأنت يا هارى، إلى اللقاء. وأعتقد أنك ستتناول العشاء خارج

- المنزل، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك فى بيت اللىدى ثورنبرى.

قال اللورد هنرى:

- أرجح ذلك يا حبيبتي.

وخرجت اللىدى هنرى على عجل، وتركت وراءها عطراً خفيفاً فى جو الغرفة، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلله المطر. وأغلق اللورد هنرى الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى الأرائك، وقال وهو ينفخ الدخان فى الهواء:

- أنصحك يا دوريان إلا تتزوج من شقراء.

- لماذا؟

- إن النساء الشقراوات عاطفيات.

- ولكنى أحب النساء العاطفيات.

- إذا فلا تتزوج أبداً يا دوريان، فالرجال يتزوجون حين

يقتلهم الملل، والنساء يتزوجن من باب الفضول، ولكنهم جميعاً يندمون على ذلك.

- لا أعتقد أنى سأتزوج يا هنرى، فأنا أحب، وحبى عاطف مدمر، ومن كان حبه عاطفاً مدمراً لا يحق له أن يتزوج. هذه حكمة أخذتها عنك يا هنرى، وها أنا ذا أطبقها تطبيقاً عملياً كما أفعل بكل ما تقول.

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنرى قائلاً:

- ومن تكون هذه المحبوبة؟

فأجاب دوريان جراً فى خجل:

- إنها مثلة.

فهز اللورد هنرى كتفيه استخفافاً وقال:

- هذه بداية مبتذلة، وقد كنت أحسب أنك ستأتى

بجديد.

- لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا

هارى.

- وما اسمها؟

- سيبيل فين.

- ما سمعت هذا الاسم قط.

- إنها الآن نكرة من نكرات المسرح، ولكنها ستصبح

علماً من أعلامه يوماً ما، فهى فتاة نابغة.

- أنت تبالغ يا صديقى، فالنبوغ ليس من صفات

-

- النساء، إنما النساء تحف تزين الحياة، فعقولهن لا

تتأمل على فكرة واحدة، ولكن حديثهن ساحر. المرأة تمثل

انتصار المادة على العقل، والرجل يمثل انتصار العقل على

الضمير.

- ما أقسى أحكامك يا دوريان؟

- أنا أقدر ما أقول يا صديقى، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء، وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقع، فتحليلى دلنى على أن هناك نوعين لا ثالث لهما من النساء: المرأة الطبيعية والمرأة المزينة ما المرأة الطبيعية فلها فوائد جمّة، ويكفى أن يراك هناك الناس تتعشى مع امرأة طبيعية حتى يصفوك بالوقار. أما المرأة المزينة فسحرها عظيم ولكن لها عيباً واحداً، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغير من سنّها. لقد كانت جداتنا يستعملن المساحيق ليجدن فن الحديث، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء، وقد أنتهى ذلك العصر. أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من بنتها بعشر سنوات على الأقل. أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا، ولن نجد الآن فى لندن كلها أكثر من خمس سيدات حديثهن يشوق، منهن اثنتان لا يسمح لهما بدخول الأوساط الشريفة. ولكن حدثنى عن فتاتك النابغة هذه. متى عرفتها؟

- إن آراءك تخيفنى يا هارى.
- دعنا من هذا الآن. متى عرفتها؟
- منذ ثلاثة أسابيع تقريباً.
- وأين عرفتها؟
- سأروى لك حكايتها كاملة يا هارى، ولكنى أطلب منك أن تكون منصفاً، وتذكر أنك السبب فى كل ما حدث لأن حياتى تبدلت منذ عرفتك. لقد أثرت فى رغبة جامحة لمعرفة كل شئ، وظللت أياماً بعد لقائنا الأول يعذبنى فضول شديد، فما من مرة جلست فى هايدبارك أو مشيت

متسكعاً فى بيكاديلى إلا وكنت أتفحص الغادين
والرائحين، وأفكر فى حياتهم الخاصة كيف تكون. وكنت
أستريح إلى بعضهم، وكان بعضهم يملؤنى جزعاً، وهكذا
انتشر فى جو حياتى سم لذيذ، وتفتحت حواسى لكل ما
يرضيها. وحدث ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة
أنشد المغامرة، وأحسست

- أن لندن، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها
الحاشدة وخطاياها الجميلة وخطاتها الأثقياء كما وصفتها
أنت مرة يا هارى، أحسست أن هذه المدينة قد خبأت لى فى
مجاهلها شيئاً. وجاء ببالى ألف خاطر وخاطر، وأحسست
بالخطر يدنو فزاد من إحساسى بالخطر إحساسى بالحياة،
وتذكرت قولك لى يوم تعشنا معاً أول مرة إن سر الحياة
الحقيقى هو البحث عن الجمال. ولم أكن أطلب شيئاً بعينه
بل مضيت أتجول شرقاً، ثم ضللت طريقى فى تيه معقد من
الشوارع المظلمة والميادين السوداء الجرداء. فلما بلغت
الساعة الثامنة والنصف وجدتنى أمام مسرح مهمل صغير
مصباحه عالية وإعلاناته خالية من الذوق، ورأيت ببابه
يهودياً يلبس صداراً لم أر مثله فى حياتى ويدخن سيجاراً
قدراً، وعلى صدره تدلت سلسلة كستها المواد الدهنية،
ولمعت ماسة ضخمة وسط قميصه. وحين وقع بصره على
رفع قبعته فى تذلل عظيم، وهتف فى قائلاً: "أترغب فى
مقصورة يا سيدى اللورد؟" فجذبنى منظره لأنه بدا
كالوحش الضارى، أعطيته جنيهاً كاملاً، ثم وجدت طريقى
إلى المقصورة الأمامية. ولعلك تسخر من

مسلكى العجيب هذا، ولكنى لا أعلم ماذا حملنى على الدخول. ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقى لفاتنى أجمل تجربة مرت بى فى حياتى. ها أنت تضحك سخرية منى فما أقسالك يا هارى.

- لست أضحك، أقصد لست أضحك سخرية منك، ولكن لا تقل أجمل تجربة مرت بك بل قل أول تجربة. فسوف تجد دائماً من تحبك، وسوف نطلب الحب لذاته دائماً. فالعواطف الصاخبة حكر لأمثالنا من المتبطلين، وهى المبرر الأوحى لوجود أرستقراطية حامله. فلا تخش شيئاً يا دوريان لأن المستقبل يخبئ لك السعادة التى تنشدها، وما هذه إلا بداية.

فقال دوريان جراً غاضباً:

- أحسبني تافه العاطفة إلى هذا الحد؟
- كلا. بل أحسبك قوى العاطفة إلى حد كبير.
- ماذا تعنى؟
- اسمع يا بنى إنما يؤمن بالتخصص أصحاب العقول التافهة. وما يسمونه بالوفاء أسميه أنا الكسل
-
- الناجم عن العادة، أو أسميه فقراً فى الخيال حسب الحالة. إن الإخلاص فى الحياة العاطفية يشبه انتظام التفكير فى الحياة العقلية، وكلاهما أمانة الفشل. ما هذا الوفاء الذى يتحدث عنه الناس! لا بد أن أحلله يوماً من الأيام. إنه يقوم على غريزة الملكية، وكم من شئ لا نجد بأساً من لفظه لولا خوفنا من أن يلتقطه الآخرون، ولكن امض فى روايتك فأنا لا أحب أن أقاطعك.

- أقول وجدتني جالساً فى مقصورة صغيرة قبيحة المنظر، ووجدت أمامى على المسرح مباشرة ستاراً عليه نقوش مبتذلة، وأجلت بصري فى جنبات الدار من وراء ستار مقصورتى فوجدتها داراً حقيرة تزينها رسوم سخيصة لكوبيد وشاكل ذلك. وكانت الصالة والشرفات ملاءى بالنظارة، ولكن المقاعد الأمامية كانت خالية تماماً. وكنت ترى بائعات البرتقال، وشراب الليمون يجلن بين الحضور، وكنت تسمع الحضور يقشرون الفول فى جلبة لا حد لها.

- ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير!

- أعتقد أنه يشبهه من كل الوجوه، ولكن نفسى ضاقت به، ولم أدر ما يجب على أن أفعله ثم لحت فجأة لوحة كتب عليها اسم الرواية. فماذا تظنها كانت يا هارى؟
- لعلها كانت رواية "الأبله" أو رواية "المغفلة البريئة" فأباؤنا كانوا يحبون هذا النوع من المسرحيات، وأنا فى كل يوم أزداد أقتناعاً بأن ما كان يصلح لأبائنا لم يعد يصلح لنا، سواء أكان ذلك فى الفن أو فى السياسة. والمثل الفرنسى يقول: "الأجداد دائماً مخطئون".

- ولكن الرواية كانت "روميو وجولييت" وهى من الروايات التى تصلح لنا يا هارى. وأعترف لك بأن فكرة تمزيق شكسبير فى ذلك الجحر القذر ضايقتنى كثيراً، بيد أنى قررت أن أشاهد الفصل الأول. وسبقت التمثيل قطع موسيقية عزفتها فرقة مزعجة على رأسها شاب يهودى ظل يدق على بيانو مهشم حتى كدت أنصرف من فرط غيظى. ولكن الستار ارتفع أخيراً، وبدأ التمثيل، وخطر روميو

على المسرح فإذا به كهل

- بدين يشبه برمبل البيرة، له حاجبان مضحكان
وصوت أجش يصلح فعلاً لتمثيل المأسى. ولم يكن
مركوشيو بأحسن حالاً من روميو، فقد كان يقوم بدور
مركوشيو مضحك رخيص كثيراً ما زج بين سطور شكسبير
فكاهات من عنده. كما أنه كان يعطل التمثيل أحياناً ليتبادل
الفكاهات مع الجمهور. نعم، كان روميو ومركوشيو
جديرين بالسخرية، كما كان المنظر ذاته جديراً بالسخرية،
فقد بدا بيت السيد كايوليت بفيرونا كأنه بيت من بيوت
الفلاحين. ولكن جوليت كانت آية عجباً يا هارى! كانت
دون السابعة عشرة، يشبه وجهها الصبوح المستدير الزهرة
المتفتحة، ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة اليونان ذات
صفائر، لا هى بالسوداء، ولا هى بالشقراء. أما عيناها فقد
كانتا ينبوعين يفيضان بالعواطف السخية، بل كانتا
بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى، وأما شفتاها فهما
أوراق الورد. نعم، كانت جوليت آية عجباً. وأنت القائل
إن مشهد الأسى لا يحرك فيك ساكناً، وإن مرآى الجمال
وحده هو الذى يزلزل كيانك ويجمع فى عينيك العبرات.
فلتصدقنى إذا يا هارى حين أقول إنى ما كدت أرى هذه
الفتاة حتى استعبرت عيناى فحجبها عني ضباب المقل.
كذلك كان صوتها آية عجباً، بدأت خفيضاً حنوناً، رخيم
النبرات يكاد كل من يسمعه يخال أنها تتكلم له وحده، ثم
ارتفع قليلاً فحسبته صوت ناي شجى بعيد. فلما جاء
مشهد الحديقة، وما دار فيها من مناجيات الغرام

البرئ ارتعش صوتها من فرط السعادة. فجاءنى كأغاريد
البلابل فى مطلع الصباح. ولكنه علا واضطرب حتى بلغ
طبقة الجنون. وأنت تعلم يا هارى ما للصوت من وقع فى
النفس، فصوتك وصوت سيبيل فىن لا سبيل إلى نسيانهما،
وكلما أغمضت جفنى سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ولكن
شتان بين ما تقولان، ولست أدرى أى الصوتين أتبع! لست
أرى ما يمنعنى عن حبها، وإنى لأحبها من أعماق قلبى، فهى
حيناً تلعب روزاليند، وحيناً تلعب إيموجن، ولقد رأيتها
تموت فى قبر دامس بإيطاليا، وترشف السم من شفتى
حبيبها، ولقد رأيتها تجوس خلال غابة آردين مستخفية فى
زى صبى جميل يلبس رداءً وصدرًا

- وقبعة أنيقة. رأيتها وقد جاءت فى حضرة ملك فاجر
تهديه إكليلا من الأشواك يحز فى جبينه، وباقة من
الأعشاب المرة تنغص عليه مذاق الحياة. كذلك رأيتها فى
ثياب ديدمونه الطاهرة، وقد أطبقت على جيدها البض يد
الغيرة السوداء. نعم، لقد رأيتها فى كل زى وفى كل عصر.
إن النساء التفاهات لا يلهين الخيال لأنهن مشدودات إلى
جيلهن بوثق من حديد. ومهما أضيفت عليهن من السحر
فلن يتبدل فيهن شئ. لأن طبيعتهن خالية من الأسرار، لأن
ابتسامتهن مدروسة ثابتة لا تتجدد، إن حياتهن بركة ضحلة
أسنة، فصباحهن نزهة فى هايد بارك، وعصرهن لغو حول
فناجين الشاي، لأنهن يتبعن أحدث النماذج فى الزى وفى
قواعد السلوك، لأنهن دائما فى انتظارك، فأى لغز فى كل
هذا يجذبنا ويثير فضولنا؟ أما الممثلات فهن من طراز

مختلف يا هارى! لماذا لم تعلمنى أن حب المثلثات هو أقيم ما فى الحياة.

- لم أعلمك ذلك يا دوريان لأنى أحببت منهن عدداً كبيراً.

- أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون.

- وما ضرر الشعر المصبوغ والوجه المدهون؟ إن سحرهما عظيم فى بعض الأحيان.

- ليتنى لم أحدثك فى موضوع سييل فين.

- هذا مستحيل يا دوريان، فلن تستطيع أن تكتم عنى شيئاً بعد الآن.

- هذا صحيح يا هارى، فسلطانك علىّ عظيم، وهو يرغمنى على الإفضاء لك بكل شئ. ولو أنى ارتكبت جريمة لقصدتك واعترفت بها أمامك، لأنك تفهمنى وتقدر عواطفى.

- إن أمثالك من الناس يا دوريان هم النور الذى يجلو ظلام الحياة، وأنتم لا ترتكبون الجرائم، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة. إلى بعلبة الكبريت. والآن إلى أى حد وصلت مع سييل فين؟

فنهض دوريان جراى غاضباً وقال:

- هذا تجرؤ منك يا هارى. إن سييل فين قدس حرام! أجاب اللورد هنرى فى حنان غريب:

- وهل غير الأقداس المحرمة يستحق أن نلمسه؟ ثم

إنى لا أفهم معنى لغضبك، فسييل فين ستكون ملكاً لك
عجلاً أو أجلاً، وإن العاشق ليبدأ غرامه بخداع نفسه،
ويختمه بخداع الآخرين، وهذا هو ما يسمونه الحب. وأعتقد
أنك على الأقل تعرفت بها.

- طبعاً تعرفت بها، فبعد انتهاء التمثيل فى الليلة
الأولى جاءنى اليهودى، وعرض أن يستصحبنى إلى غرف
الممثلين ليعرفنى بجولييت، فثارت ثائرتى وزجرته قائلاً إن
جولييت قد ماتت منذ قرون، وأن جثتها مدفونة فى قبر من
المرمر بفيرونا. ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه
أمارات الحيرة، ولعله حسب أنى كنت سكراناً.
- هذا طبيعى.

- قال: "أتكتب فى الصحف؟" قلت: "بل لا أكتب
فيها ولا أقرأها" فبدا عليه غم شديد، وأسر إلى قائلاً إن
جميع نقاد المسرح يتأمرون عليه، وأنهم بلا استثناء قوم
مرتشون.

- أعتقد أن رأيه فيهم صحيحاً. ولكن مظهرهم الرث
يدل على أن ثمنهم ليس كبيراً.
فضحك دوريان جرای وقال:

- ولكن فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه. مهما يكن
من شئ فقد رأيت أنوار المسرح تنطفئ حين بلغنا هذه
المرحلة من الحديث، وكان لابد لى من الانصراف، فألح على
فى أن أدخل سيجاراً كان يعتقد فى جودة نوعه ولكنى
رفضت. وفى هذه الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلما
رأنى انحنى حتى كاد أن يقبل الأرض بين يدى، وأنشأ يؤكد

لى أنى حام من حماة الفنون كبير. وكنت أتأذى من منظر
هذا الرجل، ولم يشفع له عندى إلا تفانيه فى حب
شكسبير. فقد قال لى ذات مرة فى شئ من الزهو إن
إفلاسه أشهر خمس مرات، وفى كل مرة كان شكسبير هو
السبب كأن فى ذلك شرفاً له.

- نعم، إنه شرف مؤكّد يا صديقى، بل شرف عظيم،
فعامة الناس يفلسون طمعاً فى نشر الحياة، ومن جر الشعر
عليه الحراب فهو بطل كريم. ولكن متى كان أول لقاء
بينك وبين الأنسة سبيل فىن؟

- كان ذلك فى الليلة الثالثة، وكانت تلعب دور
روزاليند، فألقيت إليها بعض الأزهار لأظهر إعجابى بها،
واختصتني بنظرة أو خيل إلى أنها اختصتني بنظرة. وأخيراً
لم يسعنى إزاء إصرار اليهودى إلا أن أرافقه إلى غرف
الممثلين. إلا ترى أن رغبتى عن لقائها كانت غريبة حقاً؟

- كلا، لست أرى ذلك؟

- وما السبب؟

- فلننس هذا الآن، ولنؤجله إلى وقت آخر. إنما أحب
أن أسمع بقية حديثك عن هذه الفتاة.

- كانت خجولاً لا حد لخلجلها، رقيقة لا حد لرققتها،
تشبه الأطفال فى براءتها، أما عيناها فقد استجابتا لإطرائى
فى دهشة ساحرة حين ذكرت لها رأى فى موهبتها الفنية،
فعلمت أنها لم تكن تعرف قدر نفسها. وكنا كلانا
مضطربين يرنو أحدهما إلى الآخر فى سذاجة كأنه طفل

غريب، على حين وقف اليهودى العجوز بباب الغرفة يتمدح بصفاتي ويتمدح بصفاتها، ولا ينفك يلقبني بسيد اللورد حتى اضطرني أن أؤكد لسييل فين أنى لست من أهل الألقاب، فقالت فى سداجة. "أنت عندى أشبه بأمر منك بلورد، وسأسميك الأمير الساحر".

- أقسم لك يا دوريان أن الآنسة فين تحسن الجملة.
- إنك تسع فهمها يا هارى، فما أنا فى نظرها إلا بطل من أبطال المسرحيات. أنها تجهل الحياة جهلاً تاماً، فهى تعيش مع أمها، وهى عجوز فانية رأيها أول ليلة تلعب دور الليدى كايبوليت فى "روميو وجوليت" ويبدو لى أنها كانت أحسن حالاً فيما مضى من الأيام.
قال اللورد هنرى وهو يعبث بخواتمه:

- نعم، هذا الطراز من النساء ليس غريباً عنى.
- لقد أراد اليهودي أن يقص على ماضيها، ولكنى أفهمته أن هذا لا يهمنى.
- حسناً فعلت، فمأسى الآخرين فيها دائماً ما يثير فى النفس الامتعاض.

- إن سييل فين هى كل ما يهمنى فى الموضوع، أما نشأتها فلا تعينى. وهى عندى ملك هبط من

- السماء، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها.

- وهذا بالطبع يفسر انقطاعك عن العشاء معى فى هذه الأيام. لقد جال ببالى أنك تمر فى اختبار جديد، ولكنى أتصوره من نوع آخر.

- نحن نتغدى معاً كل يوم يا هاري، فإن فاتنا ذلك جئتكَ فى أعجاز الليل، وقد رافقتك مراراً إلى دار الأوبرا.
- ولكنك تتأخر فى المجئ كثيراً.
- وما حيلتى فى ذلك؟ إنى أذهب كل ليلة لأراها تمثّل، وقد أنصرف بعد فصل واحد، ولكنى لا أتخلف، لأنى أظمأ إلى رؤيتها كل مساء، وكلما فكرت فى الروح الصافية التى تسكن جسدها العالجى الجميل ارتجفت رهبة.
- أتستطيع أن تتعشى معى الليلة يا دوريان؟
- فهز دوريان رأسه وأجاب:
- كلا، فهي الليلة أيموجن، وهي غداً جوليت.
- ومتى ستكون سيبيل فىن؟
- هذا لا يحدث مطلقاً.
- إذا فاقبل تهانئى.
- ما أقساك يا هاري! إنها ليست شخصاً واحداً بل هي جميع بطلات الخيال تركزن فى شخص واحد. إنك تسخر منى، ولكنى أؤكد لك أنها فتاة موهوبة، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلى حبي. وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لا تنهني عن حبها بل علمني رقية أستطيع أن أسر بها فؤاد سيبيل فىن. أريد أن أثير الغيرة فى قلب روميو. أريد ان أهنأ معها ليشقى شهداء الغرام بهنائنا. أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتهبة رميمهم البارد. اللهم غفرانك! إن حبي لها قد بلغ مبلغ الوثنية.
- وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً، وقد اشتعلت فى خديه نار حامية.

وكان اللورد هنري يتأمله في سرور خفي فقد رأى الصبي
الخبول المنكمش الذي عرفه في مرسوم بازيل
هولوورد يتحول إلى فتى ذي شخصية وإرادة. لقد

نمت روحه كما تنمو الزهرة، وتفتحت أوراقها حمراء
كألسنة اللهب. نعم. لقد أطلت روحه من مخبئها العميق
حيث لا يراها أحد، واندمجت في الجسد الملتهب بالاشواق
فأصلتها أشواق الجسد ناراً.
قال اللورد هنري أخيراً:
- ماذا قررت؟

- تعال معي إلى المسرح أنت وبازيل هولوورد،
لتشاهدا تمثيلها، وأنا واثق من النتيجة تماماً فما من شك
في أنكما ستقنعان بأنها فتاة موهوبة. وبعد ذلك لا يبقى إلا
أن نتشلها من براثن اليهودي فهي مرتبطة معه بعقد مدته
ثلاث سنوات بقيت منها سنتان وثمانية شهور، ولا بد أن
أعوضه بالمال عن فسخ العقد. وحين يتم لي ذلك أستأجر
لها مسرحاً في الوست اند وأظهرها للناس بما يتناسب مع
موهبتها، ولسوف يجن بها الناس جنوبي بها.
- هذا محال يا دوريان.

- نعم. سوف يجن الناس بها، فهي تملك الشخصية
الناجحة فضلاً عن استعدادها الفني وتمكنها من أصول
التمثيل. ولقد قلت لي في أكثر من مناسبة إن عصرنا
تسيره الشخصيات لا المبادئ.

- إذا كان الامر كذلك فمتى نذهب؟

- اليوم الثلاثاء، فليكن موعدنا ليلة الغد فهي تمثل جوليت.

- اتفقنا أذاً، وليكن لقاءنا بمطعم بريستول في الساعة الثامنة، وسأتيك ببازيل.

- بل في السادسة والنصف يا هاري، فلا بد أن نكون هناك قبل رفع الستار. نعم، لا بد أن تراها في الفصل الأول حين تقابل روميو.

- ماذا دهاك يا هذا؟ ان رؤية التمثيل في السادسة والنصف عمل لا تستسيغه النفس كأكل اللحم مع الشاي وقراءة القصص الانجليزية.

- فنلتق في الساعة السابعة وإلا فلا، فما من جنتلمان يتعشى قبل الساعة.

- أينما يتصل ببازيل؟

- مسكين بازيل، فأنا أعامله أسوأ معاملة، وقد احتجبت عنه أسبوعاً كاملاً، وهذا جحود مني شديد لأنه أرسل إليّ صورتي بعد أن وضعها داخل إطار جميل صممه بنفسه، وأنا جد سعيد بهذه الصورة برغم أنني أغار منها، فهي تصغرني بشهر كامل. ولعله غضب مني، فمن الأصوب أن تكتب أنت إليه بهذا الموعد، وأنا أكره أن أواجهه وحدي وأضيق بكثير من حديثه لأنه يتوقف على إسداء إليّ نصائحه الأخلاقية.

فابتسم اللورد هنري وقال:

- إن الناس يجودون للغير بما هم في أمس الحاجة إليه، وهذا ما أسميه الكرم الذي زاد عن حله فانقلب إلى ضده.

- ولكن بازيل خير من عرفت من الرجال برغم أنه محدود الأفق بعض الشيء، وقد أدركت ذلك فيه منذ أن عرفتك يا هاري.

- إن بازيل يضع كل صفاته الجذابة في عمله، وبذلك لا يتبقى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القوية ومنطقه السليم. وما عرفت فناً قط جذاب الشخصية إلا وكان تافه الفن، أما كبار الفنانين فأشخاصهم تفنى تماماً في عملهم فلا يبقى للعالم من أشخاصهم ما يثير اهتمام أحد.

- والشاعر الفذ، أقصد الشاعر الفذ بمعنى الكلمة، رجل خلت حياته من الشاعرية. أما صغار الشعراء فيسخرّون الدنيا بشخصياتهم العجيبة، وكلما انحطت قوافيهم ارتفعوا في عيون الناس، حتى لتجد أن مجرد نشر ديوان من الشعر الركيك يجعل من صاحبه شخصية تأسر القلوب. فصغار الشعراء يمارسون الشعر الذي عجزوا عن قوله، وكبارهم يقولون الشعر الذي خافوا من ممارسته في الحياة.

قال دوريان جراي وهو يصب شيئاً من العطر على منديله من زجاجة كبيرة على المائدة غطاؤها ذهب خالص:

- أصبح ما تقوله يا هاري؟ لا بد أنه صحيح لأن كل ما تقوله صحيح. والآن يجب أن أنصرف. فأيموجين في انتظاري. وداعاً، ولا تنس موعد الغد.

ولما أنصرف دوريان جراي أغمض اللورد هنري جفنيه الثقيلين واسترسل في التفكير، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره. وجد اللورد هنري أن اهتمامه بدوريان

جراي أكيد لا شك فيه، ومع ذلك فإن اهتمام دوريان جراي بشخص آخر لم يثر في نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل في نفس بازيل هولوردر، بل أثار فيها الغبطة والسرور. وكان يجد لذة في دراسته فازدادت بذلك لذته. لقد كان اللورد هنري شديد الإعجاب بمنهج التاريخ الطبيعي، ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها. لم يكفه تشريح الحشرات، فبدأ بتشريح نفسه وانتهى بتشريح الآخرين، وامتلأ إيماناً بأن الحياة الانسانية هي كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض، وإن كل ما عداها ثانوي إذا قيس بها. ولكن دراسة الحياة الانسانية لا ريب تؤثر في أصحابها، ولقد تعصف به عصفاً شديداً.

فمن يتأمل النفس الانسانية تنصهر في البوتقة بنار الألم حيناً، وبسعر اللذة حيناً، لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن على وجهه قناعاً من الزجاج جامد، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف المتأججة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة والأوهام السوداء. إن في الحياة سموماً عجيبة لا سبيل إلى معرفة خواصها إلا أن تتسم بها النفس، وإن في الحياة أمراضاً غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا نزلت بهم ثم خرجوا منها سالمين. ولكن ثمرة الاختبار شهية، والحياة حلو مذاقها لمن عرف حقيقتها. وما ألد أن يتأمل الإنسان العاطفة الرقيقة تقسو حتى تصير كالصارم المشحوذ، والعقل الغليظ يرق وتضفى عليه العاطفة جميل الألوان، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان! إن الثمن الذي ندفعه لنظفر بهذه التجربة بحس مهما علا ولوجدنا بالحياة

ذاتها. فالإحساس أثنى ما في الوجود، وفي سبيل الإحساس يهون كل شيء.

كان اللورد هنري يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هي التي جعلت روح دوريان تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة، وتمثل أمامها في خشوع، وحين فكر في ذلك أضاء في عينيه بريق السرور. فكان يحس بأنه خلق هذا الفتى خلقاً جديداً بعد أن كان محض حلية أنيقة تكمل جمال الصالونات، وأنه أنضج قبل الأوان. إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن عن خباياها، أما الأقلون، وهم الأصفياء، فيرون وظيفة الفن بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل

بالعقل وبالعاطفة. ولكن الحياة تجود من آن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدي وظيفة الفن، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هي في ذاتها أثر فني صاغته يد (الحياة) وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسامين أو المثالين. فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة.

نعم، إن الفتى قد نضج قبل الأوان، وما هو ذا يجني الثمار وهو بعد في باكورة الربيع، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجري دمه الدفق. ولكن دوريان جراي قد بدأ يعي ما يحدث له. ولذا كان تطوره متعة كبرى لمن يتابعه عن كثب. فهو جميل الحيا، جميل الروح، وهو فتنة للناس، فسيان أن تطيب نهايته أو تسوء. فما كان أشبهه بشخص سحري في مسرحية سحرية نرى أبطالها ينعمون السعادة فلا نهتز

لأفراحهم، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء.

عجباً للروح وعجباً للبدن! عجباً للبدن وعجباً للروح! إن الروح لا تخلو من المادية، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحي. ولقد تسمو الحواس وتصفو، ولقد يظلم العقل ويكفر! وهل منا من يعلم أين تنتهي نوازع الجسد، وأين تبتدئ نوازع الروح؟ إن التعاريف التي يتفضل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس متينة، ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نتصر لفريق منهم على فريق. والسؤال الذي سألته الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب. تُرى الروح شبح يسكن الجسد، بيت الخطيئة؟ تُرى الجسد كائن في الروح كما قال جيوردانو برونو؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حير ألبابنا كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا.

ثم بدأ يتساءل عما إذا كان في وسع الإنسانية حقاً أن تجعل من علم النفس علماً بالمعنى الموضوعي الكامل، علماً يفسر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحي. فنحن إلى هذه اللحظة نخطئ في فهم أنفسنا ولا نصيب في فهم الآخرين إلا قليلاً، وليس للاختبار أي قيمة أخلاقية بيننا، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء.

أما علماء الأخلاق فقد دأبوا على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضي، وتقويم لا بد منه

في تكوين الشخصية، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه في الحياة. ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة، فهو عمل سلبي يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذي يتكون فينا سواء بسواء، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف البتة عن ماضينا، وأن الخطيئة التي ارتكبتها مرة على مضض نرتكبها مراراً في شوق وإقبال.

وكان اللورد هنري يؤمن بأن المنهج التجريبي هو المنهج الوحيد الذي نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلاً علمياً. ولا شك أن دوريان جراي كان موضوعاً صالحاً للتجربة، فهو رهن إشارته في كل وقت، وهو يتوقع من هذه التجربة التي يجريها عليه أغنى الثمار. فحب دوريان جراي لسيبيل فين كان ظاهرة نفسية لها خطرهما، ولا جدال في أن دافع الفضول كان عنصراً هاماً في هذا الغرام الغريب، وأن الشوق إلى اختبار الحياة ساقه إليه سوقاً. ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة.

لقد تحولت بفعل الخيال أشواق الجسد التي تعذب يفاعته إلى شيء لا أثر للجسد فيه، فهو إذاً يتوهم هذه الروحانية توهماً، وهذا يجعلها أبلغ خطراً. كذلك تولدت فيه عواطف، عواطف كم استبدت بنا، وكم خدعنا أنفسنا في حقيقتها ومنشئتها. فإن أنفه العوامل التي تحركنا هن العوامل التي نعيها ونستقصيها، وما أكثر ما يحدث أننا نجري التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجريها على الآخرين.

وفيما كان اللورد هنري ساجحاً في تأملاته هذه، طرق

خادمه الباب، ثم دخل ليذكره بأن وقت العشاء قد أزف،
وإن عليه أن يستبدل ثيابه استعدادا لحياة المساء. فنهض
وجال بصره في الشارع، فوجد أن الشفق قد قد ضرج
النوافذ العليا في المنازل المقابلة بذهب أحمر، فتوهج زجلجها
كأنه ألواح من معدن مصهور. وبدت السماء حمراء كالوردة
الذابلة، فتذكر الحياة الحمراء التي يحياها صديقه، وعجب
للنهاية كيف تكون.

وحين عاد إلى بيته بعد منتصف الليل وجد برقية

تنتظره على مائدة القاعة ففتحتها وقرأها، فإذا بها من
دوريان جراي، وإذا بها تنبئه بأن دوريان جراي قد عقد
خطبته على سيبل فين.

الفصل الخامس



دفنت سيبييل فين وجهها فى حجر أمها العجوز الفانية،
وكانت أمها العجوز الفانية تجلس فى مقعد كبير لم يكن
بالغرفة مقعد سواه، ظهرها لشعاع النور الذي تسلل
كالمتطفل فى تلك الغرفة الموحشة، وهمست الفتاة قائلة:
- ما أسعدنى يا أماه ! إنى سعيدة، وينبغى أن تقاسمينى
سعادتى. فأفاقت مسز فين، ومسحت بيدها البيضاء على
رأس ابنتها وقالت:

- أنا لا أذوق السعادة يا سيبييل إلا حين أراك تمثيلين،
فلا تفكرى فى شئ خارج عملك، لأن مستر إيزاك رجل من
أهل المروعة وقد أقرضنا مالاً كثيراً.
فتجهم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة:

- ولكن ما قيمة المال يا أماه؟ إن الحب أهم من المال.
- لا تنسى أن مستر إيزاك أقرضنا خمسين جنيهًا لنسد
بها ديوننا، ولنشتري الكساء اللازم لأخيك جيمس، وهذا
ليس بالمبلغ الهين. إن مستر إيزاك شهيم كريم.
فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت:
- لست أرى فيه صفات الجنتلمان، وهو يحدثنى
بأسلوب بغيض.

- وماذا يكون حالنا بدونه؟
فهزت سيبيل فين رأسها وقالت ضاحكة:
- لم تعد بنا حله إلية يا أمه فالأمير الساحر سيدبر
لنا أمرنا بعد اليوم.
ثم سككت وتورد خذاها واضطربت أنفاسها وارتعشت
شفتاها وانفرجتا، لقد هبت عليها ريح الجنوب الساخنة
فألهبتها وعبثت بطيات ثوبها الجميل. قالت فى بساطة:
- أنا أهواه!

فأجابتها أمها فى إصرار البغاء:
- يا لك من طفلة حمقاء! يا لك من طفلة حمقاء!
وتحركت أصابعها المعوجة النحلة، وتحركت معها
خواتمها ذات الفصوص الزائفة. وكانت إشارتها مضحكة
لغرابتها فضحكت الفتاة ثانية، وكان صوتها العذب يشبه
صوت عصفور حبيس. وضحكت عيناها كذلك وعبرتَا عن
سعادتها ببريق، ثم غضت الفتاة طرفها كأنها تريد أن تختفى
عن أمها سرا. ثم فتحت عينيها فإذا هما مكسوتان بندى
خفيف هو ندى حلم عبر.

وتكلمت أمها العجوز بشفتين باليتين من مكانها فى
المقعد البالى فجاء صوتها كصوت ربة الحكمة، وذهبت
تنصح بالآ تجازف بشئ وتعدد لها الأقوال الماثورة التى تحض
على طلب السلامة من كل ما نتعلمه فى كتاب الجبن
ويقره المجتمع باسم التفكير السليم، فلم تلق الفتاة بالآ
لشئ مما سمعت، فقد كانت فى شغل بغرامها القوى،
وانطلقت روحها فى كل مكان تبحث عن الأمير الساحر

لتعود به وتسكنه أبراج خيالها، وقد عادت به، وقد سكن
أبراج خيالها، وقد أحرقت قبلاته شفيتها، وقد أدفأت أنفاسه
جفניה.

ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيرت نهجها فى
التفكير، وشرعت تتحدث عن وجوب التعرف على حقيقة
هذا الفتى، فإن كان من أهل اليسار وجب تدبير الزواج.
واستمعت سبيل طويلا إلى حديث المادية

السافرة، ورأت المثل العليا تمزق فى غير رحمة. ولكنها
برغم ذلك ابتسمت وهى ترقب شفتى أمها الباليتين
تتلوان عليها هذا الحديث.

وكان صمتها مزدهما بالخواطر فأحست فجأة إلى الكلام،
ولما أن ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت:

- أمه ! لِمَ يحبني كل هذا الحب يا أمه؟ أما أنا فأعلم
لِمَ أحبه، هو إيروس رب الغرام تجسد لى. فماذا يحمل فتى
مثله على أن يحب فتاة مثلى؟ كلا يا أمه أنا لا أستحق أن
أكون موضع حبه، ومع ذلك فأنا لا أحس بأنى مخلوق تافه
برغم رفعة مكانته فى المجتمع وضعة مكانتى. وإنى لفخور
بنفسى، جد فخورة. حدثينى يا أمه، هل أحببت أبى كما
أحب أنا الأمير الساحر؟

فشحب وجه العجوز الذى لطخته المساحيق، ونزل بها
الأم فجأة وارتجفت شفاتها، فبادرت سبيل إليها، وطوقت
جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة:

- اصفحى عنى يا أمه، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبى،

ولكنك تتعذبين من فرط إعزازك لذكراه، لا تبتئسى فأنا
اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة فليت
سعادتي تدوم!

- أنت يا بنيتى ما زلت صغيرة، ولا تفهمين معنى
الحب. ثم إنك لا تعرفين عن هذا الفتى كثيراً أو قليلاً، بل
أنت لاتعرفين ما أسمه ومن يكون، فالمسألة من ألفها إلى
يائها مخزنة، وقد كان جديراً بك أن تظهرى بعض العطف
لى، فأخوك جيمس راحل إلى أسترايا، ونفسى مثقلة بالهموم.
ومع كل، فإذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما
ترعمين...

- أناشذك ألا تحطى سعادتي يا أمه.

فنظرت إليها مسز فين وعانقتها عناقاً مسرحياً، وهى
عادة لا زمتهها فى حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين.
وفيما كانا على هذا النحو انفتح الباب ودخل منه فتى
ممثلئ البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويداه على شئ
من الضخامة، وفى حركاته غلظة واضحة ولم يكن هذا
الفتى قد نال من التهذيب ما نالته أخته سيبيل، حتى أن
المرء لا يتصور أن بينهما صلة

دم. وتفحصته مسز فين بنظراتها فازداد وجهها إشراقاً
فقد تخيلت أنه يمثل جمهور المشاهدين، وارتاح فؤادها إلى
المشهد. قال الفتى فى مزيج من العطف والتذمر:
- هلا ادخرت بعض قبلاتك لى يا سيبيل؟
فأجابت الفتاة:

- ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا جيم. ما أشبهك بدب عجوز !

ثم أسرع إلىه وعانقته. فنظر جيمس فين في وجه أخته في حنان وقال:

- هيا بنا للنزهة معاً يا سيبيل، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة القبيحة لندن، ولست براغب في العودة إليها بعد رحيلي.

وتنهدت مسز فين وهي تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل، وبدأت ترقع الثوب. لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد لیتتم ماله من طابع مسرحي.

- لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدي.

- هذه هي الحقيقة وأنا أعنى ما أقول.

- هذا الكلام يوجعني يا ولدي، وأعتقد أنك سوف تعود من أستراليا بعد أن تجمع مالا كثيراً، فالحياة في المستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية أو شيء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد. ولذا ستعود إلى لندن بعد أن تجمع المال الكثير، وتجد لنفسك فيها مكاناً.
قال الفتى:

- وما قيمة الحياة الاجتماعية؟ أنا لا أحب أن أعرف عن هذه الحياة شيئاً، وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكم عن المسرح، فإنني أبغضه بغضاً شديداً.
فضحكت سيبيل وقالت:

- ويحنا منك يا جيم ! ما أقساك علينا ! ولكن أتحب حقاً أن نخرج معاً للنزهة؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور

على قلبى. لقد كنت أحسبك تنوى توديع بعض أصدقائك
كتوم هاردى الذى أهداك تلك البيبة القبيحة وندلانجتون
الذى يسخر منك كلما رأك تدخنها. وإنى أشكر لك
قضاءك آخر ساعاتك معى، فأين تحب أن نذهب؟ هيا بنا إلى
هايد بارك.

- كلا يا سيبييل، فأنا زرى المنظر ولا يتنزه فى هايد بارك
إلا الوجهاء.

قالت سيبييل وهى تمسح سترته:

- دعك من هذا الكلام الفارغ يا جيم.

فتردد لحظة ثم قال فى النهاية:

- هيا بنا إذاً، ولكن عجلى بارتداء ملابسك.

فخرجت من الغرفة وهى ترقص وصعدت إلى الطابق
العلوى وهى تغنى فملاً صوتها أرجاء البيت، وسمع جيم
قدميها الصغيرتين تضربان سقف الغرفة. وطفق يمشى
جيئةً وذهاباً، ثم التفت إلى أمه الجالسة فى المقعد الكبير لا
تتحرك وسألها قائلاً:

- هل أعددت أمتعتى يا أمه؟

كانت مسز فين تصلح من الثوب فلم تتوقف عن
العمل، وأجابته بأنها قد أعدت كل شئ. وكانت الأم فى
الشهور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها وحيدة مع
ولدها الحازم الخشن الطباع. وكلما تلاقى عيونهما
اضطربت نفسها وجلاً لأنها كانت تشك أحياناً فى أنه
يعرف شيئاً عن سرها. وكان جيمس فين كثير الصمت فزاد
ذلك الموقف حرجاً، وبدأت تتذمر من صمته كعادة النساء

اللاتى يجدن فى الهجوم خير وسيلة للدفاع، ويجدن فى الاستسلام أضمن وسيلة للانتصار.

قالت الأم:

- أرجو أن تجد السعادة التى تنشدها فى حياتك الجديدة هذه، حياة الملاحاة والأسفار، وتذكر دائماً أنك اخترت لنفسك هذا المصير، فقد كان فى إمكانك أن تلتحق بمكتب محام، والمحامون طبقة لها مكانة فى المجتمع عالية، ومن كان منهم يعمل فى الريف يختلط بأرقى الأسر. فأجاب الفتى قائلاً:

- ولكنى أمقت المكاتب وأمقت الكتبة، ولقد أصبت فيما قلت من أنتى اخترت هذا المصير بنفسى. وكل ما أرجوه منك أن تسهرى على سبيل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأن تدفعى عنها الشرور. نعم يا أمه، اسهرى على سبيل وادفعى عنها الشرور.

- هذا كلام عجيب يا ولدى، فأنا ساهرة على سبيل فعلاً، ولا محل لمخاوفك.

- بلغنى أن سيداً يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها. ألا ترين هذا ضرراً؟

- هذه أشياء لا تفهمها يا جيمس، فقد جرت العادة فى مهنة التمثيل أن نجد من الجمهور كل رعاية، ونحن نسر بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح. ولقد كنت فى صلبى أقبل باقات الزهر من المعجبين، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرّون التمثيل حق قدره. أما سبيل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة فى صلتها بهذا الشاب أم غير

جادة. ولكنى لا أرتاب فى أن هذا الشاب جنتلمان لا غبار على سلوكه، فهو شديد الأدب معى، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار، والأزهار التى يرسلها إلى أختك جميلة حقاً. قال الفتى فى خشونة:

- ولكنك تجهلين اسمه.

فأجابت الأم فى هدوء:

- هذا صحيح، فهو لم يبح باسمه الحقيقى لها، وأنا أرى أن هذا يضيف إلى جمال الموقف، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية.

فغمض جيمس فى شفته وصاح بأمه قائلاً:

- اسهرى على سيبيل يا أمه، اسهرى على سيبيل.

- أنت تحزننى كثيراً بهذا الكلام يا ولدى، فما انقطعت قط عن العناية بسيبيل، ولكنى لا أرى ما يمنع أن ترتبط سيبيل بهذا السيد برباط الزواج إذا كان كان من أهل اليسار. وأغلب ظنى أن الزواج فرصة ذهبية لسيبيل. وأرى أن زواجهما سيكون غاية فى الانسجام فجمال هذا الفتى نادراً حقاً، يذهل كل من رآه.

أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت، وينقر زجاج النافذة بأصابعه الغليظة. فلما التفت ليقول لأمه شيئاً انفتح الباب ودخلت منه سيبيل قالت:

- مالى أراكما واجمين؟ ماذا حدث؟

فأجاب الفتى قائلاً:

- لم يحدث شئ إطلاقاً، وسؤالك لا معنى له. فمن الطبيعى أن يعتمد الانسان إلى الجد من وقت إلى آخر. إلى

اللقاء يا أمه، وسأعود للعشاء فى الساعة الخامسة. لا تهتمى بأممتى فكل ملابسى مرتبة ما عدا القمصان. انحت الام فى وقار أنهكتة الشيخوخة وقالت:
- إلى اللقاء يا ولدى.

ولكن لهجته أحنقتها، فما كان له أن يحدث أخته بهذا الجفاف، كما أن نظراته أخافتها. واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا عليه قبلة أرسلت فيه الدفء فجالت الأم بنظرها فى سقف الغرفة كأنها تبحث عن جمهور من المشاهدين وقالت فى لهجة مسرحية مضطربة:

- بنتاه يا بنتاه !
وكان الفتى ييغض الأسلوب المتكلف الذى تصنعه أمه فى الحديث فنقد صبره وقال يستعجل أخته:
- هيا بنا يا سيبييل.

وخرجوا إلى الشارع فوجدا النسيم يداعب ضوء الشمس، وسارا فى طريق بوستون الموحش، وكان المارة يعجبون لمراى هذا الفتى العابس الغليظ البنيان الرث الثياب الذى يرافق عادة رشيقة مهذبة رقيقة. وبدا جيمس فى لعينون المارة كبستانى جلف فى يده باقة من أجمل الورود وكان وجه جيم يتجههم بين حين وآخر لفضول المارة، فقد كان يكره أن يحملق الناس فيه كرهاً، كرهاً كالكره الذى يملك أوساط الناس لأنظار المتطفلين، كرهاً كالكره الذى يملك العباقرة فى نهاية حياتهم لأنظار المعجبين. على أن سيبييل لم تحس بالأثر الذى كانت تحدثه فى نفوس

العابرين لأن قلبها كان متيماً عاشقاً. وكان الحب الذى يملأ قلبها يشيع فى شفيتها بشراً وإشراقاً. لقد كانت تفكر فى أميرها الساحر، ولم تشأ أن تطرد عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث بل طفقت تلغو عن السفينة التى سيبحر عليها جيم، وعن الذهب الذى سيجده جيم فى انتظاره حين يصل إلى أستراليا، وعن سيدة القصور الجميلة التى سينقذها جيم من براثن حراس الأحرار. فجيمس لن يبقى بحاراً طول حياته. كلا لن يبقى جيمس بحاراً طول حياته، لأن همته لن تسمح له بذلك. لن تسمح له همته أن يبقى طول حياته حبساً على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزق قلعها الرياح المسطرة السوداء وتهشم صواربها الأنواء! إن جيمس سوف يقصد ربان السفينة حين تبلغ السفينة ملبورن ويستودعه الله فى أدب كثير، ثم يترك السفينة وربانها، ويقصد فوراً إلى مناجم الذهب. وقبل أن ينتهى الأسبوع سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص، سبيكة لم يعثر إنسان على مثلها من قبل، ويحملها إلى الساحل فى عربة يحرسها ستة من رجال الشرطة، ولسوف يهاجمهم حراس الأحرار ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث مرات بين قتيل وجريح ولائذ بالفرار. أو لعل جيمس لا يقصد إلى مناجم الذهب أصلاً، فهى بقاع مقفرة يسكنها السكارى، ويقتل الناس فيها بعضهم بعضاً فى الحانات، ويستخدمون أفحش الألفاظ. لعله يصبح راعياً أنيساً من رعاة الأغنام، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء

يرى رجلاً من قطاع الطرق يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور، ويطير بها على جواده الأسود فيطارده حتى ينقذ السيدة، ويعود بها إلى أهلها سالمة. ولسوف تحبه سيدة القصور من أعماق قلبها، ولسوف يحبها هو من أعماق قلبه، ولسوف يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقيمان فى دار فخمة هى بهجة الناظرين. ولكن ينبغى عليه أن يكون حسن السلوك، وألا يدع للغضب سلطاناً على نفسه، أو يبدد ما جمعه من المال فى حماقة. ولسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير فتحميه بتجاربها وتقيه بحكمته. كذلك سوف يكتب لها جيمس خطاباً مع كل عربة بريد، وكذلك سوف يذكر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام. ولسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس. ولسوف تصلى هى من أجله كذلك ليحرسه أكثر من مرة. وبعد أن تنقضى سنوات قليلة سيعود إليها هنئ النفس واسع الثراء.

كان الفتى يستمع إلى حديثها فى وجوم دون أن يجيب عليها بشئ، فقد كان حزين النفس لفراق أهله.

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه. لقد كان يحس برغم قلة تجاربه فى الحياة بالخطر الذى يتهدد سيبيل. فهذا الوجيه الشاب الذى ينجى أخته بغرامه لا يمكن أن يكون سليم النية. لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا يمقته. وهو يحقد عليه بالغريزة دون أن يجد مبرراً لذلك، يحقد عليه حقداً طبعياً متأصلاً قوياً. كذلك كان يعرف ما فطرت عليه أمه من الغرور وحب المظاهر، وهذا ما جسّم خوفه على سيبيل

ومستقبلها. إن الأطفال يبدءون حياتهم بإعزاز الوالدين ثم يكبرون فيزنون فضائل الوالدين ورذائلها، ولقد يغفرون لهم ذنوبهم أحياناً.

لقد فكر في أمه كثيراً وكان يقلقه شئ أراد أن يسألها عنه. نعم، شئ أقض مضجعه الليالى الطوال. لقد سمع قوماً ذات ليلة يتهامسون عنهما فى سخرية وهو فى انتظارهما بباب المسرح الخلفى فتلاطمت فى رأسه الأفكار السوداء، وعادت تلك الهمسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعته كأنها الشياطين هوت على وجهه دون رحمة. وعبس من جديد، وعضته الشدائد فعرض شفته السفلى. قالت سيبيل:

- لقد كنت منصرفاً عنى يا جيم. فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلية. تكلم يا فتى وقل شيئاً.

- وماذا تنتظرين منى أن أقول؟

فابتسمت وقالت:

- قل مثلاً إنك ستكون فتى باراً، وإنك لن تنسانا.

لكنه هز كتفيه استخفافاً وأجاب:

- بل نسيانك إياى أقوى احتمالاً من نسيانى إياك.

فصعد الدم إلى وجهها وسألته قائلة:

- ماذا تعنى يا جيم؟

- لقد بلغنى أن لك صاحباً جديداً. من يكون هذا

الرجل، ولماذا أخفيت على أمره؟ أعتقد أنه لا يضر لك خيراً.

فصاحت به:

- كفى يا جيم لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه.

قال الفتى:

- وكيف تحبين رجلاً تجهلين اسمه؟ من يكون هذا

الفتى؟ إن من حقى أن اعرف.

- اسمه الأمير الساحر، ألا يعجبك هذا الاسم؟ أنت لا

تعرفه أيها الولد الطائش، ولو أنك رأيته لوجدت فيه

صورة الكمال، ولسوف تقابله يوماً ما بعد عودتك من

أستراليا ولسوف تولع به. إن كل من يعرفه يولع به أما أنا

فأحبه. ليتك تأتى إلى المسرح هذا المساء، فلسوف يكون

هناك، وأنا الليلة جوليت، ولسوف أجيد التمثيل إجادة ما

بعدها إجادة، ولسوف يجلس أمامي، وأمثل لأرضيه وحده.

لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفهم منى،

فلحب سبيل الكمال، ولسوف يصيح ذلك البائس إيزاك

بصعاليكه ومتسكعيه. فى الحان قائلاً: (تعالوا واشهدوا !

إن سيبيل فىن ممثلة من ممثلات الجيل) لقد آمن مستر

إيزاك بمواهبى إيماناً أعمى حتى اليوم، ولسوف يرى مواهبى

تتكشف أمامه كرؤيا من رؤى الفردوس! إنى لأحس بذلك

من أعماقي، وكل ما أنا فيه قبس منه فهو ضيائي، قبس من

أميرى الساحر، أميرى وحبيبى وملهمى بمعانى الجمال. إنه

غنى بكل شئ، وأنا فقيرة فى كل شئ. ولكن الفقر لن

يغير من أمرنا شيئاً. يقولون إن الفقر إذا دخل من الباب

خرج الحب من الشباك. أما أنا فأقول أن الفقر إذا دخل من

الباب دخل الحب من الشباك. إن أمثالنا تحتاج إلى تنقيح يا

جيم. إن أمثالنا وضعت فى برد الشتاء ونحن الآن فى صيف

الحياة، بل أنا الآن فى الربيع ذى البراعم والعطور والسماء الضحوك.

قال الفتى فى وجوم:

- إن صديقك هذا من طبقة الأشراف، أليس كذلك؟
- فقالت بصوت عذب:
- بل هو أمير كريم.
- إنه يريد أن يستعبدك.
- وأنا أقبل هذه العبودية طائعة مختارة.
- احذريه يا سييل.
- كيف أحذره وأنا أثق فيه ثقة عمياء، وكيف أخوف منه بعد أن اتخذت منه صنمى.

- هذا الحب جنون يا سييل.

فضحكت سييل وأمسكت بذراعه قائلة:

- جيم يا حبيبى، إنك تتكلم كأنك شيخ طاعن فى السن وما أنت إلا طفل صغير. وسوف يأتى يوم تذوق فيه الهوى بنفسك فتعرفه على حقيقته. فدع عنك هذا الوجوم يا جيم. ألا يسعدك وأنت راحل إلى أستراليا أن تعرف بأنك ستركنى أسعد نفساً منى فى أى زمن مضى؟ لقد قست الحياة علينا معاً، بل حطمتنا تحطيماً. أما الآن فالأمور على خير ما يرام. فأنت نازح إلى عالم جديد، وأنا قد وجدت عالماً جديداً. هيا بنا نجلس على المقعدين ونتأمل سراً الناس غادين راثحين.

وجلسا ترقبهما أنظار الناس، وكانت أزهار التوليب فى الجانب الآخر من الطريق تهتز فى الهواء وتضئ كالجمر

الملتهب. واهتزت فى الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء
وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التى يحملها السادة
كأنها فراش جسيم.

وحملت سيبييل أختها على أن يتحدث عن نفسه وعن
أماله وأمانيه، وكان يتكلم فى مشقة وأناة. وتبادل الأخ
والأخت الكلام فى عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة. أما
سيبييل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها،
وكان كل ما ظفرت به من أخيها ابتسامة ارتسمت على
فمه الحزين. ومرت بهما عربة مكشوفة. وفجأة لحت سيبييل
الأمير الساحر ذا الشعر الذهبى والفم البسام داخل
العربة. لقد كان دوريان جراى يتنزه مع سيدتين.

ونهضت سيبييل من مكانها وصاحت قائلة:

- هو ذا ! هو ذا !

قال جيم فين:

- من؟

أجابت وهى تتبع العربة ببصرها:

- الأمير الساحر.

فنهض الفتى وأمسك بذراعها فى خشونة وقال:

- أين هو؟ أين هو؟ لابد أن أراه !

ولكن مركبة الدوق بيروريك مرت أمامهما فى تلك

اللحظة وحجبته عنهما، فلما أخلت أمامهما الطريق كانت

عربة دوريان قد انطلقت خارج هايد بارك.

قالت سيبييل فى أسف:

- لقد خرج، فليتك رأيته يا جيم.

- نعم ليتنى رأيته، فإنى أقسم أمام الله أنى قاتله لو مسك بسوء.

فارتاعت الفتاة، ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفذت كالسكين إلى قلبها. وبدا الناس يحملقون فيهما، وكانت على مقربة منهما سيّدة أخذت تضحك منهما كالأطفال. قالت الفتاة:

- هيا بنا يا جيم. هيا بنا.

وشقت طريقها بين المتنزهين يتبعها أخوها. وأحس جيم بالراحة بعد أن أسمعها وعيده، وحين بلغا تمثال آخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد امتلأ قلبها بالعطف فضحكت وهزت رأسها وقالت له:

- إنك لا زلت صبيّاً أحق يا جيم. إنك لا زلت صبيّاً شرساً أحق لا أكثر ولا أقل، وأنت لا تفهم معنى ما تقوله. كل ما هنالك أنك تغار منه وهذا سر سخطك عليه. فليتك تجرب الحب يا جيم، إن الحب يهذب طبائع الناس، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك.

فأجاب جيم:

- بل أنا أفهم معنى ما أقول، فأنا فى السادسة عشرة من عمري، ولقد لاحظت أن أماناً لا تسهر على سلامتك. إنها لا تفهم كيف تكون التربية الصالحة، وإنى لأفضل العدول عن السفر إلى أستراليا لأضع حداً لهذا الخطر وأحميك من الغواية، ولولا أن أوراقى قد تم توقيعها فعلاً لبقيت معكما.

- لا تغتم كل هذا الاغتمام يا جيم، فالخطر الذى

تتحدث عنه وهم من نسيج خيالك، وأنت تبدو كبطل من أبطال تلك المسحريات العنيفة السخيفة التى كانت أمانة مولعة بتمثيلها فلن أحاسبك على ما قلت ولن أفسد بالشجار هنائى الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر. وأنا أعلم انك لن تؤذى إنساناً أعزه أنا، أليس كذلك يا جيم؟ فأجابها قائلاً:

- نعم، فلن أمسه بسوء طالما أنك تحببته.
قالت:

- سأحبه حتى الموت.
 - وإلام سيحبك هو؟
 - سيحبني حتى الموت كذلك.
 - من الخير له أن يخلص لك دائماً.
- فنفرت منه خوفاً ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه فقد تذكرت أن جيم لم يكن سوى صبي غريب.
- وبلغا ماربل أرتش فى ركن هايد بارك ولوحا " لأمنيوس " فوقف الأمنيوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع فى طريق يوستون. وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، وكان على سيبيل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل. وألح جيم عليها فى أن تستريح وأراد أن يودعها قائلاً إن تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع، فأمهما لم تكن حاضرة، ولو كانت حاضرة لجعلت من الوداع مشهداً مؤثراً كعاداتها فى كل شئ وهو يمقت المشاهد المؤثرة مقتاً شديداً. وتودع الأخ والأخت فى غرفة سيبيل، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة،

وكانت عيناه تومئان بشر كبير فقد توهم جيم أن هذا الدخيل ما جاء إلا ليفرق بينهما فثار في نفسه حقد قاتل. ولكنه ضعف أخيراً حين عانقته أخته وذهبت تعبت بأصابعها في شعره. ورق فؤاده فقبلها قبلة الحنان الصادق، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تترقق في عينيه.

وكانت أمه تنتظره في الطابق الأرضي، فلما رآته بدأت تلومه على تأخره فلم يجيبها بشئ بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل. وطن الذباب حول المائدة، ودب على المفروش الملوث، وكان يسمع صوت " الأمنيوس " وضجيج العربات الرائحات الغاديات في الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل.

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيداً عنه ووضع رأسه بين يديه، وأحس أن من حقه أن يعرف الحقيقة. لقد كان الشك يأكله أكلاً، ولو أن شكه كان في موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل. وكانت أمه ترقبه في خوف عظيم. كانت تتحدث إليه على نحو آلي دون أن تفقه كثيراً مما تقول، وكانت أصابعها تعبت طيلة الوقت بمنديل ممزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب، لكنه التفت إليها وأخذ يتأملها وتلاقت عيونهما فقراً في عينيها معاني الاستعطاف الشديد فغضب غضباً شديداً. قال:

- لدى سؤال أود أن أطرحه عليك يا أمه.

فتاهت عيناها في أنحاء الغرفة لا تستقران على شئ ولم تجب بكلمة.

فاستأنف الفتى حديثه قائلاً:

- صارحيني بالحقيقة، فمن حقى أن أعرف كل شئ.
أكنت متزوجة من أبى؟

فتنهدت فى ارتياح. ها قد جاءت اللحظة العصبية التى
كانت تخشاها الأيام والليالى. جاءت أخيراً. ولكنها لم تشعر
بالرعب القاتل الذى كانت تنتظره. حقاً لقد خاب أملها
شيئاً ما، فقد كانت تتوقع موقفاً حرجاً كمواقف المسرح،
وهى ولوع بمواقف المسرح. ولكن السؤال جاء بسيطاً لا
تنميق فيه، بسيطاً إلى حد الابتذال، وكان لا بد من جواب
بسيط كذلك. نعم، لقد كان السؤال خشناً لا يدل على
لباقة، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروفة غير موفقة. أجابت فى
بساطة:

- كلا.

وعجبت لبساطة الحياة. وعجبت لما فى هذه البساطة من
غلظة.

قال الفتى وهو يجمع قبصتيه:

- إذا فقد كان أبى وغداً.

فهزت رأسها وأجابت:

- لقد كان مقيداً بامرأة أخرى، وكنت أعلم ذلك عنه،
ولكننا تبادلنا الحب ولو أنه عاش لجعل لنا معاشاً منتظماً.
لا تقل فيه سوءاً يا بنى فهو أبوك على كل حال، ولقد كان
فوق ذلك سيداً كريماً. نعم، لقد كان أبوك من أسرة كريمة.

فخرجت من فمه اللعنات وقال:

- أنا لا أفكر فى أمرى، ولكن أفكر فى أمر سييل.
فهذا الذى يجبها أو يزعم أنه يجبها سيد كريم كذلك. ولعله

من أسرة كريمة. فما أشبه اليوم البارحة.
ومرت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذل عظيم،
فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت:
- إن لسيبيل أماً تحميها، أما أنا فلم تكن لى أم.
فتأثر الفتى أيما تأثر، واقترب منها وقبلها ثم قال:
- لقد آلمتكم يا أمه بالكلام عن أبى فاصفحني عنى،
وأرجو أن تعتقدى أنني اضطررت إلى ذلك اضطراراً. والآن
ينبغى أن أرحل فوداعاً، ولا تنسى أنه لم يعد لديك الآن إلا
شخص واحد تسهرين عليه، وثقى أنه لو أصاب سيبيل
مكروه بسبب هذا الرجل فإننى لمطارده فى أركان المعمورة
الأربع وإننى لقاتله أشنع قتلة. أقسم أمام السماء.
وانتعش الجو حول مسز فين فقد كانت ترتاح إلى
المواقف المسرحية، وها هو ذا ولدها يهدد ويتوعد ويشير
ببيده إشارات حائقة. لقد ألفت هذا الجو على المسرح
وكانت تحتنق كلما خرجت منه، فلما سمعت ولدها يتحدث
على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية وأحست نحوه
بإعجاب شديد لم تحس به من قبل، ولقد كانت تود أن
يستمر الموقف على هذه الدرجة من التوتر لولا أن أبنها
وضع له حداً. فالحقائب لا بد من حملها إلى الخارج،
والكوفيات والمناديل وما أشبه ذلك لا بد من البحث عنها،
والوقت ضيق، وقد تم كل ذلك فعلاً وأعقبته مساومة سائق
العربة على أجره. ولقد منيت مسز فين بخيبة أمل أخيرة.
فقد كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع عنيفة بدموعها،
عنيفة بالحسرات. ولكنها وجدت نفسها تلوح لابنها فى

النافذة بمنديلها الممزق والعربة تبتعد به رويداً رويداً، نعم،
لقد أفلتت منها فرصة كبرى كانت تستطيع أن تعرض فيها
ملكاتها. ولكنها استعاضت عما فاتها بأن شرحت لسيبيل
مبلغ وحشتها القادمة بعد أن رحل جيمس. فالآن لم يعد لها
سوى شخص واحد تسهر عليه، ويا لوحشتها القادمة
وأعجبتها الفكرة، فاستظهرت العبارة استظهاراً، لعل
الحاجة تدعو إليها في مناسبة أخرى. ولكنها لم تشر بكلمة
إلى ما سمعته من وعيد. لقد كان الوعيد واضحاً لا ريب فيه،
قوياً، أكيداً، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحست بأنه سيكون
موضع سكرهم في يوم من الأيام.

الفصل السادس



كان بين اللورد هنري وبازيل هولوورد ودوريان جرای موعـد بمطعم برستول في ذلك المساء، فلما دخل هولوورد إلى الحجرة الصغيرة التي أعد فيها الطعام لثلاثتهم قال اللورد هنري:

- لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل.
فأجاب الفنان وهو يسلم معطفه وقبعته لخادم المطعم الذي أنحنى أدباً:

- كلا، يا هاري، ما سمعت شيئاً، فما الخبر؟ أرجو إلا تروى على أخبار السياسة فأنا لا أهتم بها. ولست أجد بين أعضاء مجلس العموم شخصاً واحداً يستحق أن أرسمه، وإن كانت كثرتهم المطلقة تحتاج إلى ترميم كثير.
قال اللورد هنري وهو يتأمل صاحبه ليرى فعل كلماته في نفسه:

- إن دوريان جرای قد عقد خطبته على فتاة.
ففزع هولوورد وأظلم وجهه وقال:
- هذا مستحيل!
- بل هذا صحيح.
- ومن تكون هذه الفتاة؟
- ممثلة.
- هذا كلام غير معقول، وعهدى بدوريان أنه أعقل من

أن يرتكب حماقة كهذه.

- أليس من العقل أن نرتكب الحماقات بين حين وآخر يا برازيل.

- ولكن الزواج ليس من الحماقات التي نستطيع أن نرتكبها بين حين وآخر، يا هارى.

أجاب اللورد هنرى فى هدوء:

- هذا صحيح، ولكنه لا ينطبق على أمريكا. على إنى لم أقل أنه قد تزوج فعلاً. كل ما قلته إنه غقد خطبته على هذه الفتاة، والفرق عظيم بين أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها. فأنا لن أنسى إنى متزوج مع إنى نسيت أيام الخطبة. بل إنه ليخيل إلى أنى لم أمر فى دور الخطبة كسائر الناس.

- لكن ألا يفزعك أن يتزوج دوريان على نبل أصله وعلو مكانته وسعة جاهه من فتاة أقل منه فى كل شئ؟

- إذا سمع دوريان منك هذا الكلام فسيصر على ما قد عزمه، فالحماقة التي نرتكبها تأتى عادة من الدوافع النبيلة فينا.

- أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب، ويسوءنى أن أرى دوريان مشدوداً بقيود من حديد إلى مخلوق بغيض يهوى به إلى الحضيض العقلى والخلقى.

فقال اللورد هنرى وهو يشرب بعض " الفرموت " وعصير البرتقال:

- إنها جميلة، والجمال أعلى من طيبة القلب. نعم. لقد قال لى دوريان إنها جميلة، وهو قلما يخطئ فى تقدير هذه الأمور إن الصورة التي رسمتها له كان لها أثر عجيب فى

تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر تعاليمى.

- أنت جاد فيما تقول؟

- طبعاً يا بازيل. لم أكن أكثر جدّاً فى أى وقت منى

الآن.

وبدأ الرسام يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً، ثم عض شفته
ألماً وقال:

- ولكن أوافق أنت على هذا الزواج يا هارى؟ محال
أن توافق فما هو إلا نزوة عارضة.

- لم أعد أوافق أو أعارض فى هذه الأيام يا بازيل، فقد
وجدت أن هذه فلسفة سخيفة نواجه بها الحياة. نحن لم نأت
إلى هذا العالم لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقية
صحيحة كانت أم فاسدة، فأنا لا أكرث لما يقوله العامة وأنا
اتدخل فيما يفعله الخاصة. فإن جذبتنى شخصية إنسان ما
وجدت ما يستهوينى فى كل عمل يعمل، وفى كل كلمة
يقولها، أياً كانا. فمثلاً إذا أحب دوريان فتاة جميلة تمثل دور
جوليت ورأى أن يخطبها إلى أهلها، فلست أجد على ذلك
اعتراضاً. ولو قد تزوج الامبراطورة مسالينا لما ارتفع فى
نظري عما هو الآن. أنت تعرف إنى لست من أنصار
الزواج، فالنكبة الحقيقية فى الزواج هو أنه يزيل أنانية
الإنسان، والأنانية شئ يضىء على الشخصية قوة وسحراً،
ومن خلو منها خلوا من الشخصية المستقلة، ومع ذلك
فإنى أقول إن من الشخصيات ما يزداد بالزواج تعقيداً،
فيستعيد أنانيته المفقودة، بل تتحول الأنانية لأكثر من غرور
واحد من جملة أنوات، فلا يكتفى بحياة واحدة يحياها وإنما

تتعدد فيه الشخصية وتصبح حياته منظمة متماسكة، وأحسب أن النظام والتماسك هما هدف الاختبار الإنسانى. وأضيف إلى ذلك أن لكل اختبار قيمته فى الحياة، مهما ساء ظننا فى الزواج فلن نستطيع أن ننكر أنه اختبار من اختبارات الحياة. وأرجو أن يتزوج دوريان جراى من هذه الفتاة ويحرق لها الشموع ستة أشهر أو نحو ذلك، ثم يزهد فيها ويتحول عنها فجأة إلى جميلة أخرى. فإن فعل ذلك كان موضوعاً شائقاً للدراسة.

- أنت لا تعنى كلمة واحدة مما تقول يا هارى، وأنت أول من يعرف ذلك. ولو أن مكروهاً نزل بدوريان جراى لكنت أول من يأسف لحاله فأنت كريم النفس وإن تكلفت القسوة تكلفاً.

فضحك اللورد هنرى وقال:

- إن منشأ احترامنا للآخرين هو خوفنا من ألا يحترمنا الآخرون، وأساس التفاؤل هو فزعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل. وإذا أحسنا الظن بجارنا نسبنا إليه من الفضائل ما قد يعود بالفائدة علينا، فنحن نمتدح مدير البنك لعله يقرضنا بعض المال، ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتجاوز عما فى جيوبنا. إنما قصدت كل كلمة قلتها يا بازيل، وأنا أحتقر التفاؤل احتقاراً لا حدود له. أما ما تذكره من أن حياة دوريان قد تتحطم فيدخل فى باب الهراء لأن الحياة لا تتحطم إلا إذا توقفت عن النمو. وإذا ما أردت إفساد نفس فعليك بإصلاحها. أما الرباط المقدس فغلطة حمقاء، وهو بديل سئ لروابط أخرى بين الرجال والنساء

أجدى لهم وأعظم سلطاناً على نفوسهم، روابط أويدها أنا بكل ما بى من قوة، لأنها تعبر عن روح العصر الذى نعيش فيه. ولكن كفى لغواً فيها هو ذا دوريان قادم بنفسه علينا وسيزودك بما أجهل من أخباره.

قال الفتى وهو يصافح صديقية الواحد بعد الآخر:

- امطرا على التهاني يا عزيزي هارى وأنت يا عزيزي بازيل، فما أسعدنى الآن. لقد تمت المسألة كلها فجأة، ولكن هذه سنة الحياة فكل ما فيها من متع حقيقية تأتينا على غرة منا، ومع ذلك فإنها تبدو لى كأنها الشئ الوحيد الذى كنت أبحث عنه طول حياتى.

وفيما كان يتكلم كان الدم يجرى فى وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك جمالاً على جمال.

قال هولوردد:

- أتمنى لك السعادة المتصلة يا دوريان، ولكنى لا أعتذر لك إخفاء خطبتك عنى مع أنك أطلعت هارى عليها. ووضع اللورد هنرى يده على كتف الفتى وقال:

- وأنا لا أعتذر لك تأخرى فى العشاء فلنجلس لنرى ماذا أعد لنا الطاهى الجديد، وفى هذه الأثناء تحكى أنت لنا كيف تم كل شئ.

قال دوريان، وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة:

- ليس عندى ما يستحق أن أحكيه. وكل ما حدث هو أنى حين تركتك بالأمس يا هارى، عدت إلى منزلى وارتديت ملابس السهرة ثم تناولت عشاءى فى ذلك المطعم الإيطالى بشارع روبرت الذى دلتنى عليه، ولما

بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح. وكانت سبيل
تمثل روزاليند، وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة، بل كان
كل شئ بشعاً ما عدا سبيل فقد تجلت فى أبهى حال. ولما
خطرت ألامى فى زى صبى بدت آية من آيات الجمال.
كانت سترتها مخملاً أخضر ذا أكمام صفراء وكانت تلبس
رداء رقيق داكن الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها ريش
مثبتة فى جوهرة كريمة، وكان يغطى كتفها معطف نصفى
مخطط بالأحمر الداكن، فبدت لى أجمل ما تكون، وأشبعت
فى دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالى الصغير الذى يحلى
أستوديو بازيل. وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء
وسط أوراق الشجر الكثيفة، ثم مثلت فأبدعت ولسوف
تربانها الليلة فيتحقق لكما ما أقول. إنها فنانة موهوبة
ملكى عليّ حواسى وأنا جالس فى المقصورة الحفيرة،
فأنستنى إنى كنت فى لندن وأنى أعيش فى منتصف القرن
التاسع عشر، وحملتنى على جناح الخيال مع محبوبتى إلى غابة
نائية لم ترها عين بشر. وبعد إنتهاء التمثيل قصدت إلى
غرف الممثلين وتحدثت إليها. وفيما نحن جالسان رأيت فى
عينها بريقاً جديداً لم أعهده فيهما، واقتربت شفتائى من
شفتيها وقبلتها. أما إحساسى فى تلك اللحظة فلا سبيل
إلى وصفه. لقد خُيل إليّ أن حياتى كلها قد تركزت فى ذرة
واحدة من السعادة التى ما بعدها سعادة، وأخذت تنتفض
بين يدي كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ريح خفية، ثم
جثت على ركبتيها وقبلت يدي. ما كان ينبغى أن أقول
لكما ذلك، ولكن قوة القاهرة تسوقنى إلى الإفشاء بكل شئ.

ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سرّاً لا يعرفه أحد،
حتى أمها ذاتها، ولست أدري كيف يستقبل أوصيائي هذا
النبا، ولكن مما لا شك فيه أن اللورد رادلي سوف يغضب
غضباً شديداً. فإن غَضِبَ فلست مقيماً لغضبه وزناً، لأنى
سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال. ألا ترى
أنى قد أحسنت صنعاً حين التمت فتاة أحلامي من
عرائس الشعر واخترت شريكة حياتى من بين بطلات
شكسبير؟ إن هاتين الشفتين اللتين علمهما شكسبير فن
الحديث قد همستا فى أذنى اسرار قلبها العميق، ولقد
طوقتى روزاليند بذراعيها الجميلتين، ولقد قبلت ثغر
جولييت فسكرت على الرحيق.

قال هولو ورد فى تودة:

- نعم يا دوريان أعتقد أنك أحسنت صنعاً.

وسأل اللورد هنرى دوريان جراً قائلاً:

- أرايتهما اليوم يا دوريان؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفي:

- كلا فقد تركتها فى غابة آردين، وسأجدها فى بستان

بفيرونا.

قال اللورد هنرى وهو يشرب كأس الشمبانيا فى تدبر

عميق:

- قل لى يا دوريان، متى أشرت إلى الزواج صراحة،

وماذا أجابت حين عرضت عليها الزواج؟ أظنك قد نسيت

كل ما جرى؟

- كلا يا صديقى هارى، ولكنى لم أبحث الزواج معها

كما يبحث تلجر صفقة، بل إنى لم أطلب الزواج بصورة رسمية. كل ما حدث هو أنى ذكرت لها أنى أحبها، فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجاً لى، فما أشد تواضعها يا هارى! إن العالم كله لا يساوى عندى شيئاً إذا قيس بها.

فقال اللورد هنرى بصوت خافت:

- إن النساء عمليات إلى حد بعيد. نعم إن تفكيرهن أكثر عملية من تفكير الرجال. ففى مثل هذه المواقف كثيراً ما ننسى أن نشير إلى الزواج، ولكنهن يذكرننا دائماً به.

فأمسك هولواورد بذراعه قائلاً:

- كفى يا هارى. لاتحرض دوريان على الغدر فهو يختلف عن سائر الناس. إن طبيعته الصافية تأبى عليه أن ينزل بأحد ضراً. وإنك لتغضبه بهذا الكلام.

فاجاب اللورد هنرى بقوله:

- إن دوريان لا يغضب منى أبداً. لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول، وهو الدافع الوحيد الذى يجيز لنا أن نسأل الأسئلة. ومن رأيى أن النساء هن اللاتى يخطبننا، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة، وتفسير ذلك أن الطبقة المتوسطة طبقة رجعية.

فضحك دوريان جراً وهز رأسه قائلاً:

- لا سبيل إلى إصلاحك يا هارى، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبنى كلامك، ولو أنى أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك. إن الرجل الذى يمس سبيل قفين بسوء جبان دنئ، ولسوف تشاركنى رأيى حين تراها ثم إنى لا أفهم كيف يلوث إنسان الشئ الذى يحبه. فأنا أحب سبيل،

ولذلك ترانى أود أن أضعها على قاعدة من ذهب خالص،
وأن أشاهد العالم يتعبد للمرأة التى أملكها. وما الزواج؟
أليس الزواج عهداً لا ينقض؟ إنك تسخر من الزواج يا
هارى، ولكن موقفك موقف خاطئ أما انا فأريد أن آخذ
على نفسى عهداً لا ينقض، ولسوف تجعلى ثقتها فىّ وفيّاً
على الميثاق، ولسوف يجعلنى إيمانها بى أصفى نفساً وأنقى
ضميراً لقد بدلنى حبها من حال إلى حال، فإن مست يدها
يدى ألهتنى عن كل ما فى الدنيا، ألهتنى عنك وعن نظرياتك
الجميلة السامة.

قال اللورد هنرى وهو يتناول قليلاً من السلطة:

- أي نظريات تعني؟
- أعنى نظرياتك فى الحياة، وفى الحب، وفى اللذة. بل
أعنى كل نظرياتك يا هارى.

فأجاب اللورد هنرى بصوت عذب بطئ:

- اللذة هى الشئ الوحيد الذى يستحق أن توجد فيه
النظريات. ومع كل فأننا لا أدعى أن نظرياتى من عملى
فهى من عمل الطبيعة. إن اللذة مقياس الطبيعة ودليل
رضاها، فالسعداء دائماً أخيار ولكن الأخيار ليسوا دائماً
سعداء.

قال بازيل هولواورد:

- ولكن ماذا تفهم من كلمة الخير؟
- وقال دوريان جراى وهو يغوص فى مقعده وينظر إلى
اللورد هنرى من وراء الأزهار الحمراء التى تزين المائدة:
- نعم ماذا تفهم من كلمة الخير يا هارى؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يقبض على كأسه بأصابعه
الشاحبة النحيلة:

- الخير هو انسجام الإنسان مع نفسه. والفوضى هي
اضطراب الإنسان للانسجام مع الغير. إن حياة الإنسان هي
كل ماله فى هذا الوجود، أما حياة الجيران فليست من
اختصاصنا، وإن كنا نظهر الاهتمام بها من باب النفاق
الاجتماعى، أو من باب التدين الشديد. ثم إن للفردية غاية
سامية هي ضمان التقدم، ولقد أصبح المقياس الحديث فى
الأخلاق قبول مقاييس العصر الذى نعيش فيه، أما أن أقول
إن قبول مقاييس العصر الذى نعيش فيه عمل مناف
للأخلاق وخطأ لا يغتفر لأى رجل مثقف.

قال الرسام:

- ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غالياً يا
هارى.

- نعم، فنحن الآن ندفع ثمن كل شئ غالياً حتى السلع
التي نشتريها. وإني أعتقد أن المأساة الحقيقية فى حياة
الفقراء هي أنهم لا يملكون إلا توضحياتهم يجودون بها
للمجتمع. أما الخطايا فهي ترف لا يملكه إلا الأغنياء.

- لم أقصد إننا ندفع الثمن نقداً يا هارى.

- اذا فكيف ندفعه يا بازيل؟

- قصدت أن الثمن الذى ندفعه هو تأنيب الضمير

والآلام والإحساس بالالتحطاط.

فهز اللورد هنرى كتفيه وقال:

- إن فن العصور الوسطى جميل حقاً، ولكن أفكار

العصور الوسطى أفكار بالية وعواطف العصور الوسطى لا مجال لها فى العصر الحديث. نحن بالطبع نستطيع أن نستفيد منها فى القصص الذى نكتبه، ولكن هذا من خصائص القصص. أؤكد لك إنه ما من متحضر يأسف على لذة جناها، وما من رجل بربرى يعرف اللذة كيف تكون.

قال دوريان جراى:

- اللذة عندى هى أن أتعبد لكائن ما.

فقال اللورد هنرى وهو يعبث ببعض الفواكة الموضوعة على المائدة:

- هذا أفضل من أن يتعبد الغير لك، فهن يحرقن لنا البخور ويضايقنا بمطالبهن التى لا تنتهى.

وبدا الجدد على وجه الفتى وقال:

- يخيل إلىّ إنهن يأخذن ما أعطين لا أكثر ولا أقل. لقد غرسن فى قلوبنا الحب، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب.

فقال هولوى ورد:

- أنا من رأيك يا دوريان. فهذا صحيح تماماً.

قال اللورد هنرى:

- ليس فى الوجود ما هو صحيح تماماً.

فقاطعة دوريان قائلاً:

- ولكن لا بد أن تعترف يا هارى بأن النساء يعطين الرجال أنفس شئ فى حياتهن.

فأجاب اللورد هنرى:

- هذا جائز، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا
الشئ منا مرة أخرى، وهذا ما يحزن الإنسان. إن النساء كما
وصفهن ذكى من أذكىاء فرنسا يلهبن فينا الرغبة فى القيام
بروائع الاعمال ثم يمنعنا عن تنفيذ هذه الرغبة.
- أنت شخص لا يطلق يا هارى، ولست أدري فيم
تعلق بك.

فأجاب اللورد هنرى:

- إنك ستعلق بي دائماً. ألكما فى قليل من القهوة؟
هات لنا بعض القهوة والشمبانيا وبعض السجائر يا
جون. كلا يا جون لا تأت بسجائر لأن معى منها ما يكفى.
لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخن السيجار فخذ سيجارة. إن
السيجارة هى أحسن مثل لأحسن متعة، فهى لذينة ولا
تشبع حواسك تماماً، وهل بين متع الحياة ما هو خير من
ذلك؟ نعم يا دوريان، إن حبك لى لن يفتر أبداً، فأنا أمثل
لك جميع الرذائل التى لا تجرؤ على الانغماس فيها.
فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدمها خادم
المطعم له تخرج من فم تتين صنع من الفضة:

- ما هذا الهراء يا هارى هيا بنا إلى المسرح، ولسوف
تتغير أراؤك فى الحياة حين تشاهد سيبيل تخطر أمامك على
الحشبة، فهى تمثل جانباً من الوجود لم يصل بعد إلى علمك.
أجاب اللورد هنرى:

- هذا مستحيل لأن علمى أحاط بكل شئ، ولكنى
نهم إلى كل إحساس جديد، وإن كانت نفسى كذلك لا
تتسع لإحساس جديد لأنها جربت كل شئ. مهما يكن من

شئ فمن الجائز أن تثيرنى صديقتك الصغيرة الفاتنة، فأنا أحب التمثيل وأجله أقرب إلى الواقع من الحياة. هيا بنا. اركب معى يا دوريان فى عربتى، أما أنت يا بازيل فيؤسفى أن أطلب إليك أن تستأجر عربة وتلحق بنا لأن عربتى لا تتسع إلا لشخصين.

ونهمض ثلاثتهم وارتدوا معاففهم وشربوا قهوتهم وهم واقفون. أما الرسام فكان صامتاً منشغل البال شارد الذهن. لقد كان يجد فى هذا الزواج غلطة كبرى، ومع ذلك فقد أحس إنه أهون شراً من سواه. وبعد دقائق كانوا جميعاً خارج المطعم. وسعت به العربة التى استأجرها تتبع عربة اللورد هنرى وأخذ يتأمل أنوارها الباهرة. وغمره شعور بأنه أضاع شيئاً ثميناً. أحس بأن دوريان جراى قد خرج من حياته، ولم يعد يلهمه بشئ كما كان يفعل فى الماضى. لقد حالت بينهما الحياة وأظلمت الدنيا فى عينيه، وسبحت أمامه المصاييح الثاقبة، ولم يعد يرى المارة فى وضوح. فلما أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد كبر أعواماً وأعواماً.

الفصل السابع



كان المسرح في تلك الليلة يعج بالمشاهدين لسبب
أو لآخر، ووقف اليهودي البدين بباب المسرح
يستقبلهم وهو منشرح الصدر، يقود ثلاثتهم إلى
المقصورة الخاصة بهم وسط الحشود في خيلاء وفخر، مشيراً
بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر في كل اتجاه متحدثاً
إليهم في صوت مرتفع كأنهم صم لا يسمعون.

فأحس دوريان جراي نحوه بعدم الارتياح. أحس بأنه قدم
ليرى ميراندا فلم ير إلا كاليبان. وعلى العكس فقد ارتاح
إليه اللورد هنري أو على الأقل زعم أنه ارتاح إليه، ولم
ينس أن يصفحه بحرارة، وأكد له أنه فخور بمعرفة رجل
مثله قد أفقره الشعر، واستطاع أن يستكشف عبقرية
مدفونة كسييل قين أكثر. على حين كان هولو ورد يسلي
نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين في المقاعد الرخيصة،
وكان الحر شديداً، وقد تدفق في المسرح شعاع عظيم من
الشمس الغائبة، شعاع بدا كزهرة صفراء أوراقها كألجنة
لهب هائلة، وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار
ستراتهم ووضعوها بجانبهم، وقد بدأ بعضهم في طرف

المسرح يتحدث إلى بعضهم في الطرف الآخر، ويقتسمون ما معهم من من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الرثة الجالسات إلى جوارهم. ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حاداً مزعجاً، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب. قال اللورد هنري:

- يا له من مكان رخيص الذي وجدت فيه قدسك!
فأجاب دوريان جراي:

- نعم إنه لمكان رخيص، ولقد وجدت فيها قدسي. إن سيبيل فـين قـبس من الله لم يحل بعد في بشر. ولكنك ستنسى هذا المكان حين تراها تمثل. ولسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع تستأنس حين تخطر سيبيل أمامها على المسرح، ولسوف تراها تجلس في صمت شاخصة العيون، تضحك وتبكي في إيماءة منها. إن قلوبهم تستجيب لها استجابة الكمان للقوس. إنها تبث فيهم من عندها روحاً وتسمو بهم عن صداً المادة، وحين اراهم في هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقاً من طينتنا. نحن النبلاء.

فقال اللورد هنري وهو يتفحص الأوباش في الشرفات بمنظاره المكبر:

- هذه قسوة منك يا دوريان. فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا.

فقال الرسام:

- لا تلق إليه بالاً يا دوريان، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول، وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة. إن فتاة تختصها أنت

بجبك لا بد ان تكون درة بين النساء، وإن فتاة تترك في نفسك كل هذا الأثر لا بد أن تكون مخلوقاً سامياً نبيلاً. نعم، إن فتاة تنفخ الروح في هذه الجمادات المتحركة، وتودع الإحساس بالجمال في نفوس ممسوخة مظلمة، وتنزع الأنانية من قلوبهم فتنتهمر دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصياً لجديرة بجبك العظيم، بل وتستحق أن تقدسها الدنيا بأسرها. لقد عدلت عن رأيي السابق وإني لأوافق على هذا الزواج من كل قلبي. إن الله قد خلق سبيل قين من أجلك يا دوريان، ولن تكتمل نفسك إلا بها.

فأمسك دوريان جراي بيده وضغط عليها في حرارة وقال:
- شكراً لك يا بازيل. لقد كنت أعرف أنك ستفهمني، أما هنري فهو ساخر بكل شيء، وهذا يرعيني، ولكن كفى حديثاً الآن فقد بدأت الموسيقى تمهد للتمثيل، وأرجو أن تحتملها في صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستنتهي في دقائق حين يرتفع الستار، وعندئذ ستريان الفتاة التي سأكرس حياتي لإسعادها، نعم، ستريان الفتاة التي وهبتها خلاصة نفسي.

وبعد ربع ساعة ظهرت سبيل قين على المسرح في دوى من التصفيق يصم الأذان. وقد نجحت في الامتحان الأول نجاحاً باهراً، فقد رأى الرجلان جمالها الرائع وأخذوا به. بل إن اللورد هنري رأى إنها نادرة بين النساء. وبدأت كحورية خجلى، وحين وقع بصرها على الحشد المتحمس في جنبات الدار احمر خدها حياء فبدا كخيال وردة في صفحة فضية. وتراجعت خطوات وارتجفت شفتها فنهض بازيل

هولو ورد وبدأ يصفق تحية لها، واسترسل دوريان جراي في حلم طويل محملاً فيها كالحلق في رؤيا عجيبة، أما اللورد هنري فكان يتأملها بمنظاره ويردد قوله: " ما أبدعها حقاً! ما أبدعها! ".

وكان المشهد ساحة دار كابوليت، ودخل روميو مع مركشيو وأصحابه في زي زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الإيقاعية. وبدأ الرقص، ومشت سيبيل قين بين جموع الممثلين ذوي الثياب الرثة كأنها زائر من السماء أو وفد من عالم الأحلام. وتثني جسدها أثناء الرقص كعود الخيزران، وبدت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض، وبدت يداها الناعمتان كأنهما من العاج الأملس المنعش.

ولكن فتورها كان ملحوظاً، وحين وقع بصرها على روميو لم يبد عليها الفرح لرؤيته. وحين بدأت تقول: "أيها الزائر الحرم، ألا رفقا بيدك..." وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدا حديثها متكلفاً للسامعين. كان صوتها جميلاً حقاً. ولكنه كان زائف التلوين لا إحساس فيه، فأفسد طعم الشعر الجميل، وجعل من عاطفة جوليت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة.

وشحب وجه دوريان جراي وهو يتتبع كلماتها واستبد به القلق وحار في أمرها. ولم يجرؤ صديقه على مواجهته بحقيقة الأمر، بأن سيبيل قين ممثلة ساقطة، بأن سيبيل قين خبيث ظنهما إلى أبعد حد.

ومع ذلك فقد أحسا بأن منظر الشرفة في الفصل الثاني هو المقياس الحقيقي لكل جوليت فقرروا الانتظار ليصدرا

فيها حكماً نهائياً.

وجاء منظر الشرفة فأطلت منها وغمرها نور القمر
فكانت آية في الفتنة، ولكن تمثيلها كان مفتعلاً إلى حد لا
يطلق، بل كان يزداد إفتعلاً باستمرار حتى أمست إشارات
مضحكة، وكانت تؤكد كل عبارة تقولها بلا داعٍ فشوهت
جمال الأبيات التالية:

وإنَّ ما سمعت من كلامي
ألهب فيّ خفر العذاري
لكن كفّ الليل يا حبيبي
لثم بخمار نكس وجهي
فلم تعد ترى ضرام خلدي
ورنت في آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقيها
تلميذة تولى تدريبها مدرس في الإلقاء لا يتقن فنه، وحين
اتكأت على الشرفة وقالت:

أنت ملكت القلب، بيد أني
أضرع لك لا تستعجلني
باغتنام الغرام يا غرامي
كالسيل، أو كالبرق في الجوزاء،
تأكله الظلماء قبل قولي:
"انظر لقد أبرقت السماء!"

إلى الغد المأمول يا حبيبي
عسى براعم الهوى بقلبي
تزهو عند الصبح فوداعاً!
خرجت الكلمات من فمها ميتة بلا معنى، ولم يكن بها

أدنى اضطراب بل كانت تملك زمام نفسها بيدها مما زاد الموقف سوءاً.

نعم، لم يكن هناك موضع للإعتذار لها، فلقد كانت تجهل أصول فنها وهذه خلاصة القول، ولقد كان فشلها ذريعاً. حتى السوقة الذين غصت بهم شرفات المسرح ومقاعده الرخيصة اضطربوا في أماكنهم في ضيقٍ وبدءوا يتحدثون بأصوات مسموعة ويصفرون استنكاراً. كل ذلك بينما يقف اليهودي في منتصف المسرح يضرب الأرض بقدمه منفجراً بالألفاظ النابية.

وكانت سييل قنينة الشخص الوحيد الذي لم يهتز لشيء مما يجري. ولما انتهى الفصل الثاني ارتفعت صيحات التهكم من كل جانب.

ونفض اللورد هنري وارتندي معطفه وقال:

- إنها فائنة حقاً يا دوريان، ولكنها لا تعرف شيئاً عن فن التمثيل. لنصرف الآن، فهي بنا. فأجاب الفتى في مرارة شديدة:

- سأبقى أنا هنا لأكمل الرواية حتى نهايتها ولكم يؤسفني أن أفسدت عليك المساء يا هاري. أرجو ان تقبلاً اعتذاري.

فقاطعه هولو ورد بقوله:

- لا جناح عليك يا صديقي دوريان، فلعل الأنسة فين مريضة، وسوف تأتي لمشاهدتها في ليلة أخرى. قال دوريان جراي:

- ليتها كانت مريضة، ولكن ليست هذه هي الحقيقة،

فقد بدت لي باردة خلت من كل شعور، وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قبل. لقد كانت بالأمس فنانة من الطراز الأول، وهي اليوم ممثلة فاشلة لا تعرف عن فنها شيئاً.
قال هولورود:

- لا تتكلم بهذه اللهجة عمن تحب يا دوريان، فالحب أسمى من الفن بدرجات.
فقال اللورد هنري:

- إنما الحب و الفن أسلوبان من المحاكاة. ولكن هيا بنا يا بازيل. أما أنت يا دوريان فلا أنصحك بالبقاء. لأن مشاهدة التمثيل الزائف تفسد النفس والذوق. ثم إن المسألة ليست ذات أهمية. أعتقد إنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح فيما بعد. إنها جميلة حقاً ولو أن خبرتها بالحياة كانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكنت لك فيها دراسة ممتعة. ففي الناس نوعان يسحران عقلي: الناس الذين يعرفون كل شيء والناس الذين لا يعرفون شيئاً، إن من يراك الآن يا دوريان يحسب أنك فجعت في أعز عزيز لديك، فدع عنك هذا الضيق لأن الأمر لا يستحق كل هذا، ولأذكرك بأن سر الشباب هو المرح الدائم تعال معنا إلى النادي حيث نشرب نخب جمال سيبيل قفين. هي جميلة بلا شك، فماذا تطلب أكثر من هذا؟

قال الفتى:

- اتركاني وحيداً، فإني أريد أن أخلو بنفسي. هيا انصرف يا هاري، وأنت يا بازيل انصرف. ألا تريان أن قلبي يتمزق. واغرورق عيناه بالدمع، وارتجفت شفتاه، وعاد إلى

مقصورته على عجل، وهناك وقف مستنداً إلى الحائط وقد وضع وجهه بين راحتيه.

قال اللورد هنري في حنان ليس من طبعه:

- هيا بنا يا بازيل.

وانصرف الرجلان.

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح، وارتفع الستار، وبدأ الفصل الثالث، وأخذ دوريان جراي مكانه من المقصورة شاحب الوجه يبدو عليه الفتور وقد استعاد كبرياه المجروح. ومرت الرواية ثقيلة كأنها بغير نهاية. وانصرف نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين. وحين جاء الفصل الأخير خلا المسرح فيما عدا رجل هنا ورجل هناك، وانسدل الستار فضحك قوم وتأوه آخرون. لقد سقطت الرواية.

وما إن انتهى التمثيل حتى بادر دوريان جراي بالذهاب إلى غرف الممثلين، وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك، وعلى وجهها إمارات الانتصار وفي عينيها بريق جميل، وكانت تشع نوراً كأنها ملك من السماء، وقد انفرجت شفتاها الباسمتان فظهر أنها تخفي سراً. وحين دخل دوريان جراي تأملته فسرت في فؤاده نشوة عظيمة. قالت:

- ما كان أقبح تمثيلي الليلة يا دوريان!

فأجاب وهو يحملق فيها عاجباً:

- لا حد لشناعته. لا حد لشناعته. أمرضة أنت؟ لا حد

لشناعته. لقد أشقيتني شقاء لا حدود له.

فابتسمت الفتاة وقالت وهي تترنم باسمه:

- لقد كان ينبغي أن تفهم يا دوريان، ولكنك تفهم الآن. أليس كذلك؟

فأجابها غاضباً:

- تفهم السر في سقوطي الليلة، بل تفهم السر في سقوطي من الآن فصاعداً. لن أستطيع الإجابة بعد اليوم يا دوريان.

هز كتفيه وقال في استخفاف:

- أعتقد أنك مريضة، وحين تكونين مريضة تجني التمثيل لأنك تضحكين الناس منك. لقد كان معي صديقان قتلهما الملل. ولقد قتلني كذلك.

وبدا عليها أنها منصرفة عنه. لقد غمرتها سعادة عظيمة ألقتها عن كل شيء. قالت:

- لقد كان التمثيل عندي شغل الحياة قبل أن أعرفك يا دوريان، بل لقد أصبحت الحياة عندي تمثيلاً وأصبح التمثيل الحياة. فأنا الليلة روزاليند وغداً بورشيا وكانت أفراح بياتريس أفراحي وأحزان كورديليا أحزاني، وكنت أَرْضَى بكل شيء فهؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابي، وكانت مشاهد المسرح هي الدنيا التي أعيش فيها. هذه الظلال ملأت حياتي فظننتها حقائق حتى جئت أنت يا حبيبي، وأعتقدت روحي من الأسر وعلمتني كيف الحقيقة. وهذه أول ليلة في حياتي أحس فيها بأن هذا الموكب الذي أسير فيه زائف أجوف سقيم. هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميو الي يمثل على المسرح أمامي رجل قبيح مزين، وبأن نور القمر والحديقة زائفان جميعاً، وأن الكلمات التي أتقوه

بها زائفة كذلك، لأنها لم تكن كلماتي ولم تعبر عن
الشعور الذي يخالجي. أما أنت فقد منحني شيئاً لا زيف
فيه، شيئاً أسمى من الفن، شيئاً ما وجد الفن إلا ليعبر عنه.
لقد جعلتني أفهم معنى الحب الحقيقي. أنت حبيبي ومولاي
وأميري الساحر، ولقد مللت الظلال يا حبيبي، وإنك عندي
لأعلى من فنون العالم جميعاً. فما بقائي بين هذه الدمي التي
لا حياة فيها؟ لم افهم في البدء كيف تبدل حالي وظننت أنني
سأوفق الليلة فلما بدأت أتكلم عرفت أن كل شيء قد
ضاع مني وأناي الآن مخلوق جديد. ثم ادركت فجأة أن هواك
هو الذي بدل نفسي فطربت طرباً شديداً. وحين سمعت
الناس يتهمون بي لم أغضب بل ابتسمت لأنني أعرف ما
لا يعرفون، وكيف يعرف هؤلاء السوقة معنى الغرام
العظيم؟ إني أكره المسرح يا دوريان فخذني معك حيث
تشاء، ولنعيش في عزلة عن الناس. وكيف أمثل بعد اليوم؟
إني إن استطعت أن أصطنع عاطفة لا أحس بها فلن
أستطيع أن أصطنع عاطفة تكوي قلبي وتفتت كبدي. أنت
تفهم الآن سر سقوطي الليلة يا دوريان. ولو أنني استطعت
أن أجيد بعد اليوم لكان تدينساً لحبنا أن أمثل دور المحبة
وأنا مُحبة. لقد تعلمت هذا منك يا دوريان.

فارتى على أريكة بالغرفة وأشاح بوجهه قائلاً:

- لقد قتلت حيي لك.

فنظرت إليه متعجبة وضحكت ولكنه لم يقل شيئاً
فدنت منه وبدأت تعبت بشعره ثم جثت إلى جواره
وأمسكت بيديه وضمتهما إلى شفثيها فسرت في جسده

رعدة قووة ففذب يديه بعيداً. ثم نهض ومشى نحو الباب وقال:

- لقد قتلت حيي لك. فقد كنت تحركين خيالي أما الآن فأنت لا تحركين في شيئاً حتى فضولي. لقد ضاع أثرك في نفسي، ولم يعد لك عليها سلطان. لقد أحببتك لأنك كنت صاحبة فن عظيم، لأنك أوتيت الفطنة والنبوغ، لأنك حققت أحلام الشعراء وجسدت ظلال الفن. ولكنك تخلت عن كل هذه الأشياء فما أغباك وما أتفهلك. يا إلهي! لقد كان حيي لك جنوناً فما كان أغبانني حينئذ، ولكنك خرجت من قلبي تماماً، فلن أسعى لرؤيتك بعد اليوم، ولن يرد اسمك عليّ فمي. لقد أفسدت على جمال الحياة فليتنى لم أعرفك مطلقاً. فإن كنت تحسبين أن الحب يفسد الفن فما أجهلك بالحب! وأنت بغير الفن لا تساوين شيئاً، ولكنك اخترت سبيل الضلال، ولو أنك آمنت بالفن لجعلتك قبله الأنظار، ورفعتك على سائر النساء، ووهبتك اسمي، وسموت بك حتى يراك كل من في الدنيا، ولكنك ركلت كل هذا بقدمك فماذا جنيت من ذلك؟ ما أنت الآن إلا ممثلة تافهة لها وجه صبور.

فشحب لون الفتاة وارتعدت فرائصها وانطبقت يداها واحتبس الصوت في حلقها وقالت:

- أنت جاد فيما تقول يا دوريان؟ إنك تمثل دور الغاضب لتخيفني.

قال الفتى في مرارة:

- بل أترك التمثيل لك لأنك تحيدينه.

فنهضت الفتاة ومشت إليه في ألم بالغ وأمسكت بذراعه
وبدأت تقرأ ما تقول عينا، فدفعها بعيدا عنه وقال:
- لا تمسني.

وجثت الفتاة عند قدميه، وانبعث منها أنين مكتوم
فبدت كزهرة جميلة سحقته الأقدام، وأخيراً همست قائلة:
- لا تتركني يا دوريان، لا تتركني. لقد كنت أفكر فيك
طول الوقت فألهاني ذلك عن إجادة عملي، فأغفر لي، وإني
لأعدك بأني سأجتهد في المستقبل أن أتقن دوري ما
استطعت. لقد ملئ حبك نفسي فجأة، ولولا إنك قبلتني لما
عرفت الحب. أجل لولا تلك القبلية لما استيقظ حي وظل
نائماً في صدري، فقبلني يا حبيبي مرة أخرى لتطفئ شوقي
إليك. أضرع إليك لا تتركني، إن أخي تواعد بأن... ولكنه لم
يكن جاداً في وعيده. ألا تستطيع أن تغفر لي ما حدث
الليلة؟ لا تنس أن هذه أول مرة أقصر فيها، وسوف أجتهد
لأتقن عملي ما وسعني ذلك. لا تكن قاسياً في عقابي لأنني
أحمل لك كل هذا الحب، ولكني أرى إنك الآن على حق
فيما تقول، فقد كان خسة مني أن أستخف بالفن لأنني
عرفت الحب أو أن أجد في الحب ما يصرفني عن الفن.
أعترف لك بأن هذا كان حماقة مني، ولكني لم أكن مختارة فيما
فعلت، فأرجو منك الصفح على ما مضى ولا تتركني، أواه!
لا تتركني!

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام، وظلت طريحة
على الأرض، كأنها فريسة جريحة، فأخذ دوريان ينظر إليها
في إحتقار قاتل ارتسم على شفثيه الجميلتين واضحا قويا

وسخر من فيض العاطفة الذي غمرها لأنه كف عن حبها، فبدت سييل قنين له مسرحية تسرف في عرض حبها إلى درجة تدعو إلى السخرية، ولم يهتز لدموعها الجارية بل ضاق بها ذرعاً.

وأخيراً بصوت هادئ واضح:

- سأنصرف الآن بلا رجعة، ولا أقصد بهذا إيلا مكن
ولكنك خييتي أملي فيكي.

فبكت في صمت ولم تجب بشئ، ولكنها زحفت نحوه وامتدت يدها كأنها تريد بأن تستوقفه، ولكنه أعطاه ظهره وخرج من الغرفة، وفي دقائق معدودات كان خارج المسرح. وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقاً. كل ما ذكره أنه تجول في شوارع قليلة الأنوار ومر بأقباة متهاوية قائمة الظلال وبمنازل مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة.

كذلك ذكر إنه صادف في سيره نسوة استوقفته بأصوات خشنة وأرسلن ورائه ضحكات خشنة، وإنه مر بسكارى يترنحون في مشيتهم ويتفوهون بأقذع الألفاظ ويحدثون أنفسهم كأنهم قردة ممسوخة، وأنه رأى أطفال ليسوا كالأطفال تحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل، وسمع صرخات تنبعث من أفنية مظلمة يصاحبها سباب شنيع. وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوفنت جاردن. ورأى الظلام ينقشع والسماء تبدو كالدرة الصافية وقد خضبتها حمرة خفيفة. وسمع ضجيج العربات وهي تسير ببطء في الشارع النظيف الخالي وملاً الهواء أريج الأزهار فاستشفت بجمالها

نفسه المتعبة. وتبع العربات حتى بلغت السوق وشاهد
الحمالين يفرغون حمولتها، وتقدم إليه أحدهم بقليل من
الكريز فأخذ شاكراً وهو يعجب لأن الرجل رفض أن
يقبل ثمن ما أعطى. وبدأ يأكل الفاكهة في غير شهية،
وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان
لمسها رطباً كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها. ومروا أمامه
صف طويل من الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع
الأزهار، وقد شقوا طريقهم بين الخضر المتكدسة على حين
وقفت بباب دار الأوبرا ذي الأعمدة البيضاء التي لفحتها
الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس
ينتظرن إنتهاء المزاد. ووقفت جماعة أخرى عند أبواب المقهى
في البياتزا. كل هذا والخيال الضخمة التي تجر العربات
تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتهز الأجراس المعلقة في
أعناقها، والحمام ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء
تسعى هنا وهناك تلتقط الحب.

وبعد قليل مرت عربة فاستوقفها وعاد بها إلى بيته.
وحين بلغ البيت لم يدخل بل وقف بابه قليلاً يتطلع إلى
الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية جرداء وما به من
نوافذ كستها الستائر. وبدت له السماء في تلك اللحظة
كفيروزة كبيرة نقية من كل شائبة ولمعت تحتها أسطح المنازل
كما تلمع الفضة، ورأى الدخان يتصاعد في سحب شفافة
من مدخنة بيت مقابل فيلوح لرائيها كالشرائط البنفسجية
المتطايرة في الهواء التي تألق كالصدف المصقول.
ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلاة بحشب

البلوط فوجد الأنوار لا تزال تضيء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جئ به قديماً من البندقية حيث يمكن يحل جندول حاكم تلك المدينة، وكان المصباح يتدلى من سقف الحجرة، فأطفأ العيون، وبعد أن قذف بقبعته وعبائته على المائدة دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهي مثمرة الأضلاع في الدور الأرضي زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبزخ ببسط من عصر النهضة الغربية التصميم وجدها بين مجموعة مهمة في غرفة مهمة بمتحف سلمي فابتاعها. وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التي رسمها له بازيل هولوا ورد فأخذه عجب شديد، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر وبعد أن فك أزرار سترته تردد قليلاً ثم رجع إلى الصورة وتأملها ملياً فخيل إليه أن الوجه قد تغير قليلاً، فقد كان التعبير المرتسم عليه مختلفاً عما كان في الماضي. خيل إليه وهو ينظر إلى الصورة في الضوء المكبوت الذي تسرب من بين الستائر الحربية الصفراء أن شيئاً من القسوة قد ارتسم في موضع الفم فعجب لذلك أيما العجب.

ثم سعى إلى النافذة وأزاح عنها الستائر فتدفق في الحجرة نور الفجر الوضاء محال الظلال المدينة وجمعها في أركان الحجرة القائمة، وهناك رقدت الظلال منكشحة ترتعش. ولكن الضوء الغامر الذي ملئ المكان لم يح ذلك التعبير الغريب الذي شاهده في صورته بل أكده، وسقط ضوء الشمس على موضع الفم فأظهر له في وضوح أمارات القسوة، وخيل إليه أنه يرى وجهه في مرآة بعد أن

ارتكب إثماً فاحشاً ترك آثاره في محياه.

فتجهم مجهه وكانت على المائدة مرآة بيضاوية الشكل ذات إطار عاجي زينتها نقوش لكويده كثيرة كان اللورد هنري قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثراً لذلك الخط الذي شوه جمال شفتيه في الصورة، فحار في الأمر.

وظن أنه ما به خداع حسي ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرستها من جديد فلم يجد بها أي تبدل، لكنه لم يشك في أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديداً. نعم. إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها، وهي تنطبق في معالم الوجه بجلاء تام آثار الرعب في قلبه.

وارتمى على مقعد وبدأ يفكر. وفجأة تذكر عبارة قالها وهو في استوديو بازيل هولو ورد يوم فرغ الرسام من الصورة، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس.

لقد صارع صديقيه يومها بأنه يتمنى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين، لو أن جماله الناصر يظل ناضراً ويتحمل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته، لو أن آثار الهم والشقاء تنتقل من محياه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزقها تمزيقاً، حتى يبقى لمحياه غدارة النرجس في مطلع الربيع. فهل تحققت له هذه الأمنية؟ هذا محال لأن مثل هذه الأمانى محال أن تتحقق. بل إن مجرد التفكير في هذه الأمانى بدا له جرم رهيب. ومع ذلك، فهذا هي ذي الصورة أمامه تحمل معاني القسوة بعد أن كانت آية في الصفاء ولكن كيف كان هجره لسييل قفين

قسوة منه عليها. إنها خيبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب. لقد كان يحب فيها الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح. إلا أن الندم قد اعتصر قلبه حين تذكرها وهي جاثية عند قدميه تذرف العبرات، وتذكر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدي عطفه. فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاق من العذاب. لقد مرت به الساعات الثلاث التي استغرقتها الرواية كأنها ثلاثة قرون، وشقى أثنائها شقاء لا حدود له. وإن حياته لأغلى من حياتها، فإذا كان قد أشقاها دهرًا فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات، وهذا عدل. ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام. فالعواطف قوام حياتهن، والعواطف قوام تفكيرهن ولقد قال له اللورد هنري إن النساء يعشقن الرجال ليتاح لهن خلق المواقف المؤثرة، واللورد هنري عليم بأسرار النساء. ثم ما كل هذا التفكير في سبيل قين؟ ألم ينتهي كل شئ بينه وبينها؟

نعم، ولكن هناك صورة. فما العمل في هذه الصورة التي تعلن مكنونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ؟ لقد علمته الصورة أن يتعشق بجمال تكوينه، أفترأها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه؟ وهل من الخير له أن يتتبع التغير الجاري فيها في مستقبل الأيام.

ما هذا إلا هوس انتابه فهو محطم الأعصاب تخدعه حواسه. ما هذا إلا أثر الليلة السالفة العصبية التي انقضت وتركت وراءها أشباحها. لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه. قد كادت الشكوك أن تذهب بعقله.

كلا. إن الصورة لم تتغير وجنون أن يظن أنها تغيرت. نعم.
إن الصورة قد تغيرت، وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه
كدر خفيف وها هو ذا الفم الباسم قد أفسدته قسوة
واضحة. ها هو ذا الشعر الذهبي يلمع تحت شمس الصباح
الباكر. والتقت عيناه بعينيها فكاد يبكي رحمة بها ورثاء
لحالها. فلقد تغيرت معالمها فعلاً، ولسوف تتغير كل يوم
فالشعر الذهبي سوف ينطفأ مع الأيام ويتحول إلى فضة
بيضاء. والورد الأحمر في شفثيها والورد الأبيض في خديها
سوف يذبل ثم يموت. وكلما اقترب إثم من الآثام سجلته
الأيام على صفحة وجهه غضوناً عميقة وخطوطاً ملتوية
تشوه جمالها. لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة
ضميره، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ويقتلع من
نفسه جذور الخطيئة ولسوف يتجنب رؤية اللورد هنري
بعد اليوم فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التي تتسرب
إلى عقله كالشراب السحري، تلك النظريات التي سمعها في
حديقة بازيل هولو ورد حركت في نفسه لأول مرة، رغبة
مدمرة بأن يأتي بعجائب الأمور، ولسوف يرجع إلى سبيل
قَيْن ويطلب رضاها ويتزوجها ويجتهد في أن يعيد حبها إلى
قلبه. نعم إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب. لا بد
أنها شقيت أكثر مما شقى فيها لها من فتاة تاعسة. لقد كان لا
يفكر إلا في نفسه فيقسو في حكمه عليها، وهذه منه أنانية
لا تغتفر وهو سيكفر عنها حتماً ولا شك أن سلطانها عليه
سيعود، وأنهما سيعيشان في سعادة مثل سعادة الملائكة
الأطهار.

ونفض من مقعده وأسدل على الصورة ستاراً كبيراً
أخضر، وفيما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت في
جسده رعشة. فقال محدثاً نفسه "يا للشناعة" ثم مشى إلى
النافذة وفتحها. وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش
وملاً رئيته بنسيم الصباح فطرد نسيم الصباح عنه هواجسه
وبقيت في خياله صورة واحدة هي صورة سييل. وعأوده
قليل من حنانه القديم إليها، وسمع الأطيأر تغرد في الحديقة
المبللة بالندى فخيّل إليه أن الأطيأر تقص على الأزهار
قصتها.

الفصل الثامن



وصحبا من نومه بعد الظهر بوقت طويل، وقد دخل عليه خادمه الخاص فكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى أكان قد استيقظ أم لا، وعجب من أمر سيده الشاب الذي لم يعتد أن يأوى إلى فراشه في مطلع الفجر. وأخيراً دق دوريان جراي الجرس فدخل فكتور يحمل الشاي وبعض الخطابات على صينية سيفر قديمة، وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائر الخضر ذات الأطراف اللامعة الزرقاء. وقال فكتور مبتسماً:

- أرجو أن يكون سيدي قد نام هذا الصباح نوماً هنيئاً.

فسأله دوريان جراي وهو نصف نائم:

- كم الساعة الآن يا فكتور؟

أجابه الخادم بلكنة فرنسية:

- الواحدة والربع يا سيدي.

عرف أنه نام طويلاً فجلس في فراشه، وبعد أن شرب قليلاً من الشاي انصرف إلى خطابه يقلبها فوجد بينها خطاباً من اللورد هنري جاء به رسول فتردد لحظة ثم وضعه جانباً. وفتح الخطابات الأخرى في ضيق واضح، فوجدها كالعادة تحتوي على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة، وبرامج الجمعيات الخيرية، وبرامج الحفلات الموسيقية وما شبه ذلك من رقاع تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم. وكان بين بريده فاتورة ضخمة

بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم
يجرؤ بعد على إرسالها إلى أوصيائه، لأنهم من أصحاب
الآراء البالية الذين لا يفهمون أن الزم الأشياء لنا هي
الأشياء التي لا لزوم لها، كما كان بينه وبين بعض خطابات
من مُرابي جرمين ستريت صيغت في لباقة شديدة وأدب
جم يعرضون فيها خدماتهم العاجلة مقابل فائدة معقولة.

وبعد عشر دقائق كان يرتدي الروب دي شامبر الصوفي
المطرز بالحرير، ودخل الحمام المرصوف بالفسيفساء. وأنعشه
الماء البارد فأحس كأن تباريح الأمس لم تكن. وبين وقت
وآخر جاءه هاتف بأنه كان بطل مأساة غريبة ولكنه أشبه
ذكرى حلم بعيد. وحين فرغ من ارتداء ثيابه دخل المكتبة
وهناك وجد فطوره الخفيف معداً له على مائدة مستديرة
بالقرب من النافذة فجلس يتناوله. وأحس بجمال الصباح،
وبدا له أن الهواء الدافئ يحمل بروائح الطيوب، ودخلت
من النافذة نحلة طنت حول إناء أمامه وضعت فيه أزهار
صفراء بلون الكبريت فغمرتة السعادة.

ووقعت عينه فجأة على الستار الذي حجب به الصورة
فتملكه الاضطراب. ولاحظ خادمه اضطرابه، فقال وهو
يضع أمامه طبقاً من العجة:

- أيشعر سيدي بالبرد؟

قال دوريان جراي وهو يهز رأسه:

- كلا، لا أشعر بالبرد.

وعادت إليه شكوكه الأولى فحار في أمر الصورة، ولم يدر
أنغيرت حقاً أم تغيرت في خياله وحده. لقد كان وجهه في

الصورة ينطق بأفراح الحياة، وها هو ذا الآن ينطق بشر دفين. ولكن من قال إن القماش يتغير والألوان تتبدل؟ إن هذه لسفاهة في التفكير، وهي أشبه بالأساطير التي ينسجها الخيال. نعم. إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هولو ورد يوماً من الأيام ليدخل على فؤاده السرور. ولكن كيف تكون اسطورة وهو قد رآها بعينه؟ إنه تذكر بجلاء أمارات القسوة التي أبصرها تشوه جمال الشفتين عندما تمعن في الصورة قبل مطلع الفجر، وبعد مطلع الفجر. واستبد به الخوف حتى لقد أحب أن يستبقى خادمه معه في المكتبة فلو أنه وجد نفسه وحيداً لما تردد في كشف الغطاء عن الصورة. ودخل فكتور بالقهوة والسجائر ثم هم بالانصراف فأحس دوريان جراي برغبة شديدة في أن يأمره بالبقاء، ولكنه ضبط شعوره، فلما أن خرج الخادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استدعاه فوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمقه بنظرة طويلة ثم تنهد وقال:

- اصرف كل زائر يجيئي اليوم يا فكتور.

فألحني الرجل وانسحب من الحجرة.

ثم ترك دوريان جراي المائدة، اشعل سيجارة وألقى بنفسه على اريكة فاخرة أمام الستار. وكان الستار ستارا قديماً صنع من الجلد الأسباني المذهب عليه رسوم من طراز لويس الرابع عشر فيها شئ من الإسراف، فبدأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه.

وبدأ يفكر جدياً في إزاحة الستار عن الصورة، ولكنه لم

ير فائدة يجنيها من وراء ذلك. فلو أن الصورة قد تغيرت حقيقة لكان ذلك كارثة كبيرة، ولو أنها لم تتغير لما كان هناك ما يدعو إلى القلق. ولكن للمسألة وجهاً آخر، فماذا يكون الأمر لو أن شخصاً آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جرى فيها من تغير شنيع؟ بل كيف يكون الأمر لو أن بازيل هولو ورد طلب أن يرى الصورة التي رسمها؟ ما من شك في أن بازيل هولو ورد سيفعل ذلك في يوم من الأيام. وعلى ذلك فالواجب يقضي بفحص الصورة دون تردد كيفما تكون النتيجة، فالنتيجة مهما كانت خير من الشك المضي.

ونفض وأقفل بابي الحجرة بالفتاح، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجل آثامه. ثم زاح الستار ووقف يتأمل صورته فلم يعد لديه أدنى شك في أن الصورة قد تغيرت. كان موقفاً رهيباً حقاً انطبع في ذاكرته فلم ينسه زمناً طويلاً. فقد بدأ يفحص الصورة أولاً كما يفحص عالم أثراً من الآثار كأن الأمر لا يخصه، فعجب لنفسه اشد العجب. لقد كان التغير مستحيلاً في نظره ولكن لا جدال في أنه موجود فعلاً. وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لانعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التي تتألف منها الألوان والأشكال على اللوحة، وبذلك تسجل دقائق الذرات ما يدور بالنفس وتحقق لنفس أحلامها. فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشفق دوريان جراي أن يفكر فيه. وارتعدت لذلك فرائصه وتملكه فزع شديد وعاد إلى

الأريكة واستلقى عليها وعينه لا تتحولان عن الصورة. ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد، ألا وهو أن الصورة التي رسمها بازيل هولواورد له ستكون نبراساً يهتدي به في ظلام الحياة. وها هي ذي قد علمته أن سلوكه مع سيبييل ففين كان سلوكاً قاسياً وشائناً. ولعل في إمكانه إصلاح ما أفسده فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرد من أنانيته ويتحول غرامه الزائف وقت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة. نعم. سوف يهتدي بالصورة إلى الطريق المستقيم، فهي ضميره الحي وهي مقياس الخير والشر وهي تذكرة له من عند الله. إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان. أما هذه الصورة فهي الشاهد القائم على دنس الخطاة، وهي الرمز الأبدي للدمار الذي ينزله الإنسان بروحه كلما انحرف عن نهج الصالحين. وأين يجد دوريان عذراً بعد هذا النذير؟

ودقت الساعة الثالثة، ثم الرابعة والنصف ولكن دوريان جرائي ظل ثابتاً في مكانه من الأريكة. وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم يهتد إلى شيء. وأخيراً قصد إلى المائدة وكتب لسيبييل ففين خطاباً طويلاً ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجعة ويسألها فيه الغفران عما بدر منه ويتهم فيه نفسه بالجنون. فنحن نجد لتأنيب النفس لذة كبيرة، وحين نؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا، فالإعتراف هو الذي يغسل

خطايانا، وليس الكاهن الذي نعترف أمامه. وحين أتم دوريان الخطاب أحسّ بأن زلته قد غفرت له فعلاً. وسمع بالباب طرْقاً وجاءه صوت اللورد هنري في الخارج يقول:

- لا بد أن أراك يا دوريان فافتح لي الباب فوراً، فأنا لا أحتمل أن أراك تعتزل العالم على هذا النحو.

فلم يجب بادئ الأمر ولبث صامتاً في مكانه فلما توالى الطرق واشتد نهض مسرعاً ليفتح الباب فقد وجد أن من الخير له أن يرى اللورد هنري ويشرح له أسلوب حياته الجديدة. وأن يختصم معه إذا لزم الأمر، بل أن يخاصمه إذا اقتضت الضرورة. وغطى الصورة بالستار ثم فتح الباب فدخل اللورد هنري وهو يقول:

- لقد تأملت لما حدث أشد الألم يا دوريان، ولكني أوصيك بأن تصرف نفسك عن التفكير فيه. وقال الفتى:

- أتقصد ما فعلته بسييل فين؟ فجلس اللورد هنري على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر:

- بالطبع. إنه لشئ مؤلم إلى حد بعيد ولكنك لست مسئولاً عما جرى. هل ذهبت لرؤيتها في غرف الممثلين بعد إنتهاء الرواية؟

- نعم.
- لقد كنت واثقاً من ذلك. وهل تشاجرتما؟
- لقد عاملتها بوحشية لا توصف، ولكن نفسي الآن

قد هدأت ولست آسفاً على شئ مما حدث لأن هذا الاختبار علمني الكثير عن نفسي.

- أحيي فيك هذه الشجاعة يا دوريان، وقد كنت أخشى أن أجذك مهموماً تعنف نفسك وتمزق شعرك الذهبي الجميل هذا.

قال دوريان وهو يبتسم ويهز رأسه:

- لقد فرغت من كل ذلك، وأنا الآن أسعد ما أكون فلقد عرفت كيف يكون عذاب الضمير وأرجوك يا هاري ألا تسخر من الضمير بعد اليوم، فإن كان لا بد لك أن تسخر منه فلا تسخر منه امامي، لأنني أريد أن أحيأ حيلة صالحة، وأنا لا أحتمل أن تتلوث روحي.

- أهنتك يا دوريان على إهتدائك إلى هذا المقياس الجميل ولكن كيف ستبدأ حياتك الجديدة؟

- سأبدأها بأن أتزوج من سييل قين.

فنهض اللورد هنري ونظر إليه في حيرة بالغة وصاح:

- تتزوج من سييل قين؟ ألم تعرف بعد يا دوريان....

- نعم يا هاري، أعرف ما ستقوله لي. أعرف آرائك القاسية في الزواج، فاحتفظ بها لنفسك. ورجائي إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك الشاذة فلست أحب أن أسمع شيئاً منها بعد الآن. لقد طلبت إلى سييل منذ يومين أن تتزوجني ولن أخلف وعدي. نعم إن سييل سوف تصبح زوجتي.

- ولكن كيف تكون سييل زوجتك؟ أما وصلك خطابي. لقد كتبت لك رسالة صباح اليوم حملها إليك

خادمي الخاص.

- نعم أذكر أنني تسلمت رسالة منك، ولكني لم أقرأها بعد يا هاري، فقد خفت أن أجد فيها كلاماً يسوءني، فتمزق الحية إرباً إرباً بأقوالك الغريبة.

- إذا فأنت تجهل ما حدث؟

- ماذا تعني؟

فتقدم إليه اللورد هنري وجلس إلى جواره وأمسك بيديه وشد عليها في قوة قائلاً:

- لا تنزعج يا دوريان. كتبت لك أقول إن سيبيل قد ماتت.

فتأوه الفتى تأوه المطعون فنزع يديه من يدي اللورد هنري وقال:

- أتقول أن سيبيل ماتت؟ هذا غير صحيح، بل هذا كذب. كيف تجرؤ على هذا الافتراء؟ قال اللورد هنري مكتئباً:

- بل ما قلت أنت هو غير الحقيقة يا دوريان. لقد نشرت النبأ صحف الصباح جميعاً وقد كتبت لك لأطلب إليك ألا تقابل أحداً حتى أجيئك، فأنت تعرف أن التحقيق سيجري في الحادث، ومن المصلحة أن تظل أنت بعيداً عن كل شيء. إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبلة الأنظار في باريس. أما في لندن فالأمر يختلف. من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته الاجتماعية بفضيحة، والأنسب أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه على ألسنة الناس بعد أن يوارى من الحياة العامة. أظن أنهم لا يعرفون اسمك

في المسرح، فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج. هل رآك أحد تخرج من غرفتها؟ اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة هامة.

مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه، وأخيراً قال في صوت متقطع يشبه الهمس:
- أتقول أن هناك تحقيقاً يجري يا هاري؟ ماذا تقصد بذلك؟ أتراها - أواه ! لم أعد أحتمل يا هاري، فعجل وقص عليّ كل ما حدث.

- أنا لا أشك في أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان، ولكن يجب أن تخفي الحقيقة عن الجمهور والمعروف أنها خرجت من المسرح في صحبة أمها نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ثم احتجت بأنها نسيت في غرفتها شيئاً ما ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض الغرفة وقد فارقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التي يستعملونها في المسرح لا علم لي بها في الحقيقة ولكني أعرف أنها تحتوي إما على حامض البراسيك أو الرصاص الأبيض، والأرجح أنه الأولى لأنها ماتت فوراً.

فصاح الفتى قائلاً:

- يا للفجيعة ! يا للفجيعة !

- نعم يا دوريان إنها لمأساة أليمة ولكن يجب ألا يدخل اسمك في الحادث. إن صحيفة الاستاندارد تقول إنها في السابعة عشرة من عمرها، وقد كنت اظنها أصغر من ذلك سنّاً. لقد كانت تبدو كطفلة غريبة، ويظهر أن علمها

بأصول المثل ضئيل. اسمع يا دوريان: يجب عليك أن تحتفظ
برباطة جأشك وهدوء أعصابك. تعال لنتعشى معاً، ثم
نذهب إلى الأوبرا بعد ذلك. إني أدعوك غلى مقصورة
أختي، وستجد هناك بعض مليحات لندن.
قال دوريان جراي وكأنه يحدث نفسه:

- إذاً فقد قتلت سيبل قين، ذبحتها بيدي ذبحاً، ومع
ذلك فورود الحديقة الجميلة لا تزال جميلة، والأطيار تغرد
فيها ألحانها الطروب كما كانت من قبل تغرد وأنا الليلة
أتعشى معك، ثم أذهب إلى دار الأوبرا. ما أشبه الحياة بمأساة
عنيفة! فلو أنني قرأت كل هذا في كتاب لبللت الكتاب
بدموعي. أما وقد وقعت هذه الحوادث لي فعلاً فهذا انت
تراني عصى الدمع من فرط الذهول. وهذا أول خطاب
غرامي أكتبه بشعور صادق. أفليس عجيباً أن أكتب أول
رسائل غرامي إلى فتاة ميتة؟ ترى أيجس سكان القبور بما
يجري في عالم الأحياء؟ ويلي عليك يا سيبل! أتراها تحس
بدخيلة نفسي أو تسمع صوتي المتهدج هذا أو تعرف ما أنا
فيه من اضطراب؟

كم أحببتها يا هاري قبل تلك الليلة المشئومة، ولكن
هذا كله قد فات، وهو الآن جزء من تراث الماضي
السحيق؟ لقد ملأت أفق حياتي حتى كانت تلك الليلة
المشئومة فكسرت قلبي بفضاعة تمثيلها. ما بالي أقول تلك
الليلة المشئومة كأنها ليلة من الليالي الخوالي، وما هي إلا
ليلة الأمس؟ ولقد شرحت لي سر سقوطها بعبارات تفتت
الحجر الأصم، ولكني لم أرق لبكائها بل ظننتها امرأة تافهة

لا تحس شيئاً في الحياة، ثم حدث لي شئ جعلني أحاسب نفسي وأخاف المستقبل فعلمت أنني قد أسأت إليها وعزمت أن أعود إليها طالباً الصفح. ولكن ها هي ذي قد ماتت فماذا أفعل يا هاري ماذا أفعل؟ الرحمة يا إلهي! الرحمة من عندك يا إلهي! إني لأسير على شفا هاوية عميقة ولا أجد في الدنيا ما أستهدي به سبيل الرشاد. ولو أنها عاشت لكنت لي النجم الهادي والمرفأ الحنون. إن حياتها لم تكن ملكاً لها فمن الخسة أن تقتل نفسها وتركني هنا أضرب في الأرض بغير دليل.

فقال اللورد هنري وهو يخرج سيجارة من علبته وعلبة كبرت مذهبة:

- إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها امرأة أن تهدي رجلاً هي أن تدخل الضيق في نفسه حتى يفقد كل رغبة في مباحج الحياة. ولو أنك تزوجت من هذه الفتاة لشقيت باقي عمرك. أنا لا أشك في أنك كنت ستعاملها معاملة حسنة، ولكن هذا موضوع آخر فنحن نستطيع أن نحسن معاملة من لا نهتم لأمرهم فقد كان من المحقق أن تستكشف هي هذا بعد فترة وجيزة، وحين يتبين للمرأة أن زوجها لا يهتم لأمرها إما تهمل في مظهرها إلى حد مزر، وإما تسرف في إرتداء الثياب الفاخرة التي يدفع ثمنها زوج امرأة أخرى، كذلك لا تنس أن التفاوت الاجتماعي الهائل بين مكانتك ومكانتها كان كفيلاً بتعقيد الأمور، ولقد كنت عازماً على تجنبك هذا الخطأ مهما كلفني هذا الأمر. نعم، لا شك في أن مثل هذا الزواج كان خليقاً بالفشل.

قال الفتى وهو يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، وقد بدا عليه شحوب مخيف:

- أرجح أن هذا صحيح، ولكن الواجب كان يقضي عليّ بالوفاء بوعدى وأنا لا ألام إذا ما كانت هذه المأساة الأليمة قد منعتني من أداء الواجب. إنني لأذكر ما قلته لي ذات مرة من أن القدر يؤكد لنا كلما عزمنا على فعل شئ جميل، فالنوايا الطيبة تأتي دائماً بعد فوات الأوان، وهذا يصف حالتي أحسن وصف.

- إن النوايا الطيبة تدخل لا جدوى منه في سير القوانين العلمية، ومنشؤها الغرور لا سواه، أما نتيجتها فصفر لا أكثر ولا أقل، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذة العقيمة التي تستهوي قلوب الضعفاء وهذا كل ما لها من مسوغ. إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس من بنوك ليس لهم فيها رصيد.

فقال دوريان جراي وهو يجلس إلى جواره:

- ما السر في أنني لم أفجع لهذه المأساة إلى الحد الذي أريد؟ لست أظن أنني شخص ميت الشعور. أعتقد ذلك في يا هاري؟

أجاب اللورد هنري بصوته العذب الحنون:

- كلا، فإن تاريخك الحافل بالحماقات في الأيام القليلة الماضية لا يؤهلك لمثل هذا الوصف.

فعبس الفتى وقال:

- أنا لا أرضى بتفسيرك هذا يا هاري، ولكني مسرور لأنك لا تراني شخص ميت الشعور، فما أنا كذلك، وإنني

لواثق من هذا. ولكني برغم ذلك أعترف بأنني لم أحزن
لفقدان سيبيل كما كان ينبغي أن أحزن. فهو يبدو لي الآن
كنهاية رائعة لرواية رائعة لا أكثر، نعم لقد كانت قصتنا
مأساة لها ما لمآسي الإغريق من جمال مدمر، مأساة كنت أنا
فيها البطل الأول.

- إنها لمسألة تستحق الاهتمام. بل إنها لمسألة تستحق
كل الاهتمام، وأظن أن تفسيرها الحقيقي هو أن مآسي
الحياة الحقيقية تحل بالناس خالية من كل تصميم في فتوؤنا
وحشيتها الساذجة وتناقضها المطلق وقلة مدلولها وافتقارها
التام لكل اسلوب. فهي تؤثر فينا تأثير الأشياء المبتذلة فينا
أي إنها تسحقنا سحقاً بملها من قوة غشوم، ونحن نكره
القوة الغشوم. ولكن بين أن وآخر تقع في حياتنا مأساة لها
طابع في، فإذا كانت عناصر الجمال التي نجدها في هذه
المأساة عناصر صحيحة لا زيف فيها، تركت فينا أثراً يشبه
الأثر الذي تتركه فينا مسرحية من المسرحيات، وعندئذ
ينتابنا الإحساس بأننا ممثلون في هذه المسرحية ونعتقد أننا
من المشاهدين، أو على الأصح نشعر بأننا من الممثلين ومن
المشاهدين في وقت واحد. بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم
بدوره فيسحرنا هذا المشهد. وفي حالتك أنت بالذات كل
ما حدث هو أن الفتاة انتحرت لأنها تحبك، وهو اختبار
ممتع، أود لو أنه حدث لي، فهو كفيف بأن يجعلني من انصار
الحب بقية حياتي. إن كل من عشقني من النساء وهن
قليلات قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد ان نضب
حيهن أو حبهن لي بل قد زاد وزنهن وأصبحن مصدر

ملل دائم لي: فكلما قابلت إحداهن اختلت بي وبدأت تبادلني الذكريات. إن قوة ذاكرة المرأة لشئ مزعج، وهي إن دلت على شئ فهو أن عقولهن لا تعمل أبداً ! إن جمال الحياة في ألوانها الخاطفة، أما التفاصيل فجديرة بالنسيان، فالتفاصيل أشياء مبتذلة.

قال دوريان جراي متنهداً:

- لا بد أن أزرع الخشخاش في حديقتي تحية لذكراها.

فقال اللورد هنري:

- لا داعي لذلك فالحياة تحمل أزهار الخشخاش في يديها دائماً. ولقد تخلو منها يداها بين الحين والحين، فأنا أذكر أنني وضعت البنفسج في عروتي موسماً بأكمله حداداً على غرام لا يريد أن يموت، ولكنه مات والله الحمد نهاية الأمر، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله. اعتقد إنها قالت لي مرة إنها على استعداد لتضحى بكل ما في الدنيا من أجلي، فأجهز هذا على ما بقى في قلبي من الحب. إن عبارات الوفاء تنشر الرهبة في نفوسنا فنحن نخاف من الإخلاص الدائم خوفاً من الأبدية. ولعلك لا تصدقني إذا قلت لك إنني ألتقيت منذ أسبوع بهذه السيدة التي حدثتك عنها في مأدبة عشاء أقامتها الليدي هامبشير، وكان من نكد طالعي أن جلست بجوارها إلى المائدة، فما كان منها إلا أن نبشت الماضي ونبشت المستقبل كذلك، وأخذت تذكرني بكل ما حدث بيني وبينها، وأكدت لي أنني قد أفسدت حياتها. لقد دفنت غرامي في نعش من أوراق السوسن فاستخرجته من جديد. أجل. زعمت اني قد افسدت حياتها، فلما رأيته

تتناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذي ساورني بشأنها. أقول هذا لأنه دليل على فساد ذوقها. إن أجهل ما في الماضي أنه مضى، ولكن النساء لا يعرفن متى ينسدل الستار على كوميديا الحياة، وهن دائماً يرغبن في إطالتها بإضافة فصل سادس لها، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت، ولو أننا تركنا الأمر هن لانتهت كل كوميديا نهاية محزنة، ولاستحالت كل مأساة في النهاية إلى مهزلة. إن النساء يتكلفن في كل شئ وهذا ما يجبهن إلينا، ولكنهن خلون من كل ذوق فني. ولقد كنت أسعد حظاً مني في سوق الغرام يا دوريان. فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت لتقتل نفسها بسبي كما قتلت سيبيل قين نفسها بسبيك. فالنساء العاديات يجدن دائماً ما يعزيهن عن الغرام الضائع. ومنهن من يلتمسن العزاء في ارتداء الثياب ذات الألوان المؤثرة، وأنا أحذرك يا دوريان من كل امرأة تلبس ثياباً بنفسجية أياً كان عمرها. وإذا صادفت امرأة تخطت الثلاثين تتزين بالشرائط الوردية فاجتنبها كذلك، فمثل هؤلاء هن ماض. ومن النساء من يتعزين عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة، وتراهن يثرثن في كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرمة شهية قطفنها وحدهن من دون خلق الله. ومن النساء من يلتمسن العزاء في الدين، ولقد قالت إحداهن لي إن ألغاز الدين لها ما للغزل من سحر في نفوسهن، وأنا أصدقها، ثم إن الناس يجدون في الخطيئة مصدراً للفخر، ومنشأ الأنانية هو ضمير الإنسان. من هذا ترى أنه لا حد

لأسباب العزاء التي تجدها النساء في هذه الأيام، ومما ذكرت منها أهمها.

فسأله الفتى في فتور:

- وماذا يكون هذا يا هاري؟

- إن أول ما تفعله المرأة حين تفقد عشيقها هو أن تسلب امرأة أخرى عشيقها، وهذا كاف في المجتمع الراقى أن يرد للمرأة اعتبارها. ولكن لا بد أن سيبل قفين كانت تختلف عن سائر النساء اللاتي نعرفهن يا دوريان. إن موتها لفاجعة جميلة، وغني لسعيد بأني أعيش في عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التي نلهم بها في هذه الحياة.

- ولكنك تنسى أنني قسوت عليها قسوة مرة.

- إن النساء يستطبن القسوة، بل يستطبن القسوة التي تصل إلى حد الهمجية، لأن غرائزهن لا تزال في دور الفطرة وهذا ما يفتنني فيهن. لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيداً يبحثن عن سادة. وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن، ولست أشك في أنك قمت بهذا الواجب خير قيام، وإني وإن كنت لم أرك قط غاضباً غضباً جارفاً فإني لا أتصور منظرك الجميل حين ثرت على سيبل قفين كالبركان. ثم إنك قلت لي منذ يومين شيئاً ظننته إسرافاً منك في الأوهام ولكني أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يفسر كل ما حدث.

- ماذا تعني يا هاري؟

- قلت لي إنك تجد في سيبيل قين جميع بطلات الخيال، فهي يوماً ديدمونة ويوماً أوفيليا وأنتك تشيعها إلى مقرها الأخير في صورة جولبيت فإذا بها تعود إلى الحياة في شخص إيموجين.

قال الفتى وهو يضع وجهه بين راحتيه:

- ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن.

- نعم، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميتها الوحشية في المسرح منظراً غريباً عاصفاً من مسرحية جميلة لوبستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو نظرائهم من كتاب عصر جيمس الأول الذين كلفوا بالعنف والإغراب. فسيبيل لم تنتم يوماً إلى عالم الأحياء ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت. فقد كنت تراها في وادي الأحلام فتخالها طيفاً يخطر بين مسرحيات شكسبير ويشيع فيها من سحره سحراً وتسمعها فتحسبها نايًا شجياً ييثك ألحان شكسبير فتزداد به الألحان حلاوة، محين أرادت ان تحيا في الحقيقة أفسدت الحياة وأفسدتها الحياة فكانت بذلك نهايتها. فابك شباب أوفيليا إذا أحببت، ولطخ خديك بالتراب حزناً على كورديليا الأمانة، والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الطاهرة قد أسلمت روحها، ولكن لا ترق دمعة واحدة على سيبيل قين لأنها طيف من نسج الأحلام أما هن فمن بنات الحقيقة.

ثم أعقب هذا صمت طويل وانتشر الظلام في الحجرة بمجئ المساء، ومن الباب دخلت أشباح الحديقة في هدوء

فلم يسمع أحد لأقدامها وقعاً. أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لوناً. وبعد قليل رفع دوريان جراي رأسه وقد عاد إليه هدوءه. قال:

- لقد شرحت لي دخيلة نفسي يا هاري، ولقد كنت أحس بكل شئ ذكرته لي ولكني لم أجد الشجاعة الكافية لأصارع به نفسي. فما أصدق معرفتك بي ! ولكن دعنا من الماضي ولنسدل عليه ستاراً وكل ما أقوله فيه أنه كان اختياراً رائعاً، أظن أن الحياة تخبئ لي الكثير من هذا القبيل؟

- نعم يا دوريان، فلحياة تخبئ لك كل شئ، فليس هناك ما يستعصي على وجهك الجميل هذا.
- ولكن ماذا يكون الحال يا هاري إذا ما ضاع شبابي وشحب لوني وتجدد وجهي؟

فقال اللورد هنري وهو يتأهب للإنصراف:

- عندما يحدث ذلك يا عزيزي دوريان لن يأتيك نصر إلا بكفاحك، أما الآن فأسباب المجد تساق إليك سوقاً. نعم، يا دوريان، لا بد لك من الاحتفاظ بجمالك، فنحن نعيش في جيل أسرف في الاطلاع حتى فقد الحكمة، وأسرف في التفكير حتى أضاع الجمال، ولن نجد ما يغنيننا عنك فابق لنا كما أنت الآن. ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء ملابسك وتأتي معي إلى النادي، فقد تأخرنا.

- سألحق بك في الأوبرا يا هاري لأن التعب قد قتل شهيتي للأكل فما رقم مقصورة أختك.

- سبعة وعشرون، وستجد اسمها على باب المقصورة
فلن يطول بحثك، ولكن يرؤسني أنك ترفض دعوتي إلى
العشاء.

قال دوريان جراي في فتور:

- اعفني هذه المرة، فلن أستطيع أن آكل شيئاً. ولكن
يجب أن أقول لك قبل أن تنصرف أنني مدين لك بالكثير!
فكلماتك قد طيبت نفسي، ولن أجد بين الناس صديقاً
مثلك يخفف عني الأحمال فما من أحد نفذ إلى سريري
نفاذك أنت إليها.

فأجاب اللورد هنري وهو يضافحه:

- ما نحن إلا في بداية الطريق يا دوريان، وأرجو أن
تقوي صداقتنا على الأيام. أمل أن أراك قبل منتصف
الساعة التاسعة، ولا تنس أن باتي يغني الليلة في الأوبر،
فإلى اللقاء.

وبعد أن أغلق الباب وراءه دق دوريان جراي الجرس
يطلب خادمه فدخل عليه فكتور يحمل المصابيح وأسدل
على النوافذ ستائرهما، وبدا لدوريان جراي أنه يتلکأ في
عمله فنقد صبره. ولكن فكتور خرج أخيراً فأسرع إلى
الصورة وأزاح عنها الغطاء ليستطلع مدى التغير الذي
حل بها في الفترة الأخيرة فوجدها كما كانت قبل أن يزوره
اللورد هنري، فعرف أنها علمت بموت سيبل فبين قبل
أن يعلم هو، وعرف أنها تستجيب لكل ما يحدث في الحياة
وقت حدوثه. فإذا كان الأمر كذلك فأمارات القسوة التي
طالها في موضع الفم لا بد ظهرت لحظة أن قتلت سيبل

قنين نفسها. ثم خطر له أن الصورة ما هي إلا مرآة روحه، فهي لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه من النتائج وإنما تسجل كل تغير ينتاب روحه ولم يجد جواباً شافياً على مزاعمه المضطربة ولكنه تمنى أن يرى بعينه التغير يجري في الصورة يوماً من الأيام، وفيما هو يفكر في هذا الأمر اقشعر بدنه من هول الفكرة.

يا لسيبيل من فتاة تعسة ويا له من غرام فاجع ! كم ذاقت على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنبها. تراها أتقنت آخر منظر في مأساة حياتها؟ تراها لعنته وهي تموت؟ ولكن كيف تلعنه وهي قد ماتت في هواه؟ كلا. لقد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه. فلينس إذا ما أنزلت به من عذاب في ليلة الفراق، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب، ويا لها من عذراء تبهر الناظرين ! وترقرق الدموع في عينيه حين استحضر في خياله وجهها البرئ وحياءها الخلاب وطباعها العجيبة، فجففها لفوره وعاد يتطلع إلى الصورة من جديد.

وأحس بأنه يقف في مفترق الطرق ليختار منها ما يشاء. ولكن كيف يختار من الطرق ما يشاء وقد اختارت له الحياة الطريق الذي يسلكه؟ أجل، إن الحياة قد فصلت له في أمره نيابة عنه لأن به حباً للحياة لا يجد مجدود. فالشباب الدائم النضرة ملك يديه والعواطف الجارفات كالسيول، واللذات الخفية واللذات التي لم تعرفها نفس أبداً، والأفراح والخطايا

الجنونة، كل هذه من نصيبه، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء.

وعندما تصور المسخ الذي سيصيب وجهه الجميل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى. لقد أراد ذات مرة أن يقلد الإله الذي عشق نفسه في أسطورة النرجس فقبل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه في اللوحة بما تحملان من قسوة، ولكم جلس يوماً بعد يوم قبالة الصورة يتغزل بجمالها. أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجري في دخيلة نفسه؟ أتراها تزداد كل يوم بشاعة حتى تصبح في النهاية مسخاً رجيماً يجب إخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم في ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسبائك النضار؟ واهاً ثم واهاً. وأراد أن يسجد ضارعاً للسماء أن تضع حداً لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة. وبعد، ألم تتغير الصورة إجابة لصلاته الأولى؟! فليس مستحيلاً إذا أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية. ولكنه لم يقو على ذلك لأن الإغراء كان عظيماً. فهل بين الأحياء الذين ذاقوا طعم الحياة من يرفض أن يشتري الشباب الدائم مهما غلا ثمنه؟ ثم من يديره أن الصورة رهينة برغباته؟ من يديره أنها تغيرت لأن صلاته قد أجيبت؟ أليس جائزاً أن هناك تفسيراً علمياً لكل ما يحدث؟ أليس جائزاً أن الفكر الذي يؤثر في الكائنات الحية يستطيع كذلك أن يؤثر في الكائنات الجامدة؟ ثم أليس جائزاً كذلك أن أشياء العالم الخارجي تستجيب لخواطرننا وأهوائنا دون فكر أو وعي فتجذب ذرة

فيها ذرة بقانون الحب المخبوء في كل شئ. ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئاً، وهو لن يثير بعد اليوم بصلواته القوى الرهيبة في هذا الوجود. وكفاه ما كان. فتغير الصورة إذا كان مقدراً لها أن تتغير. فما له في ذلك حيلة، ولا داعي للتفكير في العلل والنتائج.

لسوف يجد لذة في مشاهدة التطور الذي ينزل بها، ولسوف يقف على مكنونات عقله التي لا يعرف عنها شيئاً يوماً بعد يوم. لسوف تكون الصورة مرآته السحرية التي تعكس له خفايا نفسه كما عكست له ثانياً جسمه. وحين يحل عليها الشتاء فيذويها يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوي، وحين يغيض الدم في وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفأتها السنون يبقى له سحر الصبا. أجل. لن تذوي زهرة واحدة في بستانه الينع، ولن يهمد فيه عرق ينبض الآن بالحياة. ولسوف تبقى له فتوته أبداً وخفته أبداً ومرحه أبداً كأنه إله من آلهة الإغريق. فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو شامت أو تهشمت؟ إنه في حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن، وهذا كل ما يصبو إليه.

وغطى الصورة بالستار مرة أخرى وابتسم في رضا، ثم دخل حجرة النوم حيث كان خادمه ينتظره، وبعد ساعة كان دوريان جراي في الأوبرا وكان اللورد هنري يتحدث إليه بصوت مهموس.

الفصل التاسع



في الصباح التالي وبينما كان دوريان جراي يتناول
فطوره دخل عليه بازيل هولورود مكتئباً وقال: إنني محظوظ
لرؤيتك يا دوريان فقد سألت عليك بالأمس ولم أصدق
أنك كنت بدار الأوبرا، وكم تمنيت لو أنك بعثت لي
برقية بعد علمك بالحادث مباشرة لأنني علمت بالخبر
بالصدفة من الطبعة الأخيرة من صحيفة جلوب فأتيته
على التو لكنني للأسف لم أجذك، وخفت أن تتضاعف
مأساتك فزاد ألمي...، كان من المفروض أن نخبرنا بالمكان
الذي قصده لأنني كنت قلقاً عليك للغاية فقد أحزنني
كثيراً موت سيبل وأثر ذلك عليك.

ولكن أخبرني: أين كنت الليلة الماضية؟ هل ذهبت
لمواساة أم الفتاة؟

ظننت ذلك وكدت أن أتبعك إلى بيتها في شارع
بوستون الذي عرفته من الصحيفة ولكنني خشيت أن
يسبب فضولي مشاكل لأنني لا أعرف كيف يمكن تقديم
العزاء إلى من فقدت وحيدتها، فمن المؤكد أن قلبها سيكون
ممزقاً.. ليتك تخبرني.. تراها كيف استقبلت السيدة الخبر يا
دوريان؟!

قال الفتى بضجر وهو يرفع كأس نبيذ أصفر مصنوع
من زجاج البندقية المذهب:

- كيف أعلم بذلك وقد كنت في الأوبرا؟... ليتك كنت
معنا فلقد تعرفت في تلك الليلة على الليدي جوندولين
أخت هاري وظللنا بمقصورتها، كانت سيدة فاتنة بحق بينما
ظل باتي يغني بعذوبة فأطربنا جميعاً، لا نتحدث يابالي عن
الموضوعات الحزنة فالمؤكد أن مالم نتحدث عنه لم يقع بعدا،
لأن الكلام يا صديقي هو الذي يكسب الأشياء صفة
الحقيقة !!، وبالمناسبة فإن لمسز فين ابناً لا يعمل بالتمثيل
ولكنه يعمل بحارا، وهو فتى لطيف،

والآن حدثني عن نفسك وما تخطط له هذه الأيام.

تحدث هولو ورد ببطء وبدا صوته متألماً فقال:

- تقول إنك ذهبت إلى الأوبرا...، أذهبت إلى هناك حين
كانت سييل فين ملقاة في بيتها الموحش؟!، أتتحدث عن
جمال غيرها من النساء وبروعة غناء باتي قبل أن توارى
حببتك الثرى؟

فقام دوريان من مكانه وصاح قائلاً:

- كفى يا بازيل هولو ورد، لاتقل هذا الكلام أمامي مرة
أخرى، انس مافات لأنه ليس لأحد سلطان على الماضي
- أتسمي الأمس بالماضي؟

- وما دخل الزمن في ذلك؟ فالسذج هم من يحتاجون
إلى وقت طويل ليتعافوا من حب ما، والشخص القوي
الإرادة هو من تحكم في أحزانه وأفراحه!، وأنا لا أريد
لعواظي أن تتحكم فيّ لأنني أريدها لأستمتع بها وأسيطر

عليها في آن!

- هذه تبدو قسوة منك يا دوريان هل بدل شيء ما من طباعك؟، لا أعتقد فأنت مازلت ذلك الفتى الخجل بريء الوجه الذي كان يختبئ في المرسم يوماً بعد آخر لأرسمه، إنك فيما مضى كنت طيب القلب تتصرف على سجيته وكنت من أنقى من عرفتهم من الناس، أما الآن فأنت تتحدث مثل شخص مات إحساسه، وربما يعود ذلك إلى تأثير هاري عليك

أحمر وجه الفتى وهو يخطو باتجاه النافذة متأملاً حشائش الحديقة وخضرتها الزاهية تحت ضوء الشمس ثم قال:
- إن ديني لهاري كبير وهو يفوق ديني لك يا بازيل لأنك لم تعلمني إلا الغرور

- إذا كان ما تدعيه صحيحاً فقد حل بي غضب من السماء أو سيحل عما قريب.

التفت إليه الفتى وقال:

- لا أفهم ما تقول يا بازيل، مالذي تريده مني؟

فأجابه الفنان بصوت حزين:

- أريد أن أراك دوريان جراي الذي عرفته واعتدت رسمه.

تحرك الفتى ووضع يده على كتفه قائلاً:

- جئت متأخراً يا بازيل فحين سمعت أمس أن سيبييل فين

قد انتحرت....

فنظر إليه هولو ورد وصاح بفزع:

- انتحرت...، يا الهي! هل تأكدت من ذلك؟

- نعم انتحرت، هل تعتقد بغير ذلك يا بازيل؟ أو أن

موتها مثلاً كان نتيجة لحادثة عادية؟
وضع الرسام وجهه بين كفيه وقال مرتجفاً:
يا للفضاعة؟
قال دوريان جري:

- ليس في الأمر فضاعة لأن مصرعها كان مأساة مروعة،
وأنت تلاحظ أن الممثلين أناس عاديون كما أن حياتهم
تخلو من الخيال على الرغم من أنهم قد يتجرون به
ويبيعون معه الأحلام فتجد منهم الأزواج الأوفياء
بالفضائل التي تميز الطبقة المتوسطة، أما سيبييل فقد كانت
مختلفة تماماً، كانت تلعب دور البطلة في مآسي المسرح مثلما
هو الحال في مآسي الحياة، وفي الليلة الأخيرة التي مثلت فيها
فشلت في التمثيل لأنها لمست حقيقة الحب فكشفت لها
حقيقة الحب عن زيف الفن، ولما أدركت زيف الفن ماتت،
لكنها لم تمت مثلما تموت الأخريات، لقد ماتت ميتة
جولييت فدخلت حرم الفن من جديد بعد أن كانت قد
خرجت منه، لعلها الآن في عداد الشهداء فقد كان لموتها ما
للاستشهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل من ورائها،
لقد حزنت لوفاتها ولو أنك كنت قد زرتني بالأمس كنت
رأيتني أبكي، وهاري ذاته الذي أبلغني الخبر لم يعرف مبلغ
شقائي وقتها، لقد حزنت كثيراً ثم ذهب الحزن عني ولا
أستطيع استرجاعه لأنني لم أعود على تكرار عواطفی مثلما
يفعل ذوو العواطف الزائفة ؟ إنك تذكرني بقصة رواها
لي وهي لرجل طيب أضاع من عمره عشرين عاماً في
إصلاح قانون ظالم، ولما نجح في ذلك ورفع الظلم أصابته

خيبة أمل شديدة، فقد وجد الرجل نفسه عاطلاً تماماً ولا يجد ما يفعله حتى كاد الملل أن يقتله، فانقلب من محب إلى ناقم على البشر، إنك لو أردت أن تواسيني يا بازيل علمني كيف أنسى ما حدث ولا تذكرني به، خير أن تعلمني كيف استقبل المحنة استقبال الفنان وليس استقبال الإنسان العادي، جوتييه مثلاً قال بأن الفن يواسي النفس، وهي عبارة قرأتها صدفة في كتابه أيام كنت أزورك في المرسم، وأنا لست كذلك الشاب الذي ذكرته لي حين كنا معاً في مارلو، فقد قال إن ملمس الحرير والنواعم ينسيه كل مافي العالم من أحزان، بينما أنا أتعلق بالأشياء الجميلة ولا أقنع بقليلها، فأنا أحب التماثيل البرونزية والعاجية، كما أحب القماش المزخرف القديم وأدوات الترفيه والتسلية، وأتمنى أن يكون كل ما تقع عليه حواسي جميلاً وفيه أثر للفن. مثل هذه الأشياء تجعل الحياة مبهجة لكن قيمتها الأولى عندي هي أن تلهمني بالخواطر الفنية أو تعرض عليّ ما فيها من فن على الأقل، فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بسمو الذات وبأن يقف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هاري.

أعرف أن حديثي يثير دهشتك لأنك لم تتعوده مني، أنك عرفتني وقت أن كنت تلميذاً لا خبرة لي بالحياة - أما الآن فإنني صرت رجلاً ناضجاً وأفكاري اليوم غير أفكاري بالأمس، وكذا عواطفني، وإن كنت قد تغيرت فإن ذلك يحتم عليك أن تظل كما كنت دائماً يا صديقي الوفي ولا تخفف من حبك لي. أنا أحب هاري بالفعل لكنني أعتقد أنك

أطيب نفساً... نعم أنت أطيب منه نفساً على الرغم من أن شخصيته أقوى من شخصيتك وأقل خوفاً من الحياة. تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين في الماضي لذا أرجو ألا تقاطعني أو تجادلني، وإذا كنت ترغب في أن أعود كما كنت فأنت مخطيء وعليك أن تقبلني على علاتي، هذا ما أراه ولس لدي ما أضيفه.

تأثر الرسام بذلك الكلام لأنه كان يجب الفتى ويعلم أن شخصيته قد ألهمته أسلوباً جديداً في الفن، ولذلك لم يحتمل أن يسترسل في لومه، وقد كان يعرف فيه النبل وكرم النفس، فظن أن ملله في الأيام الأخيرة ماهو إلا حالة عارضة.

فقال أخيراً وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- لن أحدثك في هذا الموضوع المؤلم ثانية يا دوريان، وكل رجائي أن يكون الحادث بعيداً عنك، فالتحقيق سيبدأ عصر اليوم فهل استدعتك النيابة؟
هز دوريان رأسه نافياً وبدا مستاءً من ذكر التحقيق لأنه كان يرى أن مثل تلك الأشياء تصلح للرعاع ولا تناسب السادة فقال:

- إنهم يجهلون اسمي

- ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك

- لا. إنها كانت تعرف اسمي الأول فقط، وأنا على ثقة

من أنها لم تبج به لمخلوق، وقد ذكرت ذات مرة أنهم كلما سألوها عني أجابتهم بأن اسمي هو الأمير الساحر وكان ذلك شيئاً لطيفاً منها، أرجوك يا بازيل أن ترسم لي صورة

لسبيل لكي يبقى لي شيء يذكرني بها غير تلك القبلات
القليلة التي تبادلناها والكلمات الحزينة التي سمعتها منها
- مادام ذلك يرضيك يا دوريان سأحاول رسمها، لكنني
أتمنى أن تأتي إليّ لأرسمك من جديد لأن الإلهام انقطع عني
منذ غبت عني.

انزعج الفتى قائلاً:

- هذا مستحيل يا بازيل، لن أستطيع أن أقف أمامك
من جديد لترسمني.

فنظر إليه الرسام ملياً ثم قال:

- ما هذا الهراء يا عزيزي ؟ هل أفهم من ذلك أن
الصورة التي رسمتها لك لم تعجبك ؟، ثلماذا تحجبها بهذا
الستار ؟ دعني أراها فهي من أجمل ما رسمت في حياتي،
أرجوك انزع عنها الستار يا دوريان، لقد تجاوز خادمك
حدوده لما حجب الصورة عن الأنظار إلى درجة أن منظر
الحجرة بدا لي مغايراً لحظة أن دخلتها.

- لا صلة لخادمي بهذا الموضوع يا بازيل، هل تظن مثلاً
أنني أسمح له بأن يفرض ذوقه على حجرتي ؟، إن كل ما
أسمح به لفيكتور هنا هو ترتيب الأزهار من وقت لآخر،
وأنا من غطى الصورة لأنني خشيت تلفها من الضوء
الضوء القوي الساقط عليها!

- من أين لك بذه النظريات يا عزيزي ؟ إن هذا الموضوع
هو أنسب مكان لها، دعني أراها.

- سار بازل هولوا ورد إلى ركن الحجرة قاصداً الصورة
فتغير وجه دوريان جراي وصاح منزعجاً وهو يسرع معترضاً

طريقه قائلاً:

- أنا أمنعك من رؤية هذه الصورة يا بازيل.

قال هولو ورد ضاحكاً:

- كيف تمنعني من رؤية عمل من أعمالي، مؤكد أنك تمزح؟!

- لا بل أنا جاد فيما أقول، وإذا حاولت رؤيتها فسيكون ذلك فراق ما بيننا فلا أكلمك ما حييت، ولا تطلب مني تعليلاً لأسباب ذلك لأنك لن تحصل مني على إجابة، لكن تذكر أنك لو أزحت الستار فإن صلتنا ببعض سوف تنتهي.

نزلت تلك الكلمات على بازل هولو ورد كالصاعقة ونظر إلى دوريان جراي باستغراب فرآه وقد هرب الدم من وجهه غضباً، كما رأى قبضتيه معقودتين، ورأى الشرر يطل من عينيه، رآه وهو ينتفض غضباً فقال:

- مالك يا دوريان ؟

- اسكت

فتركه الرسام وسار باتجاه النافذة، وقال ببرود:

- ماذا حدث لك يا دوريان ؟ مادمت لا توافق على رؤيتي للصورة فلن أفعل بطبيعة الحال، ولكنني أتعجب من كونك تحول بيني وبين عملي على هذا النحو خصوصاً أنني لا أنوي عرضها في باريس الخريف القادم، وأعتقد أنها سوف تحتاج إلى طبقة جديدة من الورنيش قبل عرضها، فإذا كنت سأراها اليوم، فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غداً؟!

فصاح دوريان جراي ثائراً:

- أتريد أن تعرضها....؟، أتريد أن تعرضها؟

إذن فسوف يعرف الناس سره ويعجبون لهذا اللغز العظيم، لكن هذا مستحيل لأن دوريان جراي لن يسمح بذلك، لا بد من عمل شيء أياً ما كان ليمنع دوريان جراي حدوث ذلك.

قال الرسام:

نعم أريد أن أعرضها وأعتقد أنك لاتمانع، إن جورج بتي سوف يجمع أجمل رسوماتي وسيرسلها إلى معرض خاص في شارع سيز بباريس سيفتح أبوابه في الأسبوع الأول من أكتوبر، والصورة لن تغيب عنك أكثر من شهر، ولن تخسر من وراء ذلك أي شيء لأنك ستغادر لندن خلال هذا الشهر، كما أنك بحجبك للصورة بهذا الستار فسوف يهون عليك ذلك أمر وجودها من عدمه!

رفع دوريان يده إلى جبهته ليمسح العرق وشعر بخطر هائل يحيط به، فقال:

- انك قلت لي منذ شهر أنك لن تعرض الصورة على الإطلاق، فلماذا غيرت قرارك؟، إنني أرى في تقلبات أهوائكم مالا يميزكم عن غيركم، وكل ما هنالك أن نزواتكم لا معنى لها، أنسيت تأكيدك بأن أي شيء مهما كان في الوجود لن يجبرك على عرضها؟، ألم تقل لهاري أيضاً هذا الكلام؟

ثم توقف عن الحديث فجأة ولع بريق في عينيه وتذكر أن اللورد هنري قال ذات مرة بين الجد والدعابة " إذا

أردت أن تقضي ربع ساعة من أعجب ما يمر بك من أحداث فاجعل بازيل يخبرك بالأسباب التي تمنع عرض الصورة، لقد أدلى لي بتلك الأسباب فعرفت عنه شيئاً لم اكن أعرفه فيه " نعم من الجائز أن يكون لبازيل أيضاً سر يريد أن يحتفظ به، فلنحاول أن نتزع منه ذلك السر.

وسار إليه الفتى فنظر إليه بثبات قائلاً:

- اسمع يا بازيل، إن لكل منا سراً يود أن يحتفظ به لنفسه، فإذا بحت لي بسرّك بحت لك بسري، لماذا كنت ترفض عرض الصورة في بادئ الأمر؟

فارتعش الرسام على الرغم من محاولته الثبات وأجاب:
- لو أنني ذكرت لك السبب فلربما ينتقص ذلك من حبك لي، وربما سخرت مني بدون شك، وأنا كما تعلم حريص على حبك واحترامك، وأرضى بما يرضيك، فإذا كان يرضيك ألا أرى الصورة مطلقاً فأنا موافق وسيكفيني في تلك الحالة أن أراك أمامي فلا تكون لي بها حاجة، وإذا كان يرضيك أن أحجب أجمل صورة رسمتها عن أنظار العالم فهذا أيضاً يرضيني لأن صداقتك أعز عندي من كل شهرة أو صيت.

فقال دوريان بلّحاح:

- بل عليك أن تذكر لي السبب فمن حقي أن أعرفه.
وزال عن دوريان جراي إحساسه بالفرع وحل محله الفضول، وعزم على انتزاع ذلك السر من بازيل هولو ورد مهما كلفه الأمر، وبدا على الرسام القلق وهو يقول:
- فلنجلس يا دوريان، فلنجلس...، ولكن قبل أن أعترف

لك أجبني عن هذا السؤال:

- هل لاحظت أن في الصورة شيئاً غريباً، شيئاً لم تره فيها في البداية ثم ظهر فيها فجأة؟
فنظر إليه الفتى مذهولاً وارتعشت يداه وهي تقبض على ذراعي مقعده وصاح:

- وكيف عرفت يا بازيل؟

- أرى أنك لاحظت في الصورة شيئاً غريباً كما قلت فلا تقاطعني يادوريان وانتظر حتى تسمع كل ما عندي، فلقد كان لشخصيتك أثر كبير على نفسي منذ أن تقابلنا فامتلكت عقلي وروحي وسائر ملكاتي، لقد صرت أرى فيك صورة الملهم أو المثل الأعلى الذي يأتينا نحن معشر الفنانين من وادي الذكريات، ولقد عشقت هذا المثل الأعلى في شخصك إلى الدرجة التي صرت عندها أغار من كل شخص تتحدث إليه وأشعر أنه استأثر باهتمامك، أردت أن استحوذ عليك وأن تكون لي وحدي، وكانت سعادتي تغمرني بمجيئك وتذهب عني بغيابك... لقد كنت حاضراً في فني دائماً حتى وشخصك غائب عني، لم أستطع أن ابوح لك بهذا السر لأنك لم تكن لتستوعب معناه، وكل ما فهمت منه أنني رأيت الكمال رؤى العين، وأحسست ببهجة الحياة بعد أن كنت شقيماً، قد أكون قد أسرفت في بهجتي بعد أن لازمني إحساس بخطر محقق من فقدانك، وكنت أخاف من إبقائك وهذا من خصائص الحب المدمر، وكنت كلما مرت الأيام زاد اندماجي فيك، لقد رسمتك في هيئة " أدونيس " يحمل ريحاً مصقولاً وهو

يرتدي لباس الصيادين، كما رسمتك في زورق " هادريان " تتوج رأسك أزهار اللوتس الكثيفة وبصرك يمتد وراء مياه النيل الخضراء الهادرة، كما رسمتك في صورة إله النرجس وأنت تتأمل وجهك الجميل في صفحة غدير ماء صاف ساكن بين أدغال اليونان، ولقد لزمت حدود الفن الصحيح في ذلك فكان عملي مثالياً بعيداً عن الحياة ولا دخل للوعي فيه، ثم جاءت نقطة تحول إذ عزمت ذات يوم على أن أرسم منك صورة عظيمة، صورة كما أنت في الواقع وبملابس العصر الذي تعيشه ولا أدري ما لذني دفعني إلى ذلك، هل هو جمال الأسلوب الواقعي؟، أم جمالك أنت يادوريان؟، وقد ظهر لي شخصك مجرداً من أساطير الفن، لكنني شعرت وأنا أرسمك بأن كل خط أمله وكل طبقة لون أضعتها على اللوحة تفضح سري، وأشفقت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة في عملي، أحسست يا دوريان أنني بحت للناس بأكثر مما كان ينبغي لي أن أبوح به، وأنني وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما كان ينبغي أن أضع...، هذا ما جعلني أقرر على عدم عرض الصورة، لقد أغضبتك كلماتي قليلاً، ولم تفهم وقتها معنى الصورة عندي، أما هاري فقد صارحته بالحقيقة فضحك مني ساخراً لكنني لم أهتم لسخريته لأنني لا أفهم أسلوب تفكيره، فلما تمت الصورة ورأيتها وحدي تبينت صدق إحساسي، لكن الصورة انتقلت من المرسوم إلى بيتك بعد عدة أيام فزال سحرها من نفسي، وخلت أنني تركت نفسي فريسة للأوهام حين رأيت في الصورة شيئاً غير عادي ولم أعد أرى

فيها أكثر من صورة لشاب جميل بيد رسام ماهر، بل إنني أشعر الآن أنه من الغباء أن يظن إنسان ما أن العواطف التي تصاحب عملية الخلق عند الفنان تظهر في الأثر الذي يخلقه، فالفن شيء مجرد عل عكس ما نعتقد، والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون وكل ما يخرج عن هذا هو من نسج الخيال.

لقد جال بخاطري كثيراً أن الفن قد يطمس شخصية الفنان أو لا يظهر منها إلا القليل، ولعل هذا ما جعلني أقرر أن تكون صورتك هي اللوحة الأولى في معرضي حين وصلتني الدعوة من باريس، لم يخطر ببالي أبداً أنك سترفض، ولكنني أرى أنك الآن على صواب، فالصورة لا يمكن أن تعرض، وأرجو ألا تغضب لما قلته يا دوريان، فأنت لم تخلق إلا لكي تعبد، هذا رأيي وقد صارحت به هاري ذات مرة.

هدأ دوريان جراي وتبسّمت ملاحه فقد شعر أن الخطر قد زال عنه، وانه أصبح في مأمن في تلك الساعة، وأشفق على الرسام الذي انتهى من لحظة من ذلك الاعتراف الغريب، واستبعد أن يحدث له مثل الذي حدث لبازيل هوللوورد، كما استبعد أن يكون لأحد عليه كل هذا السلطان مهما بلغ حبه له، فاللورد هنري كان يفتنه لأنه رجل خطير ذو ذكاء خفيف، كما أن سخريته من كل شيء في الحياة تقف مثل سد يحول بينهما، ولذا فقد كان من المستحيل أن يحب دوريان جراي اللورد هنري كل هذا الحب العميق.

ترى هل هناك شخص ما تحبّه له الأقدار وسيفعل به ما فعله هو بالرسام، ويملؤه بتلك الوثنية العجيبة؟
قال هولو ورد:

- عجيب أن ترى ما رأيت في الصورة يا دوريان، هل بالفعل رأيتَه؟

فرد الفتى:

- لقد رأيت في الصورة شيئاً... شيئاً بدا لي عجباً.
- والآن وقد عرفت كل شيء، هل تسمح لي برؤية الصورة؟

فهز دوريان رأسه قائلاً:

- لا يا بازيل، وأرجو ألا تسألني في ذلك مرة أخرى لأنني لن أسمح لك برؤية الصورة أبداً.
- ولكنك قد تسمح لي في المستقبل أليس كذلك؟
- لا لن أسمح بذلك مطلقاً

- ربما كنت على صواب في هذا يا دوريان، والآن آن لي أن انصرف فقد كنت أنت الشخص الوحيد الذي ترك في أثراً دائماً، وأنا مدين لك بكل مافي أعمالي من جمال، لكنك لا تعرف كم كلفتني صراحتي في التحدث إليك بهذا الكلام.

فقال دوريان:

- إنك لم تقل لي يا صديقي بازيل أولاً أن إعجابك بي قد استبد بك، وهذا شيء بسيط وقد يكون أقل من كلمة مجاملة.

- أنا لم أقصد أن تكون هناك مجاملة، ولكنني قصدت أن

يكون اعترافاً إلى درجة أنني أشعر الآن باعترافي هذا لك
أنني قد فقدت شيئاً.

- إذا كان ما قلته بمثابة اعتراف فقد خاب أمني فيه.
- كيف ذلك يا دوريان؟ هل كنت تتوقع شيئاً آخر؟
هل رأيت في الصورة شيئاً آخر؟ أجبني.. أجبني.
- لا، ولكن لماذا تسأل هذا السؤال؟ لا تتحدث عن
العبادة الآن يا بازيل فنحن صديقان، وصادقتنا يجب أن
تدوم.

فقال الرسام بصوت حزين:
- ماذا يهمك من أمري؟ إن لك في هاري ما يؤنس
وحشتك!

فرد عليه الفتى ضاحكاً:
إن هاري يقضي أيامه في قول الغرائب، ويسهر ليلاليه في
فعل الغرائب، وهذا مما يحببني فيه، ولكنني لا أعتقد أنني قد
أجأ إليه إذا أصابني مكروه مثلاً لأنك أقرب لي منه.
- إذن أنا انتظرك لأرسمك مرة أخرى
- هذا مستحيل.

- أنت تفسد حياتي الفنية برفضك لطلبي يا دوريان بعد
أن رأيتك مثلي وملهمي، فقليل من الناس من يعثر على
مثله الأعلى، وأنا كنت محظوظاً أن أوتيت مثلين، أنت وفني،
وهذا مالم يحظ به إنسان آخر.

- لا تطلب مني تفسيراً يا بازيل، فمن المستحيل أن أسمح
لك بذلك مرة أخرى، ربما يكون للأقدار يد في كل صورة
ترسم، وربما تحيا الصور كما يحيا الإنسان، لكن كن متأكداً

أنه من المحال أن أسمح لك برسمي مرة أخرى، ولكنني سوف أزورك لأتناول معك الشاي، وفي هذا أيضاً متعة.

- يا دوريان...كم يحزني انك لن تسمح لي برؤية الصورة مرة أخرى ولكنني مقدر شعورك على أي حال.
ثم انصرف، فابتسم دوريان ابتسامة الرضا عن نفسه، أما بازيل المسكين فقد مضى وهو يظن أنه وقف على سر دوريان جراي، ولكنه في الواقع لم يكن قد وقف على شيء، وكان رائعاً أن ينجح في انتزاع ذلك الاعتراف من بازيل بعد أن كان هو على وشك الاعتراف له بسر، فقد فسر اعتراف بازيل الكثير له مما كان خافياً عليه، فسر له نوبات الغيرة الحمقاء التي كانت تعتري الرسام فلا يستطيع أن يتحكم فيها، فسر له صمته الطويل الذي كان يلزمه بين الحين والآخر، كل ذلك تكشف له مرة واحدة فتألم لحاله وشعر بأن صداقه كهذه تلونت بكل ألوان الخيال قد تنذر بكارثة أكيدة.

تنهد ثم دق الجرس، كان قد عزم على أن تختفي الصورة عن الأنظار مهما كانت النتائج، ولن يكشف سره بعد الآن، فقد كان من الجنون أن يترك الصورة في غرفة لا تخلو من الزوار.



الفصل العاشر





دخل فيكتور فنظر إليه دوريان ملياً لعله يقرأ في ملامحه
إن كان قد كشف الستار ليرى الصورة المختبئة خلفه،
ولكن وجه الخادم بدا له مثل القناع الخال من أي تعبير،
ظل الرجل في مكانه ينتظر الأوامر، فأشعل دوريان سيجارة
ومشى حتى بلغ المرأة فتأمل خياله وخیال فيكتور الذي بدا
في وقفته خائفاً فزال عنه خوفه لكنه ظل على حذره منه.
طلب دوريان من خادمه بلهجة بطيئة أن يرسل له
مدبرة المنزل، كما أمره أن يذهب بعدها إلى النجار لكي
يرسل له بعاملين على الفور، وحين انصرف فيكتور ظن

دوريان أن الخادم ربما يكون قد ألقى نظرة على الستار، لكنه لم يكن متأكداً من ظنه.

بعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة في جلبة واضحة، كانت ملابسها الحريرية قد انقضت موضتها وتقدم طرازها منذ زمن بعيد، فطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التي كان يستعملها أثناء الدراسة فقالت له المدبرة:

- لكن الحجرة قذرة وفي حالة سيئة، والغبار يكسو كل ما فيها يا سيد دوريان، لا بد أولاً من تنظيفها وترتيبها قبل أن تدخلها.

- أنا لا أريد تنظيفها الآن - كل ما أريده هو المفتاح يا سيدة ليف.

- إذا دخلتها يا سيدي فسوف يكسوك التراب وتعوقك العناكب لأنها مغلقة منذ وفاة سيدي اللورد.

تغيرت ملامح وجه دوريان جراي لما سمع إشارة المدبرة لجلده لأنه كان يكره ذكره، لكنه انتبه قائلاً:

- هذا لا يهم، إنني أريد فقط أن ألقى نظرة على المكان، هيا ناوليني المفتاح.

بدأت السيدة العجوز تبحث عن المفتاح بيدين مرتعشتين بين مجموعة من المفاتيح كانت مربوطة كلها في حلقة فصاحت:

- هذا هو المفتاح يا سيدي، هذا هو المفتاح، لكن أرجوك يا سيدي ألا تنتقل إليها لأنك هنا في أتم راحة.

فأخذ منها المفتاح وهو يقول بضيق:

- لا لن أنتقل إلى خجرة الدراسة يا سيدة ليف، شكراً

على المفتاح، ولن أحتاج إل شيء آخر.
لكن السيدة ليف لم تنصرف بل بدأت تتحدث إليه
وتشرح له بعض الشؤون المنزلية التافهة، فابتسم لها
وأفهمها أنه موافق على أن تنصرف في تلك الأمور كما
تري، فانصرفت سعيلاً بعد أن حظيت منه بتلك الثقة.

لما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح في جيبه ثم
نظر في أرجاء الحجرة فرأى غطاءً حريراً بنفسجي اللون
مزدان بالذهب في كثير من أجزائه، كان الغطاء عبارة عن
تحفة فنية صنعت في البندقية ويعود تاريخ صناعته إلى نهاية
القرن السابع عشر، وقد عثر عليه جده في أحد أديرة النساء
القريبة من بولونيا، ورأى دوريان الغطاء ستاراً مناسباً
للصورة البغيضة...، ربما كان الغطاء كفنًا من الماضي وهاهو
اليوم سيستر شيئاً لا يقل عن الجيف تعفنًا، شيئاً تقشعر
منه الأبدان ولكن لا سبيل إلى زواله، وهاهي خطاياه تفعل
باللوحة ما تفعله الديدان بالحث حيث تذهب بجمالها
وتشوه فتنتها وتدنسها تدنيساً!

ثم ارتجف وعضه الندم عل إخفاء الحقيقة عن بازيل،
فلو أنه فعل لكان بازيل قد ساعده عل التخلص من نفوذ
اللورد هنري عليه، بل ربما كان قد ساعده أيضاً على كبح
جراح نفسه التي كانت تميل بفطرتها للشر، فحب بازيل لم
يكن مجرد إعجاب حسي جماله سينطفئ في يوم ما، لكنه
كان شوقاً عقلياً، شوقاً نبيلاً مثل ذلك الشوق الذي ملأ
حياة مايكل انجلو، ومونتيني، وفنكلمان، وشكسبير نفسه!
نعم كان في استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك

الذي ينتظرها، لكنه بدا أنه قد فات الأوان، فإذا كان باستطاعته التذكر لماضيه وسمعته بالنسيان أو الإنكار أو حتى ندماً فإن المستقبل لا مفر منه، وهو أسير نفسه، ونفسه أمانة بالسوء، شريرة، وهو عبد لرغباته.

نزع دوريان جراي الغطاء البنفسجي الكبير المزين بالذهب والذي كان يكسو الأريكة وسار به حتى وصل إلى الستار الذي يغطي الصورة فأزاحه وتأمل وجهه في اللوحة فلم يدر إذا ما كانت ملامحه قد ازدادت بشاعة؟، كان مظهر الوجه يدل على أنه لم يتغير، ومع ذلك فقد زاد كرهه له، فالشعر الذهبي والعينان الزرقاوان والشففتان الورديتان كل ذلك كانت تعكسه له الصورة كما كانت دائماً ولكن التعبير قد تغير وهذا ما أحزن قلبه، بدت الصورة كما لو كانت تلومه على أفعاله، وكان صمتها أقسى من تأنيب بازيل بألف مرة، لقد أطلت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير، فلما اشتد ألمه أعاد الغطاء البنفسجي المزخرف على كامل حجم الصورة، وبينما هو كذلك سمع طرقاتاً على الباب فابتعد دوريان جراي حين لمح خادمه يدخل الحجرة قائلاً:

- لقد حضر الرجال يا سيدي.

وشعر دوريان جراي بأن خادمه أصبح بمثابة مصدر إزعاج، فأراد أن يخلص منه فليس من الحكمة أن يعرف مكان الصورة الجديد، لأن فيكتور كان مأكراً شيئاً ما، كما أن في عينيه خبث، من هنا رأى أن يبعده، فجلس دوريان إلى مكتبه وكتب سطوراً قليلة إلى اللورد هنري يسأله أن

يسعفه بمجموعة كتب يقرأها وليذكره بأن مواعدهما في الثامنة والرابع من ذلك المساء، ثم سلم الرسالة إلى خادمه قائلاً:

- جنني برد اللورد هنري، ولكن قبل أن تذهب أدخل الرجال.

مرت دقائق سمع بعدها طرقاتاً على الباب، دخل عليه السيد هبارد صانع البراويز الشهير في شارع سوٲ أودلي وبصحبه مساعد له ذو وجه كرية.

كان مسٲر هبارد رجلاً ضئيل الجسم، سوائفه حمراء، كما كان ممتلئاً بالحوية ومحباً للفن لى الرغم من أن ذلك الحب والحماس للفن قد بدأ يخفت نظراً لفقر معظم عملائه الفنانين وحرصه على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات أو براويز، وكان مما هو مشهور عنه أنه لا ينتقل إلى بيت أي عميل مهما كان قدر ذلك العميل، ولكنه كان يستثنى دوريان جراي من هذه القاعدة ذلك أن دوريان كانت لديه ملكة جذب معارفه إليه، وكان السيد هبارد مثل كل الناس يفرح لرؤيته، فقال وهو يفرك يديه اللتين بهما من آثار الجدري القديم:

- أي خدمة تريدها مني يا سيد جراي؟ لقد أتيت بنفسي لما علمت أنني سيكون لي شرف رؤيتك، لقد اشتريت اليوم فقط بروازاً من الطراز الفلورنسي القديم، وأظن أنه ربما يكون قد جاء من فونتهيل، سوف ترى أنه سيكون مناسباً لصورة موضوعها ديني.

- يؤسفني أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصياً يا

سيد هبارد، فالمسألة ليست ذات أهمية، ولكنني بلا شك سوف أزورك لأرى البرواز بنفسني على الرغم من أنني لا أهتم كثيراً هذه الأيام بالفن الديني.

وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندي إلى غرفة بالدور العلوي، وقد رأيت أن يتولى ذلك اثنان من رجالك.

- ليس في مجيئي أي إزعاج لي يا مستر جراي، هو سرور وشرف كبير... أي صورة تريد نقلها يا سيدي ؟

فقال دوريان جراي وهو يزيح الغطاء عن الصورة:

_ هذه الصورة يا سيد هبارد، هل تستطيع نقلها كما هي بغطائها؟، كم أتمنى ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها.

فأجاب الرجل الطيب:

- هذا شيء بسيط يا سيدي.

ثم بدأ يخلع السلاسل النحاسية التي كانت الصورة معلقة بها في الحائط وكان زميله يساعده، ثم قال:

- والآن يا مستر جراي، إلى أي مكان تريد نقلها؟

- اتبعني يا سيد هبارد بعد إذنك لأن الغرفة التي ستنقل

إليها موجودة في الطابق العلوي، وسوف نصعد من السلم الأمامي لأنه أعرض من السلم الآخر، ويبدو لي أنه من الأفضل أن تسبقني أنت، وأمسك بالباب المفتوح حت خرج الرجلان منه إلى القاعة، ولما صعدا لحق بهما.

كانت الصورة أضخم من المعتاد، كما كان إطارها المزخرف ضخماً هو الآخر، ولذلك كان دوريان جراي يساعدهما من حين لآخر، وذلك على الرغم من اعتراض السيد هبارد الذي كان يرى أنه لا يصح لسيد مثل السيد

جراي أن يعمل بيده، ولما بلغوا آخر درجة في السلم مسح
مستر هبارد العرق المتصبب من جبهته وقال وهو يلهث:

- إنها حمل ثقيل يا سيدي
فأجاب دوريان قائلاً:

- بالفعل يا سيد هبارد هي ثقيلة

ثم فتح لهما باب الغرفة التي أراد لها أن تحجب سره عن
عيون الناس.

لم يكن دوريان جراي قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن
بعيد، فقد انقطع عنها منذ كان طفلاً يلعب، وصبيّاً يذاكر
فيها دروسه.

كانت الغرفة واسعة ومتناسقة منذ بناها اللورد كلسو
خصيصاً لحفيده دوريان لكي يبعده ما أمكن عنه لأنه كان
يشبه أمه إل حد بعيد، وكان اللورد كلسو يكره كل ما
يذكره بابنته التي هربت مع ذلك الصعلوك الفقير
ولطخت اسمه بين الناس.

حين دخل دوريان الغرفة وجدها كما هي على حالها
القديم، كما رأى الصندوق الكبير ذا الأطراف المذهبة
والزخارف البديعة والمصنوع في لإيطاليا، إنه الصندوق
ذاته الذي اعتاد أن يختبئ فيه أيام كان صبيّاً يلهو، كما رأى
حمالة كتبه الدراسية ومن خلفها كانت تتدلى على الحائط
رقعة قديمة من القماش الفلمنكي مشغول عليها صورة
ملك ومملكة يلعبان الشطرنج وسيط حديقة وحولهما كوكبة
من الصيادين يركبون خيولهم ويحملون على معاصمهم
صقوراً رؤوسها مغطاة، كانت رقعة القماش رغم ذلك تبدو

باهتة الألوان.

تدفقت ذكرياته المبكرة وهو يتفحص محتويات الغرفة، تذكر أيام طفولته الموحشة وصبه البريء فاستنكر أن يكون ذلك المكان مخبئاً لتلك الصورة البشعة، وتحسر على ماضي أيامه.

على الرغم من ذلك لم يجد بالبيت غرفة أصلح من تلك الغرفة لإخفاء الصورة، مفتاحها معه، ولا أحد غيره يستطيع فتحها دون علمه، وهنا فإنه باستطاعة الوجه المختبئ وراء القماش البنفسجي أن يتجول كما يحلو لهفلن تراه عين، ويستطيع أن يمتلىء بالدنس والقسوة والوحشية، ولن يهتم هو لذلك لأن هذه هي آخر مرة سيرى فيها الصورة، وهو ليس في حاجة لن يفقد معنوياته تدريجياً، ويكفيه شبابه الذي سيغنيه عن كل شيء في الوجود.

أما روحه التي ضاعت منه فإنه باستطاعته أن يستردها من جديد، نعم، فما أدراه ان المستقبل سيكون مظلماً مثل الماضي...، جائز أن تصفو روحه وتتخلص من شوائب البشر، أليس جائزاً أن يذوق الحب من جديد فيطهر الحب روحه ويقيه من الأخطاء الخفيفة التي يزينها له ولعه الجارف بالعجائب؟، من الجائز إذن أن تختفي دلائل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين وعندها لن يجد أي حرج في أن يعرض هذا العمل الفني على أنظار الناس. لكنه عاد وعدل عن تلك الأوهام، تذكر أن الصورة

مثلها مثل الإنسان تكبر في العمر وتسجل الخطوط التي ترسمها السنون على صفحة الوجه شهراً فشهراً، بل ساعة فساعة وقد تنجو الصورة من آثار الخطيئة لكنه لا نجاة من الزمن فسوف يغور خداه ويترهلان، كما أن فمه سوف يتسع تماماً مثل فم الأبله ويسترخي، سوف تدبل عيناه وسوقف ينطفأ وهج شعره الذهبي ويتجعد وجهه وتنحني قامته وتلتوي سائر أعضائه مثلما التوت أعضاء جده القاسي من قبل، نعم يجب أن تختفي الصورة عن الأنظار.

بعدها التفت دوريان جراي إلى الرجلين وقال في إعياء:
- أرجو أن تدخل الصورة يا سيد هبارد، واعدرني إن كنت قد أهملتكما طوال الوقت لأنني شردت مع ذكرياتي.
كان مستر هبارد مازال يلهث من الإعياء فقال:

على العكس، لقد أتحّت لنا أن نستريح يا مستر جراي، ونشكرك على ذلك، والآن أين تريد أن تضع الصورة يا سيدي؟

- أينما تود.. ضعها هنا مثلاً واسندها إلى الحائط لأنني لا أحب أن أراها معلقة.. أشكرك.

- هل تأذن لي يا سيدي في رؤية الصورة؟
فقال دوريان جراي منزعجاً:

- ليس في الصورة ما يثير اهتمامك يا سيد هبارد، لقد انتهى عملك وأكرر شكري لك مرة أخرى على مجيئك بنفسك ولم تتحول عينه عن الرجل الذي لو كان قد تجرأ على كشف غطاء الصورة الجميل الذي يستر أسرار روحه لكان قد هجم عليه وأدبه تأديباً.

- لا شكر على واجب يا سيد جراي، وأنا رهن إشارتك دائماً يا سيدي.

ونزل السيد هبارد يجر قدميه على السلم ومن خلفه مساعده الذي التفت خلفه كأنه يملأ عينيه من دوريان جراي، ثم ارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الخجل والدهشة معاً لأن جمال السيد دوريان جراي هز أوتار قلبه..، ثم تلاشى صوت الأقدام فأغلق دوريان جراي الباب ثم وضع المفتاح في جيبه، وأحس بعدها بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوجه المسوخ وتعرف منه جرائم روحه الآثمة.

دخل المكتبة فوجدها كما هي كما وجد الشاي في انتظاره ووجد أيضاً رسالة من اللورد هنري وبجانيتها كتاب قديم غلافه أصفر وأوراقه الممزقة مبتلة الاطراف، وجد كل ذلك على مائدة صغيرة من الخشب الأسود ذي الرائحة الزكية المطعم بالصدف، كانت السيدة رادلي زوجة وصيه قد أهدتها له، وكانت سقيمة تقضي شتاءها في القاهرة وصيفها في الريفيرا، ورأى على صينية الشاي الطبعة الثالثة من صحيفة سانت جيمس فعرف أن فيكتور قد عاد، وخطر بباله أن يكون خادمه قد التقى بمستر هبارد وصاحبه أثناء انصرافهما وعرف منهما سر مجيئهما، لا شك أنه سيفتقد الصورة بل لا شك أنه افتقدها فعلاً وهو يضع آنية الشاي على المائدة بينما مكانها يبدو واضحاً على الحائط، لقد نسى دوريان أن يفرد ستاراً مكان اللوحة ليخفي المكان.

بدأت الهواجس تلعب برأسه فتصور فيكتور متسللاً ذات ليلة إلى الطابق العلوي محاولاً أن يفتح باب الحجرة بالقوة.

كان قد سمع الكثير من القصص التي رواها أثرياء عن تهديدات تعرضوا لها من جانب خدمهم، لأن الخدم عرفوا أسراراً عنهم من أشياء وقعت تحت أيديهم كالخطابات أو أوراق تحمل عناوين خاصة، أو أشياء تحمل ذكريات عاطفية كزهرة ذابلة، أو قطعة من الدانتيل المتكسرة تحت وسادة من وسائدهم، ودار بذهنه أن فيكتور لا بد وأن يكون جاسوساً عليه، ف شعر أن حياة بهذا الشكل لا يمكن أن تحدث.

تنهد ثم صب لنفسه فنجاناً من الشاي ثم فتح رسالة اللورد هنري، لم يكن بها إلا جمل قليلة أخبره فيها اللورد أنه أرسل إليه بصحيفة المساء مع كتاب لعله يجد فيه المتعة وأخبره أنه سيكون بالنادي عند الساعة الثامنة والنصف، وفتح دوريان الصحيفة فوق نظره على فقرة من الصفحة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها:

" التحقيق في مصرع ممثلة: أجرى السيد داني مأمور قسم هوكستون صباح اليوم في بل تامزن بطريق هوكستون التحقيق في مصرع سيبيل فين، وهي ممثلة صغيرة السن كانت قد تعاقدت مؤخراً مع مسرح بحبي هوبورن، وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ، وقد عبر المحقق عن ألمه البالغ لوالدة القتيلة التي سيطر عليها الحزن وغلبتها شجونها أثناء إدلائها بشهادتها، وعند سماع شهادة

الدكتور بيريل الذي قام بفحص الجثة " .
وبعد أن انتهى من قراءة الخبر تجهم وجهه فمزق
الصحيفة إلى عدة قطع ثم رماها في أحد أركان الغرفة، فقد
عادت إليه ذكرى بشاعة الموقف، كما شعر ببشاعة الحياة
نفسها، وامتنع من اللورد هنري لأنه أرسل إليه بتقرير
المأمور، كما أنه رأى في إشارته بالقلم الأحمر على الخبر
بعض الغباء لأن إمام فيكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم
مضمون الفقرة، وقد تكون هذه الإشارة هي ما أغرته فعلاً،
وإذا كان قد قرأها فلا شك أنه قد بدأ يشك في أمر
هذا الخادم، ولكن ماهي أهمية شكه ودوربان جراي لا صلة
له بموت سييل فين؟

ووقع بصره على الكتاب ذي الورق الأصفر الذي
أرسله اللورد هنري ورغب في معرفة محتواه، فسار حتى بلغ
الحامل اللؤلؤي اللون ذا الأضلاع الثمانية والذي كان يبدو
دائماً مثل خلية فضية جسيمة الأطوال مثل تلك التي بنتها
جماعات النحل العجيب، تناول الكتاب وجلس في مقعد
كبير وبدأ يتصفح المجلد، ولم تمر سوى دقائق إلا وكان
دوربان قد استغرقته القراءة فقرأ بنهم شديد، كان الكتاب
من أعجب الكتب التي وقعت في يده، مرت أمام عينيه
الخطايا السبع في موكب جميل راقصات على إيقاع ناي
سحري وهن يرتدين أفخر الثياب، وبدأت أحلامه
الغامضة تأخذ أشكالا محسوسة، أما خفايا اللذة فقد طافت
بعقله كالأحلام.

كان الكتاب عبارة عن قصة بلا عقلة، قصة ليس فيها

غير شخص واحد، أو بمعنى آخر كانت دراسة نفسية لشاب باريسى من أبناء القرن التاسع عشر، تنكر للقرن الذي يعيش فيه، وحاول أن يجرب العواطف التي جربتها القرون الأخرى، ويعتق المبادئ التي آمنت بها تلك القرون.

وحاول كذلك أن يجمع في نفسه سائر الأطوار التي مرت بها الروح الإنسانية منذ القدم، فهو أحياناً يتقبل الزهد الذي يسميه الحمقى باسم الفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة، وهو حيناً يقبل على المعاصي التي يلقبها العقلاء بالرديلة.

كان أسلوب الكتاب غريباً منمقاً واضحاً وغامضاً في وقت واحد اجتمع فيه اللفظ الدارج مع اللفظ القديم، كما جمع بين كل من التعبيرين العقلي والعاطفي كما هو حال كتب المدرسة الرمزية في فرنسا، كما ضم كلمات نابية مع كلمات طيبة، وظهرت فيه الشهوات في صورة فلسفية صوفية فاختلط عليه الأمر وهو لا يدري هل يطالع وصفاً لرؤية قديس من أهل العصور الوسطى، أم يقرأ اعتراف فاسق أصيل من أهل جيله؟، لقد كان كتاباً مسموماً بدون شك، ومن صفحاته تصاعدت رائحة عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جراي وأخذته إغفاءة من أثر التنعيم اللفظي وإيقاعه الرتيب الممل الذي كان قائماً على التكرار المدروس، واستغرق فيما يشسبه الحلم وهو يطوي فصول الكتاب فصلاً فصلاً فلم يشعر بانتهاء النهار ودخول الليل.

وفي المساء بدت له قبة السماء لا هي خضراء ولا هي حمراء، كما لمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جراي حتى تعبت عيناه ولم يعد قادراً على الاستمرار في القراءة.

وبعد أن دخل عليه خادمه عدة مرات ليذكره بتأخر الوقت نهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة، ثم وضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة تجاوز فراشه باستمرار، ثم بدأ يستبدل ثيابه استعداداً للعشاء.

ولما وصل النادي كانت الساعة قد بلغت التاسعة تقريباً، وهناك وجد اللورد هنري يجلس بمفرده في صالون الصباح وقد بدت عليه إشارات الملل، فقال له:

- أرجو أن تسامحني يا هاري فإنني ما تأخرت إلا بسبب الكتاب الذي أرسلته لي، فقد سحرني وشد انتباهي فلم أدر وأنا أقرأ فيه بالوقت.

فأجاب اللورد هنري وهو يقوم من مكانه:

- كنت واثقاً أنك ستحبه.

- لم أقل إنني أحبه يا هاري، وإنما قلت سحرني، والفارق بين المعنيين كبير.

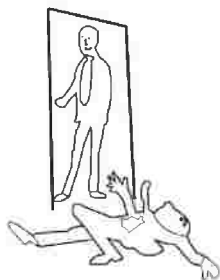
فقال اللورد هنري بصوت خافت:

- أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك.

ثم دخل الرجلان المطعم.

الفصل الحادي عشر





كان لهذا الكتاب أثر كبير على دوريان جراي امتد لسنوات عدة، فلم يسع مثلاً للتخلص من سلطانه عليه إلى درجة أنه بلغ من افتتانه به أن اشترى من باريس عدة نسخ من طبعته الأولى بلغت تسع نسخ من القطع الكبير، وقام بتجليدها بأغلفة ملونة تستريح لها نفسه في أطوارها المختلفة، وترتاح إليها طبيعته التي باتت تحكمها الأوهام ولم تعد لإرادته عليها سلطان.

لقد وجد في ذلك الشاب الباريسي العجيب بطل القصة التـ يجتمع فيها الـولع بالخيال وبحقائق العلم مرآة لنفسه هو المعقدة، ورأى أيضاً أن الكتاب بأكمله ترجمة لحياته كتبت قبل أن يخرج إلى الوجود.

لكنه اختلف عن بطل القصة العجيب من حيث إنه لم يسيطر عليه الرعب الشديد الذي كان يعترى الشاب الباريسي كلما وقعت عيناه على مرآة أو لوح معدني لامع أو صفحة من الماء الصافي، ذلك الرعب الذي لازمه بينما

كان مايزال شاباً، فقد كان وهو في مقتبل عمره آية من آيات الجمال، ثم ذهب عنه جماله قبل الأوان فلم يعد بقادر على مواجهة الحقيقة، كان دوريان جراي يقرأ الجزء الأخير من الكتاب الذي يصور أحزان ذلك الفتى الباريسي وقد فقد جماله في لذة ما بعدها لذة مصدرها الشماتة، وهي قسوة تلازم اللذة أيضاً أياً كان نوعها، إن جمال دوريان باق لا يذبل كجمال الرياحين في شاطئ الكوثر الموعود وهو يلهم بازيل هولو ورد بآيات الفن وهو الأمر الذي ألان لدوريان قلوب كل من عرفه حتى من كرهه لم يعبر عن سوءه هو بل تحدث عن سوء مجتمعات لندن ونواديها، كانوا إذا رأوه ضعفوا أمام جماله ويكذبون أنفسهم إذا ظنوا أن مثل ذلك الجمال سوف تلوّثه الأيام، كان دوريان جراي يبدو دائماً كمن صان نفسه من هموم الحياة، وكانت براءة الملائكة تطل من وجهه، كما أن الناس كانوا يغتابونه دائماً فإذا ما دخل عليهم خرس ألسنتهم، ويشعرون أن طهارة وجهه تؤنبهم تأنيباً شديداً على سوء ظنهم به، فكأنما يذكرهم بالجمال الذي دنسوا والحرمة التي انتهكوا، كانوا يتعجبون لهذا الشاب النضير وهم يتساءلون كيف نجا من أوحال الحياة في عصرهم عصر الفجور والشقاء!

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئاً وكانت تدفع أصدقائه على تفسير اختفائه بتكهنات عجيبة، وكان دوريان يصعد بعد عودته من تلك الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ويدخلها حاملاً في يده مرآة ويقف أمام الصورة ناظراً تاره إلى الوجه الشرير المطل من اللوحة

وتارة إلى الوجه الصبوح الذي تعكسه المرأة، كان يجد في ذلك لذة كبيرة لأن الاختلاف بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله حتى بدأ يتعشق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحي، وكان بين الحين والآخر يفحص الخطوط البغيضة التي يرسمها الزمن على الجبين بعناية واضحة تدل على فرحه الشديد بذلك العمل ليعرف أيهما أشد فتكا بالصورة، آثار الزمن أم آثار الشر، وما أكثر ما كان يضع يديه الجميلتين بالقرب من مقبضي الصورة الشائهيـن ويبتسم ابتسامة الرضا، وما أكثر ما كان يهزأ بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التي يراها في اللوحة لكنه في بعض الأحيان كان يقضي الليل مرة في غرفته الفاخرة ومرات في غرفة قذرة بحان صغير سيء السمعة، كان يذهب إليه متخفيا تحت اسم مستعار، كان دائما ما يؤنب نفسه على ماجنه عليها ويحزن لمصيره المؤلم، ويبالغ في حزنه، لكن مثل تلك اللحظات صارت نادرة فقد زاد الانغماس في الملذات من فضوله للمعرفة وهذا الفضول كان اللورد هنري هو أول من ألهمه فيه، وكلما زاد اختباره في الحياة زادت رغبته في الاختبار، وكلما أشبع نهمه للحياة زادت رغبته في الاختبار، وكلما أشبع نهمه للحياة اشتد جوعه إليها.

ولكنه كان أيضا رغم ذلك يهتم برأي المجتمع فيه، ولذا فقد دأب على إقامة حفلات منتظمة في كل موسم واختار لها يوم الأربعاء من كل أسبوع، كما كان يقيم حفلات في الشتاء مرة أو مرتين كل شهر، كان يفتح أبواب بيته الجميل للجميع من أفراد المجتمع الراقي كما كان يستقدم العازفين

ليطربوا ضيوفه، وكان اللورد هنري يحرص في كل حفل عشاء يقيمه على مساعدته في اختيار ضيوفه، وترتيب أماكنهم من المائدة، وفي انتقاء الأزهار التي تزين مائدته الفاخرة.

لقد كان دوريان جراي عند كثير من اليافعين النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فتیان إيتون أو فتیان أكسفورد وهو عندهم مزيج من الشباب الذين ثقتهم الحياة.

كان دوريان جراي عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتي بأنهم يسعون " لتكملة نقصهم بعبادة الجمال " أو من قال فيهم تيوفيل جوتيه " إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم ".

ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن أول فن تخصص فيه دوريان جراي هو فن الحياة، وما كانت بقية الفنون المعروفة في نظره إلا تمهيد لهذا الفن الجليل، فتنه تطور الذوق مع الايام لأنه كان يزين غير المعقول لعقول الناس ولو إلى أجل قصير، كذلك فتنه التأنق لأنه وجد فيه ما يثبت على نحو ما أن الجمال ليس من تراث الماضي بل هو من عمل العصر، وكان للأزياء التي ابتكرها أثرا ملموسا على اليافعين من رواد المراقص الراقية بحى مايفير وغيره من المجتمعات المترفة لأنهم ساروا على خطاه في كل ما فعل، واجتهد في أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيقة التي كان يلهو بها في أوقات فراغه على الرغم من أنه لم ينظر إليها في يوم من الايام على أنها عمل جدي.

كان دوريان جراي حريصاً كل الحرص على المكانة التي رفعه إليها المجتمع منذ أن بلغ سن الرشد، ورغب ان يلعب في لندن الحديثة الدور الذي لعبه مؤلف ساتيريكون في روما القديمة أيام قيصرية نيرون، لكنه على الرغم من ذلك كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون شيئاً أكبر من مجرد قائد من قادة الأناقة التي يحتكم إليها في طرق لبس الجواهر، ويستشار في طرق عقد أربطة العنق، ويحتذى في طرق حمل العصا، كان حلمه أن يبتكر أسلوباً جديداً في الحياة له فلسفة تبرره وأسس متماسكة تقومه، أسلوباً في الحياة غايته العليا التصوف عن طريق الحواس.

لقد وجد دوريان جراي الناس يستنكرون عبادة الحواس، ووجد أن ذلك أمراً طبيعياً فيهم لأن الناس يفزعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والأحاسيس التي تضعف أمهم نفوسهم وهم يدركون أن كائنات أخرى تقل عنهم رقياً وانسجاماً تشاركهم فيها، لكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تفهم على حقيقتها أبداً، وأن الحواس إنما بقيت على حالها الحيواني الأول إلا لأن المجتمع أجاعها وأذلها وسامها سوء العذاب بدلاً من أن يجعل منها سبيلاً إلى روحية جديدة قوامها تذوق الجمال بالفطرة، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشر بالخير فهو سلسلة من الهزائم التي أضاع فيها الإنسان إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها، فلقد تخلى الإنسان عن سعادته برضائه، وانكر ذاته برضائه، وعذب نفسه برضائه، وكان حافزه إلى ذلك كله هو الخوف، وما ربح من وراء ذلك إلا الانحلال التام الذي لا يقاس به ذلك

الانحلال المزعوم الذي يسعى الناس مجهلهم للنجاة منه،
فالتبيعة تسخر منه سخرية لاذعة حين تدفع الناسك إلى
الصحراء الجرداء ليأكل مع وحوشها و تؤلف بينه وبين
بهائم الحقول... نعم سيكون لعبادة الجمال بعث جديد كما
تنبأ بذلك اللورد هنري، وحين تبعث عبادة الجمال من
جديد فسوف تتجدد الحياة على الأرض وتنتشلها من
التطهر المتلف الذي ينخر في شجرة الحياة في عصرنا هذا،
وسيخدم العقل هذا المذهب الجديد بلا شك ولكن في
حدود الاختبار ذاته مجلوة ومره وليس بشمار الاختبار فقط.
أما الزهد الذي يطفئ الحواس، والتهتك الرخيص
الذي يميته فلن يتسع لهما هذا الدين الجديد لأنه سيذكر
الناس بأن العمر لحظة ويحثهم على اقتناص هذه اللحظة.

نحن نصحو قبل ميلاد الفجر في بعض الأحيان بعد ليلة
هادئة تنقطع فيها الاحلام ليلة تشبهنا في الموت وهدوءه، أو
بعد ليلة مزعجة تزدهم فيها الأشباح المسوخة والرغبات
الحرمة تملأ كهوف الخيال وهي تعوي كأنها العواصف
الهوجاء، وتعصف بها كأنها وحي فنان قوطي، وما الفن
القوطي إلا تجسيد لهواجس الخيال المحمود، وهذا الاختبار يمر
به أغلب الناس ونادراً ما ينجو منه أحد.

نستيقظ قبل الفجر فيخيل لنا أننا نرى أصابع شاحبة
تلعب في الستائر، فتتهز الستائر وتزحف أمامنا الظلال
القائمة والماردة الأطوال في صمت عند أركان الغرفة وتقع
هناك، وفي الخارج تتحرك أوراق الأشجار فنسمع حفيفها، أو

يدب الناس ساعين إلى أرزاقهم فتسمع وقع أقدامهم، أو تعوي الريح بين التلال وتنزل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة وكأنها تشفق أن توقظ النيام ولكنها تحت النوم ليخرج من كهفه الأحمر، وترتفع الحجب الرقيقة والأغشية حجاباً حجاباً وتعود إلى الأجسام ألوانها وأشكالها رويداً رويداً، ونرى الفجر يبني الطبيعة على نسقها القديم ويغشى الحياة من جديد، وفي المرايا تعكس الكائنات، ونتلفت حولنا فنرى القنديل المطفأ كما تركناه ليلة الأمس وإلى جواره الكتاب الذي لم نفرغ من قراءته بعد، أو الزهرة التي كانت في عروتنا ونحن في المرقص، أو الخطاب الذي لم نجد الشجاعة لفضه وقراءته، أو الخطاب الذي قرأناه عشرين مرة.

ومن ظلال الليل تخرج حقائب النهار التي نعرفها فنستأنف الحياة حيث تركناها، ويغمرنا إحساس بوجوب الماضي فيما تعودنا من أعمال رتيبة ومملة، أو نرجو أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد علماً ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسراره على غير ما ألفنا من أسرار، علماً لا أثر فيه للماضي أو لذكره، فواجبات الأمس وآلامها قد طمستها يد النسيان، حتى أفراح الأمس تشقينا وسعادته تحيي فينا الأحران.

كان دوريان جراي يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس هذه الدنيا الجديدة، ولطالما خرج عن طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل تلك الأفكار لا شيء إلا لأنه يبحث عن الأحاسيس الجديدة والسارة وأيضا الشاذة،

وبعد أن يرضي فضوله العقلي بها نراه ينبذها في استخفاف غير متوقع لا يدل على نقص العواطف بل يدل على إتقادها.

لقد أشاع عنه الوشاة ذات مرة أنه عزم على اعتناق الكاثوليكية، ولم يكن مثل ذلك غريباً ذلك أن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله، فالقربان اليومي فيها كان من وجهة نظره أشد رهبة من قوانين الوثنية القديمة، والقربان اليومي كان يعني عنده إنكاراً جميلاً لماهية الحواس، وقد اهتز فؤاده لفكرته البدائية الساذجة، وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التي يرمز لها ذلك القربان، كان يجب السجود على الدرج الرخامي البارد ليرى القس وهو يزيع الحجاب عن الهيكل في أناة بيد شاحبة بينما تكسوه مسوحه الكنسية السميكة المزركشة، أو يرفع وعاء السر المقدس الشبيه بالمصباح المرصع بالأحجار الكريمة وفيه الرقاق الذي يبدو كأنه زاد الملائكة بالفعل، أو يضرب صدره نادماً على خطاياه وهو يحمل كأس الاعتراف في زي من أزياء السيد المسيح.

كما كانت المباخر التي يحملها صبية المقبرة أصحاب الأردية الحمراء الموشاة ويطوحونها في الهواء بين المصلين تفتن خياله، وكان دوريان جراي كلما خرج من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرسي الاعتراف الأسود متعجباً، ويتمنى أن يختبيء خلفه ليسمع النسوة خلسة وهن يروين تاريخ حياتهن الحقيقي من وراء القضبان، ولكنه برغم ميله الشديد إلى مثل هذه المراسم لم يغير تفكيره بقبول مبادئ

الكاثوليكية أو ينسى أن هذا الحان الروحاني لا يصلح للسكنى بل يصلح لقضاء ليلة أو ساعات معدودات في جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل فيها القمر..، تسلط عليه التصوف فترة من الزمن لما فيه من غرابة ولما فيه من نقد خفي للأوضاع الخلقية، أما المادية الداروينية كما بشر بها الألمان فقد تسلطت عليه هي الأخرى فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيراً عضويًا، وقد سره فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صح منها وما سقم، لكن النظريات في الحياة لم تلهه عن الحياة ذاتها وأحس بأن التفكير مجهود عقيم ما لم يقترن بالاختبار العملي، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة روحية. لقد دفعه ذلك في وقت ما إلى دراسة العطور وأسرار صنعائها وأخذ يجري عليها تجاربه الخاصة، فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق ذات الرائحة النفذة، كما كان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها في عالم الحواس، وبدأ يبحث في العلاقة القائمة بين الحس والتفكير، وأراد أن يستخلص السر الذي يجعل البخور يثير التصوف في الإنسان، ولماذا يثير العنبر الشهوات، والسبب الذي يجعل أزهار البنفسج تحرك فيه ذكريات الغرام الدفين، ولماذا يشوش المسك العقل، والشنق يشوش الخيال، وأراد أن يصنع لفلسفة العطور أساساً علمياً فيصف تأثير الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفاً تجريبياً صحيحاً.

كما دفعه ذلك في وقت آخر إلى دراسة الموسيقى، فكان

يدعو أصحابه إلى حفلات موسيقية لم يألّفها أحد، ويجلسهم في غرفة مستطيله سقفها برتقالي وجدرانها خضراء كالزيتون نوافذها ذات عوارض، وهناك كان المدعوون يستمعون إلى همجية الأنغام، فكنت ترى العجر المجانين يعزفون ألحاناً صاحبة على آلات وترية صغيرة، وكنت ترى التونسيين في عباءاتهم الصفراء يعزفون على عيّدان كبيرة قبيحة المنظر، مثلما ترى الزنوج العابثين يقرعون طبولاً نحاسية قرعاً رتيباً يجلب النعاس إلى العيون، في حين كان الهنود المعممون من ذوي الأجسام النحيفة يجلسون على حصر حمراء وينفخون في مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس وكأنهم يسحرون بها الثعابين الطويلة والثعابين القصيرة الغليظة.

كان فؤاده في بعض الأحيان يهتز لهذه الأنغام الهمجية ولا يتحرك لعدوبة شوبرت، أو جمال شوبان الحزين، أو قوة بيتهوفن المتدفقة، وألف مجموعة من الآلات الموسيقية العجيبة جاءت من بقاع عدة في العالم، بعضها كان من مخلفات الحضارات البائدة، وبعضها كان من بلاد المتوحشين الذين رفضوا أن يحتكوا بالرجل الأبيض ويجربوا مدنيته.

كان في مجموعته آلة جوربار العجيبة التي يستعملها آل ريو والذين هم نتاج زواج الهنود بالزنوج، تلك الآلة التي حرمت رؤيتها على النساء، كما فرض الصوم والضرب السياط على كل فتى يريد أن يراها.

كذلك جاءت من بيرو أنية من الصلصال لها أصوات حادة كصوت العصافير، كما جاءت نيات صنعت من عظام

البشر كتلك التي سمع ألفونسو دي أوفالي ندائها في بيرو ،
وأحجار اليشم الخضراء الحلوة الموجودة بالقرب من كوزكو،
وكانت لديه جوزات مطلية بالألوان بداخلها حصى
يخشخش حين يتم هزها، وآلة مكسيكية طويلة تعرف
بالكلارين لا ينفخ فيها العازف بل يمتص منها الهواء،
وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورات
ينفخ فيها الديدبان الجالس طيلة النهار في قمة الشجرة
فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم، وثالثة هي
التيونازلي لها لسانان من الخشب يترددان تردد الأوتار يقوم
العازف بضربها بعصا يغطي أطرافها المطاط الذي هو
عصارة الشجرة المتجمدة ، ورابعة هي أجراس مجتمعة في
هيئة عنقود واسمها اليوتل.

تستخدمها قبائل الأزتيك، ثم خامسة هي طبل عظيم
الحجم أسطواني الشكل تكسوه جلود الثعابين كالطبل
الذي رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكي في صحبة
كورتيز، ووصف لنا دقاته الحزينة أبلغ وصف.

لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه، وجعلته يعتقد أن
للفن وحوشه ذات الخلقة الممسوخة والآلات والأصوات
المنكرة، كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة
والأصوات المنكرة، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما
جمع، زهد فيها وعاد إلي مكانه في الأوبرا مرة وحيداً ومرة
برفقة اللورد هنري يستمع إلي تانهاوز في نشوة الوجد،
ويلتمس في مقدمة هذه الأوبرا الخالدة ترجمة صادقة للمأساة
التي نزلت بروحه.

وكما درس دوريان جاري العطور والموسيقى، درس كذلك الأحجار الكريمة، وقد ظهر مرة حفلة تنكرية في زى آن جواييز أميرالة فرنسا، وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درة، وقد تحكمت فيه هذه الهواية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته.

كان في بعض الأحيان يقضي اليوم بأكمله في تصفيف ما جمع من حلي كل في علبته. وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذي يتحول إلى الأحمر في نور المصباح، والزبرجد الأحمر الذي يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود، والزبرجد الأصفر الذي يميل إلى لون الفستق، والياقوت الوردي، والياقوت الأصفر، والياقوت الأحمر الدموي الذي يختلج نوره في هيئة نجمة رباعية، والأمانوس المشتعل كاللهب، والأمانوس البنفسجي، والأمانوس البرتقالي المطعم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق. وكان شديد الشغف بحجر الشمس وضيائه الذهبي، وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤي، وبعين القط اللبني الذي تتجمع فيه ألوان الطيف وتتكسر.

وقد أشتري من أمستردام ثلاثة زمردات كبيرة الحجم لونها يسحر الناظرين، وكان في مجموعته فيروزة من (الصخرة القديمة) يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة.

وقد وقع أثناء انشغاله بجمع الأحجار الكريمة علي طائفة من القصص التي تدور حول الجواهر، فقرأ في كتاب (تعاليم الكهنة) لألفونسو عن ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقي، وعرف عن الأسكندر فاتح أماثيا ذي

التاريخ العجيب أنه في وادي الأردن حيات تكسو ظهرت طبقة من الزمرد الصافي، وقرأ في فليوسترات عن تين في فمه درة إن رأي رداء أحمر وحروفاً ذهبية غلبة نوم سحري وأمكن للناس قتله، وكذلك عرف من مطالعته في أعمال الكيميائي العظيم الذي اشتغل بالسحر بيير دي بو نيفاس أن في الماس قوة تخفي الإنسان وفي عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته، أما عقيق كورنيليا فيزيل الغضب، والياقوت الزعفراني يجلب النعاس والأماتوس يوقظ المخمور من نشوة الخمر، والعقيق الروماني يطرد الشياطين، وجوهرة الماء تطفئ فضية القمر والبازهر المستخرج من قلب الطي العربي ترياق للسم ودواء للطواعين، وجوهرة الطير التي تضعه طيور العرب الأصيلة في أعشاشها وقاء لحاملها من نيران كما روي ديموقريط الحكيم.

ودرس الأساطير التي تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب، فقرأ أن ملك سيلا طاف في موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملاً في يده ياقوته حمراء، وأن أبواب قصره يوحنا الراهب (مصنوعة من حجر السرد، وقد نحت فيها الثعبان ذي القرن المسموم حتي لا يدخل القصر رجل يحمل السم) وفوق سطح القصر (تفاحتان من ذهب وفي التفاحتين ياقوتتان بلون الجمر) فالذهب يضي نهاراً، والياقوت يضي ليلاً. وفي رواية لودج الغربية "مارجريت الأمريكية" قرأ أن في غرفة الملكة (تماثيل من فضة للمكات العفاف في التاريخ يتأملن

وجوههن في مرايا من الياقوت الأحمر والياقوت الحمري والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر) كذلك عرف عن ماركو بولو أنهرأي سكان زيبانجو يحشون أفواه موتاهم بدر وردي اللون، وقرأ عن وحش من وحوش البحر يعشق درة أستخرجها غواص من بطن الماء وأعطاهها لملك بيروز فقتك الوحش بالغواص الغاصب وبات في حداد علي معشوقته حتى حتى غاب القمر السابع، وفي رواية بروكوبيوس أن الملك بيروز قذف بالدرة حين أستدرجه أمراء الهون إلي الهوة الكبرى فضاعت الدرة ولم يعثر عليها أحد برغم أن إمبراطور إنستاس وعد يجدها بخمسمائة سبيكة من الذهب، كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن مجموعة من اللآلي تبلغ الثلثمائة والأربع عدداً، كل لؤلؤة منها تمثل معبود من معبوداته.

وفي رواية برانتوم أنه لما زار الدوق فالنتينو ولد إسكندر السادس ملك فرنسا لويس الثاني عشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب وكان في قبعته يومئذ صنفان من الياقوت يسطع منها بريق هائل. كذلك روي عن شارل الأول ملك إنجلترا إنه كان يمتلك جوادا تدلت من مهمازه واحدة وعشرون وأربعمائة قطعة من الماس وري عن ريتشارد الثاني أنه كان يمتلك سترة قدر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت وفي كتابات هول أن هنري الثامن ذهب قبل تتوجه إلي برج لندن (عليه سترة من صفائح الذهب صدها محلي بالألماس وغيره من

الأحجار الكريمة وحول عنقه ياقة عالية مزينة بضخم اليواقيت)، وكانت خليلة جيمس الأول تلبس قرطاً من زمرد في إطار من سلوك الذهب، وقد أهدي إدوارد الثاني إلي جافستون درعاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالياقوت، وياقة نقشت عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر. وكان هنري الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر، ويمتلك قفازاً آخر عليه اثنتا عشر ياقوته، واثنان وخمسون لؤلؤة من لآلي المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره، أما شارل الجسور، آخر من تقلد دوقه بروغونيا من أسرته المجيدة فقد كانت قبعته التي يرتديها في المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلى منها دور تشبه الكمثري في هيئتها.

وفي رواية برانتوم أنه لما زار الدوق فالنتينو ولد إسكندر السادس ملك فرنسا لويس الثاني عشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب وكان في قبته يومئذ صفان من الياقوت يسطع منها بريق هائل. كذلك روي عن شارل الأول ملك إنجلترا إنه كان يمتلك جواداً تدلت من مهمازه واحدة وعشرين وأربعمئة قطعة من الماس وري عن ريتشارد الثاني إنها كان يمتلك سترة قدر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت وفي كتابات هول أن هنري الثامن ذهب قبل تتوجه إلي برج لندن (عليه سترة من صفائح الذهب صدها محلي بالألماس وغيره من الأحجار الكريمة وحول عنقه ياقة عالية مزينة بضخم اليواقيت) وكانت خليلة جيمس الأول تلبس قراطاً من

زمرد في إطار من سلوك الذهب، وقد أهدي إدوارد الثاني إلى جافستون درعاً من الذهب مرصعاً بالياقوت وياقة نقشت عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر. هنري الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر، ويمتلك قفازاً آخر عليه أثنتا عشر ياقوته، واثنان وخمسون لؤلؤة من لآلي المشرق يرتدي كلما حمل صقوره، أما شارل الجسور، آخر من تقلد دوقه بروغونيا من أسرته المجيدة فقد كانت قبعته التي يرتديها في المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلى منها دور تشبه الكمثري في هيئتها.

كل هذا حبيب إلي دوريان جراي الحياة في تلك العصور، ولقد كان يجد في قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذة ما بعدها لذة.

لكنه لم يكتف بدراسة العطور والموسيقى والأحجار الكريمة بل أنصرف كذلك لدراسة الأقمشة الموشاة والأقمشة المنقوشة التي يكسو أهل الشمال بها جدران منازلهم الباردة، كما يكسو أهل الجنوب جدران منازلهم المشرقة بالرسوم الملونة، وخصص دوريان جراي كل وقته كعادته حين ينصرف إلى هواية ما ليجمع بدائع النسيج هذه، وأحزنه أن يري يد الزمن تعبت بكل شئ جميل، ولكنه وجد بعض العزاء في أن شخصه أفلت من هذا المصير، فها هو ذا الصيف يتلو الصيف، والنسرين يتفتح ثم يزبل حولاً بعض حول، وليالي الفسق تأتي وتروح فليس فيها خزي جديد، ولكنه باق علي حاله محافظ علي

جماله ، فلا رياح الخريف عصفت بعوده الناعم الرقيق ولا ثلوج الشتاء شوهت وجهه الناضر، ولكنه حي يتمتع بنعمة الحياة، أما الجماد فيذهب مع الرياح.

تري أين يذهب ؟ أين ذلك الثوب الذي نسجته الفتيات السمراوات لإرضاء الإلهة أثينا فلأخذته الآلهة واستخدمته ليتقاتل عليه العمالقة؟ أين الخيمة الكبرى التي ضربها نيرون فوق الكوليزيوم بروما ؟ أين الخيمة الكبرى ضربها نيرون فوق الكوليزيوم بروما، تلك الخيمة الأرجوانية التي رسمت عليه السماء ذات النجوم الثواقب، وفيها أبولو يسرع بعربته التي تجرها الجياد البيضاء ذات الأعنة المذهبة ؟ أين المناديل العجيبة التي نسجت لكاهن الشمس ورسمت عليها أطيب المائدة جميعاً فكأن رائها في وليمة زاخرة ؟ أين أكفان الملك شلبريك التي رسمت عليها ثلثمائة نحلة ذهبية ؟ أين تلك الثياب التي أثارت غضب أسقف ونت (بسباعها وفهودها ودببها وكلابها وغاباتها وصخورها وصياديها وكل ما يمكن لرسام أن ينقله عن الطبيعة) ؟ أين سترة شارل دوق أورليان التي نقش علي أكمامها أغنية مطلعها (لقد غمرني الفرح يا سيدتي) ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رءوسها در ؟ لقد قرأ دوريان جراي عن تلك الغرفة التي أعدتها بقصر رنيس خصيصاً للملكة بورغونيا وزينت (بأقمشة مطرزة رسم عليها بالخيط ألف وثلثمائة وواحد وعشرون ببغاء تحمل جميعاً شعار الملك منقوشاً بالذهب، وخمسة وأحدي وستون فراشة تتحلي أجنحتها جميعاً

بشعار الملكة منقوشاً بالذهب كذلك) كذلك قرأ عن كاترين دي مدسيس إنها كانت تملك سريراً يعرف بسرير الأحزان صنع من مخمل أسود رسمت عليه أهلة وشموس، وكانت للفراش أستار من الحرير موشاة بأكاليل الزهر وقد رسمت علي أرض مذهبة وأرض مفضفضة، والأستار تنتهي بأطراف تتدلي منها اللآلي، والسرير قائم في غرفة جدرانها مكسوة برقاع من النسيج مصففة تحمل شعار الملكة مرسوماً علي القماش المفضض بالمخمل الأسود المقصوص.

وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لديه أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت علي هيئة النساء ارتفاعها خمسة عشر قدماً كلها موشاة بالذهب. وقرأ عن سويسكي ملك بولنڊه أن فراشه الملكي كان مغطي بحرير وذهب من أزمير خطت عليه آيات من القرآن بالفيروز، أما أعمدته فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة ركبت فيها أوسمة لا عدد لها مرصعة بالجواهر مطعمة بالخزف، وقد كان هذا الفراش قبلاً في معسكر الترك خارج فييناترفرف عليه رايه المسلمين.

وظل دوريان جراي يسير علي هذا المنهج عاماً بأكمله يكس أجمال ما تقع عليه عينه من الأقمشة المطرزة والأقمشة ذات الرسوم فمن (موسلين) دلهي البديع المشغول بالخياط الذهبية المكسو بأجنحة الخنافس البراقة، إلي غلائل داكا التي بلغ من شفافيتها أن عرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج وبالماء الصافي وبندي المساء، إلي

أقمشة من جاوة عليها رسوم غريبة، إلي أستار صينية صفراء دقيقة الصنع، إلي كتب مجلدة بالحرير الأسمر النحاسي اللون أو الحرير الأزرق محلاه بالزنبق وما أشبه ذلك من الصور، إلي أقنعة من الحرير موشاة على طريقة الحجر، إلي دمقس صقلية وأثواب المخمل الأسباني السميك، إلي منسوجات جورجيا ذات الأركان المذهبة، إلي حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة. كذلك استهواه جمع الأزياء الكنسية، وقد كان هذا مظهراً من مظاهر ولعه بالكنسية وكل ما يتعلق بها. وفي الصناديق المستطيلة المصنوعة من خشب الشربين التي أصطفت من شرفة بيته الفريلة، كدس دوريان جراي عدد عظيم من الثياب الجميلة النادرة التي يتلبسها الكنيسة (عروس المسيح) كما يسميها الكاثوليك، وهي ثياب فلخرة تحليها الجواهر قصد بها أن تخفي جسد هذه العروس الشاحب الذابل الذي برته الهموم وأدمته الآلام. وما أنزل أحد بها هذا الهموم ولا تلك الآلام ، ولكنها سعت إليها اختياراً.

كذلك كان في مجموعته معطف كبير من الحرير القرمزي، والدمقس ذي الخيوط الذهبية نسجت في حلية متكررة علي صورة رمان كثيرة نبتت كل رمانة منه في زهرة سداسية الأوراق، علي يمين الرمان وعلي يساره رسمت ثمار الأناناس بالدرر الصغيرة، وكانت الشرائط الموشاة المتدلية من المعطف مقسمة إلي أجزاء عليها نقوش تصور مناظر من حياة مريم العذراء من بينها تتوج مريم، وقد رسم

تلجها بالحرير الملون فوق الإزار الذي يغطي رأسها وهو عمل فنان إيطالي عاش في القرن الخامس عشر، وكان في مجموعته معطف آخر من المخمل الأخضر موشي بباقات من الأوراق الأكانتا الشوكية رسمت علي هيئة قلوب، ومن هذه الأوراق خرجت أزهار بيضاء طويلة السيقان رسم تصميمها الداخلي بالخيوط الفضية والبلورات الملونة، وعلي الأبريزم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية بارزة، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحرير الأحمر والحرير الذهبي ومرصعة بالأيقونات التي تصور الشهداء والقديسين، ومن بينهم القديس سباستيان، كذلك كانت في حوزته حلة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير لونه أزرق وحرير لونه ذهبي، ودمقس لونه أصفر، ونسيج من ذهب وعلي الحلة الكنيسة صور تماثيل الألم المسيح وصلبه ثم صور تمثل السباع والطواويس من الرموز.

وكانت لديه عباءات كنيسة من الحرير الأبيض والدمقس الوردي محلاة بأزهار الزئبق وحوار الماء، وكان لديه عدد من أكسية الهياكل المصنوعة من المخمل والكتان الأزرق، وعدد من الأغطية القربان تحمل صور المسيح، وكان يجمع هذه الأشياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكى فيه الخيال.

وكان يتخذ من هذه النفائس التي جمعها في بيته الجميل وسيلة لنسيان مخازيه والهرب ولو إلي حين من مخاوفه القتالة، في داخل الغرفة الموحشة الموصلة التي قضى فيها الشطر الأكبر من صباه كانت الصورة الرهيبة تستند إلي

أحد الجدران حيث وضعها هنالك بنفسه، وأستدل عليها الستار الملون بأرجوان وذهب، ومعلمها المحجوبة تتغير يوماً بع يوم وتسجل التدهور الذي ينزل بحياته، وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة، بل ينسي الصورة الممسوخة وينسى معها العذاب الذي يفتك بروحه ويسترد مرحة الأول وشوقه إلي الحياة، ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ويقصد إلي وكر من تلك الأوكار الموبوءة، وهناك يقضي أياماً متصلة حتى يقصيه أهلها فيعود إلي داره ويجلس قبالة الصورة الحزينة كاسف البال يمتلئ قلبه بالملت للصورة ولنفسه معاً أو يجلس أمامها مسروراً بخطاياها الفريدة لأنها فريدة ، راضياً بالمسوخ الذي يحقق بخياله المشوه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة.

وبعد أن مرت أعوام شق عليه أن يطيل من أسفاره إلي الخارج فنزل عن الفيلا التي كان استأجرها ببلده توفيل مع اللورد هنري، كما نزل عن البيت العربي الأبيض الذي كان قد استجاره كذلك بمدينة الجزائر مع اللورد هنري وقضي فيه الشتاء بعد الشتاء...، شق عليه أن ينفصل عن الصورة طويلاً لأن الصورة صارت جزءاً متمماً لحياته وأستبد فيه الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته برغم أنه أحكم غلقها بالقضبان.

وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملاحظه قد أوشكت أن تنطمس من الصورة، ولم يبق منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظاً تحت الوجه القبيح الممسوخ، ولكن هذا لن يدل أحداً علي شئ مما يجري، ولن

يعيّره أحد بأنه صاحب الوجه القبيح فما هو بالذي رسم الصورة، ولا جناح عليه أن يكون الوجه قبيحاً وممسوخاً بل أن يكون الوجه أية في القبح والمسخ. ولو أنه صرح الناس بالحقيقة لكذبوه.

ومع ذلك فقد كان فزعاً واجفاً. تراه في بيته الكبير بمقاطعة نوتجهام يؤنس أصفياه من الشباب الوجهاء، ويعرض عليهم ما يذهلهم ويذهل جميع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء، وفيما هو كذلك تراه يترك أضيافة فجأة ويعود إلي لندن علي استعجال ليتحقق من أن باب الغرفة مازال سليماً والصورة مازالت في موضعها، وكان العرق البارد يتصبب من جسده كلما تصور أن الصورة قد سرت، فقد كان تخشي أن يطلع الناس علي سره الرهيب، بل لقد كان يحس أحياناً أن الناس قد بدءوا يشكون في حقيقة أمره.

لقد كان معجبه كثيرين، ولكنه نجح كذلك في إثارة الشك في قلوب البعض، وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بناد من نوادي لندن يؤهله نسبه الكريم ومكانته في المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه أن يرفض!.

وقد قيل عنه إن صديقا له اصطحبه ذات مرة إلى نادي تشرشل فما أن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر في استياء واضح وانصرفا. وحين تجاوز الخامسة العشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة، قيل عنه أنه شوهد في شجار مع بعض الملاحين من الأجانب في بؤرة قدرة بمجاهل حي هوايت تشابل الوضع،

وقيل عنه إنه كان متصلاً بعصابة من اللصوص ومزيفي النقود. وإنه درس منهم فنون اللصوصية والتزييف، وكان في كل مرة يختفي لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس، وما أن يظهر في المجتمع من جديد حتى يتهامس عنه الناس في أركان الغرفات أو يتجاهلونه في المجتمع في احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلهم ينفذوا إلى سره الدفين.

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشيء من هذه الإهانات، وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه يستكثرون عليه مرحة الدائم الذي لم تعكره الأحزان يوماً، وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذي تحدى الزمن فيطلقون عليه هذه التهم النكراء التي ترددها الألسنة. ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصائه يجافونه من وقت لآخر، وأن بعض اللائي عشقنه عشقا لا حدود له وكسرن من أجله أقدم التقاليد، وتعرضن في هواه لأفحش أنواع النقد كي يشحن لونا من فرط الخزي أو من فرط الرعب كلما حل دوريان جراي.

غير أن هذه الفضائح زادته فتنة في نظر الكثيرين وأحاطته بجو من الرهبة والغموض لأن المجتمع المتحضر على الأقل لا يبادر إلى قبول الأقاويل التي من شأنها أن تحطم من اجتمعت لهم الفتنة والجاه، وهو يرى بغريزته أن السلوك الاجتماعي أهم شأنًا من الأخلاق، فخير للمرء ألف مرة أن يكون له طاه ماهر من أن يكون له وقار المحافظين، فلو قدم لك رجل عشاء مؤلماً أو نبذاً تافهاً

فكيف يعزبك أن تعرف أن حياة مضيفك الخاصة نقية لا غبار عليها؟؛ لقد قال اللورد هنري مرة أن أسمى ما في العالم من فضائل لن تعوض على الإنسان خسارته إذا أكل لحمًا لم يتم تسخينه، ولعل في قوله شيئاً كثيراً من الصواب، فمقاييس المجتمع السليم هي مقاييس الفن السليم، فإن لم تكن وجب أن تكون كذلك، لأن الشكليات جوهرية في كل مجتمع راق، والواجب يقضي بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال، وأن نسرف فيها حتى تبتعد بنا عن الواقع، والواجب يقضي بأن يجتمع فيها كل ما في التمثيليات الغرامية من نفاق، وكل ما في هذه التمثيليات من سحر وذكاء يجلبانها إلى قلوبنا، فما النفاق برذيلة، وما النفاق إلا وسيلة تتعدد بها شخصياتنا.

مهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسفة دوريان جراي وكثيراً ما كان يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسيط ثابت جوهرى يصح الاعتماد عليه، لأنه كان يرى أن الإنسان مخلوق مركب متعدد الشخصيات لا حصر لإحساساته، تراكم في نفسه تراث من الأفكار والعواطف على تراث من الأفكار والعواطف، ودنست جسده أسقام الموتى وهي محزنة بشعة، وكان يشفق كثيراً إلى استعراض صور أسلافه في القاعة الموحشة الباردة في بيته الريفى ويتفحص وجوه أولئك الذين جرت في عروقه دمائهم.

فهذا فيليب هربرت الذي وصفه فرانسيس أزوبورن في مؤلفه ""مذكرات عن عهدي الملكة إليزابيث والملك جيمس بأنه كان صفى رجال البلاط لحسن طلعته وجهاله

الذي ذوى قبل الأوان"، لقد كان يخيل لدوربان جراي أحياناً أن حياته ما هي إلا من حياة هربرت الشاب، وأن سم الرذيلة انتقل هكذا من جسد إلى جسد عبر القرون حتى مشى في عروقه، أترى هل لصلاته العجيبة إلى الآلهة أن تبقى له على شبابه، وتفعل ما بدا لها بالصورة، وصلاة المخبول كما وصفها بازيل هولوردد، أترى تلك الصلاة التي غيرت مجرى حياته تماماً ونبتت دون وعي منه تخفف من حسرته الغامضة على أطلال هذا الجمال القديم؟!

هذا السير أنتوني شيرارد يقف أمامه مرتدياً قميصه الأحمر الموشى بالذهب، وسترته المرصعة بكريم الجواهر، مذهب الكمين حول المعصمين وقد ارتاح درعه الأسود المفضض عند قدميه، ترى ماذا ورث عن هذا الرجل؟ لقد كان السير أنتوني شيرارد خليل جيوفانا غانية نابولي: هل تراه أورثه الميل إلى الفجور؟ أليس جائزاً أن مغامرات دوربان جراي إن هي إلا الأحلام التي لم يحسر هذا الميت على تحقيقها؟ ثم هذه الليدي إليزابيث ديغير تطل عليه من اللوحة الباهتة في إشراق وقد كست رأسها بغطاء شفاف رقيق وزينت وسطها بالآليء وجرت في كميتها عروق خضراء، إنها تحمل بيمنها زهرة وتمسك بيسراها إناءً مطعماً بالخزف فيه ورود حريرية بيضاء وبجوارها مائدة، وعلى المائدة تفاحة وماندولين وعلى حذائها الدقيقين وردتان كبيرتان خضروان من نسيج. لقد كان يعرف قصة حياتها والأقاويل التي تروى عن عشاقها الكثيرين. أتراه ورث عنها طبعها؟ وإن عينيها البضاوين عليهما جفنان

ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى.
ثم هذا جورج ويلوبي يلبس شعره المستعار المصبوغ
وثيابه العجيبة الألوان. لقد كان منظره جهنمياً، فوجهه قائم
عابس حزين وشفته الشهوانيتان قد ارتسم عليهما احتقار
الناس، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير
دقيق الصنع فأوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التي تزين
أصابعه. لقد كان أميراً من أمراء الأناقة في القرن الثامن
عشر، وكان في شبابه من أصفياء اللورد فيرارز. وغير هؤلاء
جميعاً كان هناك اللورد بيكنهام صديق جورج الرابع أيام أن
كان وصياً على عرش إنجلترا، ونديمه أيام دعارته وأحد
شهود زواجه بمستر فترزبروت. لقد بدا آية في الملاحظة
بشعره الكستنائي المجعد ووقفته التي تنبئ بالكبرياء، ترى
ماذا ورث عنه؟ لقد ساءت سمعة اللورد بيكنهام في كل
مكان، وكان يترأس الحفلات البوهيمية الحمراء في
كارلتوس هاوس، ومع ذلك فقد رصعت صدره نجمة وسام
ربطة الساق وهو الوسام الأول في المملكة كأنه بطل قومي،
وها هي ذي صورة زوجته قائمة إلى جوار صورته، وهي
امرأة صفراء الوجه رقيقة الشفتين متشحة بالسواد، إن دمها
يجري كذلك في عروق دوريان جراي، فيا للعجب من هذا
الخليط! ثم ها هي ذي أمه تطل عليه من لوحتها بوجه
يشبه وجه الليدي هامتلون محبوبة نلسون وكأن شفتيها
مبللتان بالنبذ، إن دوريان جراي يعرف ما أخذه عن هذه
المرأة، لقد أخذ عنها جمالها وعشقه لجمال الآخرين، وها هي
ذي تنظر إليه في إشراق وهي في ثوبها المحلول الذي يشبه

أثواب العذارى السكارى في أساطير اليونان، وعلى شعرها انتشرت أوراق العنب، وفي يدها كأس سال منه النبيذ الأرجواني، لقد ذبلت أزهار القرنفل التي زين بها الرسام صورتها، ولكن بريق عينيها لا يزال قويا وصفاء عينيها لا يزال عميقاً نعم، أن عينيها تتبععانه أينما توجه.

لكن دوريان جراي لم يكن له أسلاف في الدم فحسب، بل كان له أسلاف في الأدب كذلك، أسلاف لعلهم أوثق به رباطاً من أصلابه، وأقرب إليه منهم في الطبع والشخصية وهؤلاء تأثيرهم واضح في النفس لا خفاء فيه، بل لقد كان يتوهم أحيانا أن تاريخ الإنسانية ليس إلا ترجمة لحياته هو، لا حياته الواقعة بأحداثها وظروفها، ولكن حياته كما رسمها له وصورتها له عواطفه، وكان يحس بأنه يعرف الأبطال الذين زينوا الرذيلة لعيون الناس وتفننوا في الشر، يعرفهم واحداً واحداً وبدا له أن حياتهم لم تكن إلا نسخاً متكررة من حياته.

فبطل القصة العجيبة الذي كان له سلطان عظيم على نفسه كان يشاركه هذا الإحساس بأن الدنيا قد اجتمعت فيه، وهو يقول في الفصل السابع أنه جلس جلسة الإمبراطور تايرسوس في حديقة بجزيرة كابري تغطي رأسه أوراق الغار لتمنع عنه الصواعق مطالعاً كتاب اليقانتيس المخزي، على حين كانت الأقزام والطواويس تختال من حوله ويرقص أمامه عازف الناي كما يرقص حامل المبخرة، وهو يقول أنه ثمل وعربد مع ساسة الخيل ذوي القمصان الخضراء في مزادهم، ثم أكل في صحيفة علاجية مع جواد

على صدره كسوة رصعتها الجواهر، كما فعل القنصل كالجيو لا وهو يقول أنه جال كما جال دوميتياس شاحب الوجه في دهليز على جانبيه مرايا من رخام، باحثاً في صفحتها على خيال الخنجر الذي اعتزم أن يقضي به على نفسه وقد أتلّف روحه الملل، ذلك الداء الذي يصيب من منحتهم الحياة كل شيء ولم تبخل عليهم بشيء، وهو يقول أنه نظر إلى دكاكين الجزارة في سوق الجزارة في سوق المدينة من خلال زمردة شفافة صافية ثم وجد نفسه محمولاً في عربة من أرجوان ودر، تجرها بغال فضيه الحدي، والعربة تجري في شارع الرمان قاصدة إلى قصر الذهب، وسمع الناس بطول الطريق ينادون: يا نيرون.. يا نيرون، يا نيرون! كذلك يقول أنه صبغ وجهه بالألوان كما فعل الأجبال وجلس بين النساء يغزل كما يغزلن وأتى بالقمر في قرطاجنة وزوجه بالشمس زواج الروح بالروح.

كما قرأ دوريان جراي هذا الفصل وما بعده من فصول! لقد قرأ في الفصل الثامن والفصل التاسع وصفاً عجيباً ساحراً لأولئك الأشقياء الذين هاموا بالرزيلة وكلفوا بالدماء وضاقوا بالضجر فاستحالوا وحوشاً ضاربة أو ضاع صوابهم فدخلوا في زمرة المجانين، قرأ عن فيليبو، دوق ميلان الذي ذبح زوجته وبلل بالسم شفيتها لعل عشيقها يلعبه فيموت، قرأ عن بيترو باربي عاهل البندقة الذي عرف باسم بولس الثاني، وكيف دفعه الغرور إلى أن يلقب نفسه ببولس الجميل، وكيف باع تلجه بشهوة أثيمة نكراء وهو يقدر بمائتي ألف فلورين، كذلك قرأ عن جان ماريا

فسكونتي الذي كان يستخدم كلاب الصيد لتطارد الآدميين، وكيف وجدت جثته بعد قتله مغطاة بأزهار نثرتها عليه بغى كانت متيمة بحبه، وقرأ عن بورجيا قاتل أخيه وعن جواده الأبيض وعن معطفه الملطخ بدم بيروتو وقرأ عن بيتروور ياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد الباب سيكتوس الرابع المفضل لديه، وهو الذي أذهل الناس جماله وفجوره معاً، وهو الذي استقبل ليونورا ملكة أراجوان في خيمة من الحرير الأبيض القرمزي ملأى بالخور ووحوش الأساطير وطلب صبياً من الصبيان يقوم بخدمته في هذه الوليمة بماء الذهب لعله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقى الآلهة. وقرأ عن الطاغية عزلين الذي أصيب بداء الكآبة ولم يفرج عنه إلا مرأى القتلى وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه أنه ولد شيطانا من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه في اللعب، وقرأ عن جان باتستا تشييو الذي لقب نفسه بتشيو البريء وهو الذي حقنه طبيب يهودي بدم ثلاثة من الصبية، وقرأ عن سيجيسموندو مالا تستا عاشق إيزوتا وسيدريميني وهو الذي أحرقت في روما صورته ولقبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق بوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لجيرفا ديسي في كأس من الزمرد وبنى كنسية وثنية ليتعبد فيها المسيحيون تحليداً للجريمة من جرائمه المخزية، وقرأ عن شارل السادس الذي عشق زوجة أخيه عشقا قوياً مدمراً حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون فلما أن ذهب عقله لم يكن يهديء من هيلجه إلا مرأى رقاع غريبة رسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون. وكذلك قرأ عن

جريفو نيتو باليوني ذي الشعر المجعد والقبعة المرصعة
بالألبيء والسيرة المحبوكة وهو الذي فتك بأستوري
وبعروسه وبسيمو نيتو وخادمه فلما أن حضرته الوفاة
بقصر بيروجيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته
أتالانتا بعد أن صبت عليه اللعنات.

كل هؤلاء قرأ دوريان جراي عنهم فسحرتهم فظاعتهم،
وكان يراهم في اليقظة والنام، حقا لقد رأى عصر النهضة
الأوربية من فنون السم عجا. عرف الخوذة المسمومة
والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة
والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة. أما دوريان جراي
فقد فتك بروحه كتاب مسموم ، فلقد كان يجد في الشر
أحيانا ما يحقق فكرته من الجمال.

الفصل الثاني عشر



ليلة التاسع من نوفمبر وهي الليلة التي تسبق ذكرى
عيد ميلاده الثامن والثلاثين مباشرة حدثت مجموعة من
الأحداث الجسيمة التي كانت كفيلة بأن تحفر ذلك اليوم في
ذاكرة دوريان جراي.
كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساءً عندما خرج

من بيت اللورد هنري، كان قد تناول معه العشاء، وسار عائداً باتجاه منزله وهو يتقي البرد والضباب بفرو ثقيل، وبينما الحال كذلك خرج رجل من الضباب في منطقة ميدان جروفنور وساوث أودلي ستريت يبدو مسرعاً، كان يرفع ياقة سترته ويحمل حقيبة في يده....، كان الرجل هو بازيل هولو ورد.

في تلك اللحظة اعترى دوريان فزع لم يعرف له سبباً فتجاهل إحساسه المفاجيء ومضى متعجلاً باتجاه بيته، لكن بازيل هولو ورد لما رآه وعرفه توقف عن اندفاعه واستدار ليلحق به، فلما قبض على ذراعه قال:

- صدفة أكثر من رائعة يا دوريان، لقد انتظرتك طويلاً في مكتبتك منذ الساعة التاسعة تقريباً، ولما يأتست من حضورك استأذنت من الخادم الذي أرهقته بالسهر وتركته لينام، ثم انصرفت.

مضى بازيل مسترسلاً: على فكرة سأسافر بقطار منتصف الليل إلى باريس، وكم كنت أريد رؤيتك قبل سفري، ولما رأيته في الضباب عرفتكم من فرائك! ثم استطرد متعجباً:

....ألم تعرفني أنت أيضاً يا دوريان؟

- وكيف لي أن أعرفك في هذا الضباب يا بازيل، إنني لا أستطيع أن أتبين ميدان جروفنور فكيف تنتظر مني ما ذكرت؟، إنني رغم ثقتي في أن منزلي هنا إلا أنني غير قادر على تحديد مكانه بالضبط!، لقد أزعجتني بنأ سفرك لأننا لم نلتق منذ زمن بعيد ولذا فإنني أتعشم ألا تغيب هناك

طويلاً.

- سوف أمكث هناك مدة ستة أشهر تقريباً، وسوف
استأجر ستديو في باريس سوف أعتزل فيه العالم حتى أنتهي
من صورة عظيمة يملأ تصميمها الرائع رأسي،... ولكن أنا
ما جئت لك لتحدث عن نفسي، ها نحن قد وصلنا بابك
فهل تسمح لي بالدخول لأتحدث إليك في أمر هام؟
رد دوريان جراي بتكاسل وهو يصعد الدرج ويفتح
الباب:

- يسرني طبعاً أن أدعوك يا بازيل، ولكن ألا يعطلك
ذلك عن موعد قطارك؟
نظر هولو ورد في ساعته تحت ضوء المصباح المخنوق
بالضباب قائلاً:

- ما زال أمامي متسع من الوقت، فالقطار لا يتحرك من
المحطة إلا بعد منتصف الليل بربع الساعة، والساعة الآن
الحادية عشرة، كما أنني كنت في طريقي إلى النادي لأبحث
عنك هناك، وكما ترى فإنني لن أحتاج وقتاً لجمع أشياءي،
لأن الأشياء الثقيلة سبقتني إلى المحطة، وكل ماسوف أحمله
هو هذه الحقبة التي تراها، وعلى أي حال فالمسافة من هنا
وحتى محطة فيكتوريا لا يستغرق الوصول إليها أكثر من
ثلث الساعة.

فابتسم دوريان جراي قائلاً:

- منظر عجيب بسترتك ذات الياقة العريضة
وبحقيبتك المنتفخة هذه، هيا أدخل قبل أن يسبقك الضباب
إلى الدخول، ولكن لا تتحدث معي في أشياء هامة لأننا

نعيش في عصر خلا من كل ماله أهمية، أو على الأقل
يجب أن يخلو....

سار هولو ورد خلف دوريان إلى المكتبة وهو يهز رأسه
موافقاً على كلامه، كانت نار المدفأة المكشوفة متقدة،
والمصابيح مضاءة، وفي الغرفة مائدة عليها صندوق مفتوح
مصنوع من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الخمر،
وبجوارها بعض زجاجات الصودا، بالإضافة إلى أكواب
زجاجية ضخمة.

قال هو لو ورد مشيراً إلى الخمر:

- لقد أشعرتني خادمك أنني في بيتي، لقد أعطاني من كل
شيء بما في ذلك سجائرك المذهبة، إنه كريم وهو أفضل من
خادمك الفرنسي الأول ألف مرة، ولكن أخبرني مالذي
حدث لخادمك الفرنسي؟

- ربما يكون قد تزوج بوصيفة الليدي رادلي وفتح لها
محلاً للملابس في باريس لتفصيل الملابس على الطريقة
الإنجليزية، وقد عرفت أن الموضة الآن هناك هي الولوج بكل
ما هو إنجليزي، أليس هذا غباء من الفرنسيين؟،

لكن فيكتور كان خادماً جيداً على عكس ما تظن، وعلى
الرغم من أنني كنت أنفر منه إلا أنه لم يجعلني أشكو منه
عندما كان في خدمتي، حتى شكوكي فيه اتضح لي أنها
بدون أساس لأنه كان شديد الإخلاص، كما ظهر عليه تأثره
الشديد حين ترك خدمتي....

استدار دوريان متسائلاً: هل ترغب في كأس أخرى من
الكونياك مع الصودة يا بازيل، أم تفضل الرين مع الميه

الغازية؟

لم ينتظر إجابة وهو يسترسل: إن نبذ الرين مع الميه
الغازية هو شرابي المفضل، ولا بد أن لدي منه بقية في
الغرفة الأخرى.

فرد الرسام وهو يتخفف من قبعته ومعطفه ويلقي بهما
على الحقيبة التي وضعها في ركن الغرفة:

- أشكرك ويكفي ما شربت... أما الآن فإنني أريد أن
أحدثك في موضوع جاد يا دوريان، وأرجو ألا تظل عابساً
لأنك بشكلك هذا لا تشجعني على الكلام.

فقال دوريان بصوته الخشن الجاف المعهود وهو يرتقي
على الأريكة:

- في أي شيء تريد أن تحدثني؟

- أرجو ألا تحدثني عن نفسي لأنني لا أطيق نفسي
الليلة، وأرجو أن أكون شيئاً آخر.

فأجاب الرسام بصوت جاد وعميق:

- بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان، لا بد لي أن
أصارحك بهذا الحديث ولن أجور على وقتك أكثر من
نصف ساعة.

تنهد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال متسائلاً

- نصف ساعة بأكملها؟

- لم أطلب منك شيئاً عظيماً يا دوريان، ثم إنني أريد
مصلحتك بكلامي هذا، ومن المهم أن تعرف أن الناس في
لندن يتناولون سيرتك بما يشينك.

- لا أحب أن اعرف شيئاً مما يقال عني، أنا أحب الفضائح

إذا رويت عن الآخرين!، أما الفضائح التي تروى عني فلا أهتم بها لأنها لا تأتي مجدداً، كما أنها تفتقد الإثارة والتشويق!

- لكن الواجب يحتم عليك الاهتمام بها مثل أي إنسان محترم تهتم سمعته لأنك لا يمكن أن ترضى أن يصورك الناس في صورة المجرم الآثم؟!، أنا أعرف أن لك مكانتك و ثروتك، ولكن المكانة والثروة لن ينفعا الشخص إذا ساءت سمعته.

واصل قائلاً: أنا بالتأكيد لا أصدق كلامهم وأرفض تصديقه، فالرذيلة تلازم أصحابها وتطل من وجوههم بينما وجهك يبدو لي مثلاً للطهر والنقاء، أسمع الناس يتحدثون أحياناً عن الرذائل المستورة، وفي رأيي أن الرذيلة المستورة عبارة عن شيء لا وجود له، لأن الشخص الذي ابتلي برذيلة أرى آثارها واضحة في علامات فمه وتهل جفنيه بل وفي هيئة يديه أيضاً، في العام الماضي جاءني رجل من من معارفك لن أذكر اسمه وطلب مني أن أرسم صورته، لم أكن قد رأيته أو سمعت عنه من قبل لكنني عرفت عنه الكثير بعد ذلك، وعلى الرغم من أنه عرض عليّ أجراً سخياً إلا أنني رفضت لأنني رأيت في هيئة أصابعه ما كرهت وقد صدقت ظنوني فيه وعلمت أن حياته دنسة إلى حد بعيد، أما أنت يا دوريان فإنني لا أصدق كلمة واحدة مما يقال عنك لأن وجهك النضر ينطق بالبراءة، لكنني لا

ألقاك إلا نادراً كما أنك لم تعد تأتي إلى الاستديو،

و حين اسمع الناس يتحدثون عنك بالشر لا أعرف ماذا أقول، مالذي جعل الدوق بيرويكي ينصرف من النادي لما وصلت أنت؟ وما الذي جعل الكثيرين من وجهاء لندن يقاطعونك؟!

مضى بازيل موضحاً: أنت تعلم أنني كنت صديقاً للورد ستافلي وقد التقيته الأسبوع الماضي حتى انتهينا إلى الحديث عنك بمناسبة الصورة المصغرة التي أعرتها لمعرض دولي وقتها مط ستافلي شفّته امتعاضاً وقال عنك إنك قد تكون من من أصحاب الذوق الرفيع ولكنك رجل لا يجوز لفتاة طاهرة أن تتعرف به، ولا يجوز لإمرأة شريفة أن تجلس في مكان تجلس أنت به، ولما نبهته إلى كوننا أصدقاء وطلبت منه تفسيراً لما يقول سرد لي الأعاجيب أمام الحاضرين، وهي تهم مشينة كلها يا دوريان، لقد قال إنك تحطم حياة الشباب بتأثيرك السيء فيهم، ومنهم ذلك الفتى تعس الحظ ضابط الحرس الذي انتحر، وكنت من أخلص أصدقائه، ومنهم السير هنري أشتون الذي اضطر إلى الرحيل من انجلترا ملوث الشرف وقد كنتما دائماً متلازمين، ومنهم السير سنجلتون الذي أنهى حياته بطريقة مفجعة، ومنهم ولد اللورد، ألم تكن أنت الذي أضعت مستقبله؟!

لقد قابلت أباه بالأمس في شارع سانت جيمس، كان حزيناً وقد هدم العار بنيانه! ثم دوق بيرث الذي يعيش جحيماً لا يطاق ولا يخالطه إنسان محترم.

امتعض دوريان وعضه الألم وقال باستهزاء بالغ:

- كفى كلاماً يا بازيل لأنك تخوض في أشياء لا تعرف ملابساتها ولا مداها.. أنت تسألني عما جعل بيرويك يترك النادي حين أحل أنا به وأنا أخبرك أنه يفعل ذلك لأنني أنا من يعرف كل شيء في حياته وليس هو، فالدم الذي يجري في عروقه هو دم الإثم والجريمة، فكيف له أن يحيا حياة صالحة؟

وأنت تسألني عن هنري أشتون ودوق بيرث فهل أنا مثلاً من علمهما مبادئ الرذيلة؟، ثم إذا كان ولد كنت يفضل أن يتصيد لنفسه زوجة من الشارع فكيف ألام أنا على ذلك؟ وإذا كان آدريان سينجلتون يوقع على العقود بأسماء أصدقائه فلست أنا المسئول عن

أفعاله....، أنا أعرف ميل الانحيز لنهش أعراض الناس، فأبناء الطبقة المتوسطة يعرضون أخلاقياتهم العتيقة على موائدهم لشعروا أنهم داخل المجتمع الراقي لا خارجه، وليوهم بعضهم بعضاً بأنهم من أصفياء أبناء البيوت التي يخوضون في أعراضها، وفي إنجلترا يكفي أن يجتمع لك شرف المولد والذكاء معاً لكي يتناولك الناس بالسنتهم غيرة وكمداء، ثم أين هي الحياة الفاضلة التي يحياها أولئك الذين يتشدقون بالحديث عن الفضيلة هل نسيت يا صديقي أننا نعيش في وطن النفاق!.

قال هولو ورد:

قد يكون هذا خارجاً عن الموضوع يا دوريان، أنا أعرف مثلاً أن إنجلترا بلد منحط، وأن المجتمع الإنجليزي مجتمع

فاسد من أساسه، من أجل هذا أردتك أن تكون نموذج جمال يحتذى، لكنك من أسف خيبت ظني فيك، إذا كان من حقي أن أحكم على أي إنسان بما يتركه من تأثير في أصدقائه فإن أصدقاءك قد فقدوا إحساسهم بالشرف وقدرتهم على فعل الخير ورغبتهم في النقاء لأنك شجعتهم على اللذات إلى أبعد مدى حتى هوىوا إلى الحضيض، وأنت من سقتهم إلى هذا المصير! نغم أنت من سقتهم!! وها أنت تبتسم بلا مبالاة كما لو أنك لم ترتكب ذنباً، إنني لم أذكر لك سوى القليل من أفعالك، لقد كنت أنت وهاري لا تفرقن كأخين، ومع ذلك جعلت اسم أخته مضغة على كل لسان، ولم ترع للأخوة حقها!.

- الزم حدودك يا بازيل واعقل ما تقول.

- دعني لأنني لا بد أن أقول لك كل شيء، وعليك أن تسمع...، إن الليدي جويندولين كانت حين قابلتها أول مرة سيالة فاضلة ولم تكن تذكر إلا بالخير فهل بقيت في لندن سيالة كريمة واحدة ترضى بأن تخرج للتنزه معها في هايدبارك؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد ابعدها عنها، روايات تقول بأن الناس رأوك تتسلل عند الفجر خارجاً من دور الفحش وتتردد متخفياً على أفذر مباءات لندن، هل صحيح هذا يا دوريان؟... هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟! لقد كنت أضحك غير مصدق وأنا أسمع عنك مثل تلك الأقاويل، أما الآن فإنني أرتعش كلما سمعتها، إن بيتك الريفي صار بيت

دعارة....! وأنت لا تعرف ما يقال عنك يا دوريان، لن أقول إنني لا أريد الوعظ على عادة الوعاظ عندما يبدأون كلامهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ثم يثبت عكس ذلك كما قال هاري ذات مرة، أنا أعترف لك بأنني أريد أن أعظك لعلك تتعظ.

أرجوك يا دوريان أن تلتزم بحياة شريفة تجبر الناس على احترامك، وأن تتخلى عن رفاق السوء، أرجوك أن تغسل اسمك من الأقدار التي علقته بهوتعود صفحتك بيضاء... أرجو ألا تتصنع عدم الاكتراث كما تفعل الآن لأنك تملك تأثيراً في أقرانك فاجعل تأثيرك حميداً ولا تجعله هداماً، يقولون إنك تفسد كل من تخالطه، وبأنك ما دخلت بيتاً إلا وجلبت له العار، ولست أدري أصحيح ذلك أم لا؟، وقد آن لي أن أعرف الآن لأنني لا أراك إلا نادراً، يقولون عنك أشياء لها قوة الحقائق، فاللورد جلوستر مثلاً وهو من أوفى أصدقائي الذين عرفتهم وقت كنت أدرس في أكسفورد أطلعني على خطاب كتبه زوجته إليه وهي على فراش الموت بمنتهى حيث تخلى عنها الجميع، لقد قرأت في الخطاب اسمك مقترناً بأشع اعتراف عرفته حتى لحظتنا هذه، فقلت له إن هذا غير معقول لأنني أعرفك معرفة تامة وأعرف أنك لا تستطيع أن تأتي بفعل مما نسب إليك ولكنني الآن في حيرة من أمري وأمرك، ولم أعد على يقين أو ثقة من أنني أعرفك حق المعرفة!، ولن تتبدد شكوكي إلا إذا رأيت روحك!.

نهض دوريان جراي من الأريكة هادئاً شاحب الوجه

وقال معقّباً ومتعجباً:

- إلا إذا رأيت روحي؟!

أجاب هولـو ورد ببطء وصوت عميق مغلف بالحزن والأسى:

- نعم، إلا إذا رأيت روحك...، ولكن الله وحده هو الذي يستطيع أن يرى روحك.

ضحك دوريان جرائ عالياً ضحكة تحمل مرارة وسخرية، وحمل مصباحاً من فوق المائدة وهو يقول:

- بل سوف تراها أنت الليلة، لأجد ما يمنع أن تراها، وبعد رؤيتها أنت حر لكي تصفها للعالم كله وأعتقد أنه لن يصدقك أحد، وإن صدقوك فسوف يزداد إعجابهم بي، فأنـا أعرف أهل هذا الجيل أفضل منك

على الرغم من أحاديثك المملة عنهم، هيا بنا فقد قلت ما فيه الكفاية عن انحطاط الروح والآن فلتر هذا الانحطاط وجهاً لوجه!.

كانت كل كلمة تكلمها تحمل معاني الكبرياء الشديدة، وضرب الأرض بكعبه بطريقة صبيانية وقحة، وامتلأ بفرح كبير لأن سره الذي أضناه كتمانـه سيخرج إلى النور الآن، ولأن الرجل الذي رسم الصورة التي خلدت عاره سوف يقضي بقية حياته شقياً يتذكر ما جنت يدها.

واقترب منه ونظر ملياً في عينيه الثابتتين واستأنف كلامه من جديد بقوله:

- نعم سوف أريك روحي، سوف ترى ما لا يراه إلا الله

كما تقول! فسكت هولو ورد ثم ارتد قليلاً للوراء وصاح قائلاً:

- هذا كفر يا دوريان، لا تقل مثل هذه الأشياء الشائنة لأنها تخلو من كل معنى.

وضحك دوريان من جديد وقال:

- هل تظن ذلك؟

- بل أعرفه، وأنا ما قلت لك الذي قلته إلا من أجل مصلحتك فأنت تعلم جيداً أنني كنت دائماً صديقاً وفياً لك.

- ابتعد عني، وأكمل حديثك إذا شئت.

فتجهم وجه الرسام وشعر أنه كما لو كان قد طعن بمديّة أو سكين، وامتلأ قلبه برثاء لدوريان جراي، كما لام نفسه على تطفله على حياته الخاصة وهي ملكه يفعل بها ما يشاء، فلو أنه حكم ضميره كان في مأمن من كل ذم أو تقرير، ولو كان قد ارتكب عشر ما يدعيه عليه الناس من آثام لتحولت حياته إلى جحيم متصل، ثم اعتدل بازيل هو ورد وسار باتجاه المدفأة وظل يتأمل خشب الورد المحترق فيها وأيضاً الرماد الأبيض الذي يكسو الجمر المتأجج، وأخيراً قال الشاب بصوت واضح وقاس:

- أنا في انتظارك يا بازيل.

والتفت بازيل إليه وقال:

- كان ذلك ما أردت قوله، وأرجوك أن ترد على هذه التهم التي يلصقها الناس بك، ولو أنك قلت لي الآن إن ذلك كله غير صحيح لصدقتك على الفور، انكر هذه

التهم يا دوريان، نعم انكرها وسأكون سعيداً...، إنك لا تدري مدى ألمي وعذابي...، ثم مضى مستطرداً بحيرة ودهشة:

- يا إلهي! إنني لا أحتمل أن تعترف لي... بأنك حقاً ممسوخ النفس، منحط الخلق، وتعيش في العار.
فابتسم دوريان جراي ابتسامة مغلقة بالازدراء وقال بهدوء:

- تعال معي إلى الطابق العلوي يا بازيل، فهناك أكتب يومياتي بانتظام، كما أنني لا أسمح لأحد بالإطلاع عليها.
- سأذهب معك مادام ذلك يرضيك، آه لقد فاتني القطار ولكن هذا لا يهم فمن الممكن أن أسافر غداً إلى باريس، ولا تطلب مني أن أقرأ الليلة شيئاً لأن كل ما أريده هو جواب صريح عن سؤال صريح.

- ستجد هذا الجواب الصريح في الطابق العلوي، أما هنا فلن أجيبك على أي شيء، هيا أصدد معي لتقرأ الجواب، ولن تقرأ كثيراً.

الفصل الثالث عشر





خرج دوريان
من الجرافة وبدأ يصعد السلم وكان
بازيل هولوردر يسير خلفه، كان وقع خطواتهما خفيفاً
بما يناسب هدأة الليل، وكان المصباح يصنع ظلالاً ماردة
على السلم والحائط، هبت في تلك الأثناء ربح خفيفة
هزت نوافذ المنزل فأحدثت صوتاً، ولما وصلا نهاية السلم
وضع دوريان جراي المصباح على الأرض ثم أخرج المفتاح
من جيبيه وأداره في الباب وقال بصوت خفيض:
- هل ما زلت مصراً على جواب يا بازيل؟

- نعم

فأجاب الفتى مبتسماً:

هذا شيء يسعدني.

ثم أضاف في شيء من الخشونة:

- أنت الشخص الوحيد الذي يحق له أن يعرف شيئاً

عني لأنك تركت في حياتي أثراً قد لا تعرف أنت مداه!

ثم عاد ورفع المصباح وفتح الباب ودخل فقابله تيار من
الهواء البارد ارتفع على إثره ضوء المصباح لبرهة واشتد لهبه
البرتقالي فارتجف دوريان جراي وهمس لصاحبه وهو يضع

المصباح على المائدة:

- اقبل الباب وراءك.

نظر هولو ورد حوله متفقداً الغرفة فعرف أن المكان لم يستعمل منذ سنوات، ورأى على الحائط قطعة من القماش الفلمنكي عليها رسوم لعب فيها الزمن بأدواته، ورأى صورة يحجبها ستار، وأبصر صندوقاً إيطالياً قديماً وحامل كتب فارغاً تقريباً ومائدة وكرسیاً، كان ذلك ما استطاع رؤيته، وفي اللحظات التيكان دوريان جراي قد انشغل فيها بأمر اشعال شمعة مستعملة فوق المدفأة، لاحظ هولو ورد أن التراب يكسو كل ما في الغرفة ورأى البساط ممزقاً، كما رأى فائراً يجري وراء ألواح الحائط، وشم رائحة هواء عطن من تأثير الرطوبة، قال دوريان جراي بصوت قاس ينم عن عاطفة ميتة:

- إذن أنت تحسب يا بازيل أن الله وحده هو الذي يرى أرواح الناس، أزح هذا الستار لترى روحي.
فرد هولو ورد عابساً

- أنت تهذي كالمجنون يا دوريان، فإذا لم تكن قد جننت فلا بد أنك تمثل دوراً ربما لا أفهمه.
قال الشاب:

- ألا تريد أن تزيح الستار ؟ إذن فسوف أزيحه أنا بدلاً منك.

ونزع الستار من القضييب المعلق فيه وألقى به على الأرض.

فلما رأى الرسام الوجه الشائه يتجههم له من الصورة

في النور الخافت صاح مفزوعاً، وأحس بالتقزز والاشمئزاز مما رآه، لقد كان الوجه هو وجه دوريان بالفعل وعلى الرغم مما لحق به من مسخ تبقت له تفاصيله الأساسية وبعض من جماله الأخاذ حتى احمرار شفتيه المثيرتين وشعره الذهبي الجميل بقي منهما أثر، وزرقة عينيه الساحرتين وخطوط أنفه المنحوت وعنقه الوضاء كل ذلك بقي منه دليل على ما كان، نعم هو دوريان جراي ولا أحد غيره ولكنه يبدو مثل مسخ، فمن ياترى رسم ذلك المسخ المقيت؟!

إنه يرى ريشته وألوانه واضحة في الصورة، كما رأى الإطار الذي صممه، وأمسك بالشمعة واقترب بها من الصورة فقرأ اسمه في ركنها الأيسر منقوشاً بحروف برتقالية لامعة.

ظن لبرهة يظن أنها ربما تكون دعابة من شخص قلده بغشم أو أنه أراد أن يسخر منه، فالرسم الذي أمامه لم يرسمه مطلقاً، وعلى الرغم من ذلك كان متأكداً أن الصورة صورته وجمد الدم في عروقه من تلك المعضلة!

إنها الصورة التي رسمها، نعم هي رسمته، فكيف حدث لها ما حدث؟، كيف تغيرت بهذا الشكل؟

التفت إلى دوريان جراي بعينين ذابلتين وفم مرتعش و لسان معقود، ثم رفع يده إلى جبينه وبدا مثل من يريد أن يجمع أفكاره وكان جبينه يدل على العرق الكثيف الذي تسبح فيه ملابسه!

كان الشاب يقف ناحية المدفأة وبد على وجهه اهتمام يدل على أنه مستغرق في مشاهدة ممثل عظيم، لم يكن حزينا

ولا سعيداً، كل ما شعر به أنه يشاهد أمراً جليلاً، وكان في عينيه ما يدل على انتصار بدأ يتحقق فخلع الزهرة من عروته وتظاهر وهو يتحرك بشمها، ثم صاح دوريان قائلاً:
مامعنى هذا؟

كانت نبرات صوته حادة على غير عادته، ثم مزق الزهرة بين أصابعه وهو يقول:

- منذ سنوات بعيدة لقيتني، يومها كنت ما زلت صبيّاً، علمتني كيف أزهو بجمالي، وذات يوم عرفتني بصديق من أصدقائك فشرح لي فلسفة الشباب، وأتممت أنت صورة كنت ترسمها لي فعرفت من تفاصيلها كيف يكون الجمال، ومررت بي لحظة جنون تمنيت فيها أمنية كما هي أمنيات المصلين، أمنية لا أدري حتى هذه الساعة هل أندم عليها أم لا؟!

- أتذكر هذه الأمنية، وهي مطبوعة في ذاكراتي كأني سمعتها بالأمس فقط، لا يا دوريان من المستحيل أن تكون الأمنية قد تحققت، إن الرطوبة تملأ الغرفة، وقد بدأ التعفن يسكن خيش اللوحة، ولا بد أن الألوان الزيتية التي كنت استعملها كانت تحتوي على بعض العناصر السامة، لا....، أقول لك إن هذا محال.

مضى الشاب ناحية النافذة وأسند جبهته إلى زجاجها البارد الذي يكسوه الضباب وقال:

- ما هو هذا الحال؟

- ألم تقل لي إنك دمرت الصورة؟

- نعم ولكنني كنت مخطئاً لأن الصورة قد دمرتني.

- محال أن تكون هذه هي الصورة التي رسمتها.
فقال دوريان جراي بمرارة:
- ألا تستطيع أن تتبين فيها مثلك الأعلى كما كنت
تدعي في الماضي؟
- مثلي الأعلى كما تسميه؟
- لا بل كما سميته أنت.
- مثلي الأعلى لم يكن فيه شر ولا عار، لقد كنت لي
إلهاماً ونموذجاً فريداً لكل شيء يحمل سمواً في الحياة، أما هذا
فهو وجه شيطان!.

- إنه صورة روحي.
- رحماك أيها السيد المخلص! هل هذا هو الصنم الذي
عبدت؟ إن له عيني شيطان!.

قال دوريان في يأس بالغ:
- لقد اجتمعت في كل منا الجنة والجحيم في آن يا بازيل!
تحرك هولوا ورد ناحية الصورة وأخذ يتأملها ثم صاح
قائلاً:

- الرحمة يا ربي! لو كان ذلك صحيحاً فإن ما ظهر
للناس من حقيقتك قليل قياساً إلى ما خفي عليهم منها.
ثم أمسك بالمصباح من جديد وصار يتفحص الصورة،
فوجد أن سطحها لم يتغير، وأن علامات الدنس والإجرام
تكاد تقفز من داخلها، فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار
الخطيئة تبدى لتفتك بالوجه الجميل شيئاً فشيئاً، لقد رأى
في الصورة جيفة حية مثل الجيف والرّم التي تتحلل في
بطون القبور، وقتها ارتعشت يده فسقطت الشمعة من

مقبضها إلى الأرض فداسها بقدمه وأطفأها ثم ألقى بنفسه على الكرسي المتهالك الموجود بجوار المائدة، ودفن وجهه بين كفيه وأخذ يردد:

- الله يا غفور....، ما أقسى هذا الدرس يا دوريان.
لكن دوريان لم يجب عليه بل ظل ينتحب بجوار النافذة بصوت مسموع.

- صلي لله يا دوريان....، صلي له....، ماذا تعلمنا ونحن بعد أطفال؟،

" أبانا الذي في السموات لا تدخلنا في تجربة، اغفر لنا ذنوبنا، امسح خطايانا." فلنصل معاً يا دوريان، إن السماء قد استجابت من قبل لصلاة دوريان المستكبر، وهي الآن ستستجيب لصلاة دوريان المستغفر، لقد عبدتك من دون الله فنلت جزائي، ولقد عبدت نفسك من دون الله فنلت جزاءك، فلنصل معاً يا دوريان.

فالتفت ناحيته دوريان جراي في بطاء وكانت الدموع تنهمر من عينيه وقال:

- لقد فات الأوان يا بازيل.

- لا يا دوريان، إن باب السماء مفتوح للسائلين، فلنسجد ولنحاول أن نرتجل صلاة إذا كنا قد نسينا الصلوات، ألا تذكر الترنيمة التي تقول " خطايك حمراء بلون الدماء، ولكني سأجعلها بيضاء بلون الثلوج "

- هذه الكلمات لم تعد عندي ذات معنى.
اسكت، لا تكفر، وكفاك ما ارتكبت في حياتك من ذنوب وآثام، يا ربه!!

ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا في شماتة؟!
والتفت دوريان جراي إلى الصورة وفجأة اشتعلت في
صدره كراهية قوية لبازيل هولو ورد لم يستطع السيطرة
عليها كأنما استوحاها من مرأى صورته على اللوحة، أو
همست بها في أذنه الشفتان الحاقدتان، فتحرك فيه إحساس
شبيه بإحساس الحيوان المطارد، وتولد في قلبه بغض
مضطرب للرجل الجالس إلى جوار المائدة، بغض لم يحمله
لأحد من قبل، وتلفت حوله فرأى شيئاً يلتمع فوق
الصندوق القائم أمامه، فلما استقر نظره عليه تذكر أنها
مدية كان قد أتى بها ليقطع حبلاً ثم نسيها، تقدم منها على
مهل وهولو ورد جالس في منتصف الطريق حتى وجد
نفسه خلف هو لو ورد وكان يتململ في كرسيه كما لو كان
يريد أن ينهض، فانقض عليه وغرس المدية في عنقه فمزق
الوريد من تحت الأذن وتحامل على رأسه حتى ارتطمت
بالمائدة ثم انهال عليه طعناً.

ابتلع فضاء الغرفة أنة مكتومة لصوت رجل يخنق بدمه،
ثم ارتفع ذراعا الرجل ثلاث مرات بقوة عصبية، وتحركت
أصابعه الجاملة في الهواء، فعاود طعنه حتى كف عن الحراك،
وبدأ وسط الصمت يسمع صوت قطرات الدم وهي
تساقط على أرض الغرفة، وانتظر لحظات وهو يضغط
بيده على رأس فريسته، ثم ألقي بالمدية على المائدة وأرهف
السمع، لكنه لم يسمع شيئاً إلا صوت القطرات المتساقطة
على البساط، ففتح الباب وخرج وارتنقى السلم، فوجد
البيت ساكناً مثل قبر موحش كأن أحداً ليس به.

مرت ثوان ظل أثناءها ينظر في الظلام الدامس متكئاً على مسند السلم، ثم أخرج المفتاح من جيبه وعاد إلى الغرفة وأغلق الباب فوجد الجثة ما تزال في جلستها على المقعد وقد مال رأسها على المائدة وتهدل الذراعان الطويلان، ولولا فتحة حمراء غير منتظمة في العنق، وبركة الدم المتجمد على المائدة لبدا له أن الرجل يستغرق في نوم عميق.

لقد تمت الجريمة في دقائق، وأحس بهدوء عجيب، ثم مضى ناحية النافذة ففتحها وخرج منها إلى الشرفة، كانت الريح قد كنست ضباب الليل فبدت الصافية صافية، كانت مثل ذيل طاووس هائل عجيب مزدانة بالآلاف العيون الذهبية، أطل من عل فوجد الشرطي مازال منتبهاً وهو يسلط ضوء مصباحه على أبواب البيوت الهادئة، وفي منعطف من الشارع رأى عربة تلمع مثل بقعة قرمزية وهي تمر بجلبتها حتى توارت عن ناظريه، كما رأى امرأة تسير ببطء بجوار أسوار المنازل وبدا أنها تترنح وشالها يعبث به الهواء، كانت تسير ثم تتوقف فتتظر وراءها ثم تعاود، وسمعتها وهي تغني بصوت قبيح غليظ، ثم رأى الشرطي يقترب منها وبدا له أنه يقول لها شيئاً ثم رآها وهي تتطوح بعيداً عنه وتطلق ضحكاتها الصاخبة المجنونة، وبينما هو كذلك هبت ريح في الميدان بدت قوية على غير العادة، فاضطربت مصابيح الشوارع واهتز ضوءها وتحول إلى اللون الأزرق، كما اهتزت فروع الشجار الجرداء وبدت مثل قضبان حديد سوداء فارتعش دوريان جراي وسارع

بإغلاق النافذة والعودة إلى الداخل، وعندما فتح الباب لم ينظر ناحية القتل، فقد وجد في تلك اللحظة أنه من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته، واقتنع بأن صديقه الذي رسم له صورة هدمت سعادته قد خرج من حياته وإلى الأبد.

تذكر المصباح وخشى أن الخادم قد يفتقده وينزعج لاختفائه لأنه مصباح مراكشي ثمين صنع من فضة غبشاء مطعمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ ومرصعة بقطع من الفيروز الخشن، تردد لحظة ثم حسم أمره ومد يده ليأخذه من على المائدة فوق بصره على الجثة رغمًا عنه فدار بداخله حوار تعجب فيه لهدوء الموتى ولليدين الطويلتين البيضاءين وقد شحبتا فقال ما اشبه الجثة بتمثال من الشمع.

أغلق الباب وهبط السلم في حذر لكن الدرج الخشبي كان يحدث صوتاً يشبه الأنين، توقف كثيراً عن السير وانتظر فلم يسمع شيئاً، كان كل شيء هادئاً ولا صوت إلا لوقع أقدامه.

حين دخل المكتبة أبصر المعطف والحقيبة في مكانهما فرأى أنه لا بد من إخفائهما، ففتح كوة يخفيها خشب الحائط كان معتاداً على وضع أشياء تخيفه فيها ولا يعلم أحد غيره عنها شيئاً، في الكوة وضع المعطف والحقيبة حتى يجد متسعاً من الوقت ليحرقها، ونظر في ساعته فوجدها أنها تشير إلى الثانية إلا الثلث.

ارتاح على المقعد ثم بدأ يفكر، طرأت على ذاكرته

المشقة وربما وجدها تتطوح أمامه في الهواء.

قال: المشقة...!، خيل له أنه يرد على نفسه: نعم المشقة.
في كل عام بل في كل شهر من شهور السنة يشق
أناس في انجلترا لأنهم فعلوا فعلته لأن الجريمة تملأ أجواء
انجلترا، فلعل نجماً أحمر اقترب من مسار الأرض فأهلب في
الناس الشهوة إلى الدماء ومع ذلك فما الذي يخيفه؟ لا يوجد
دليل واحد ضده!

إن بازيل هولو ورد خرج من دار دوريان جراي في
الساعة الحادية عشرة مساءً ولم يره أحد حين عاد معه، لم يره
أحد من الخدم كما أن خادمه يغط في نوم عميق، ألم يقل
بازيل إنه مسافر إلى باريس؟ نعم إن بازيل قد غادر إلى
باريس بقطار منتصف الليل، وهو رجل غريب الأطوار لا
يطلع أحداً على كثير من شئونه، لن تستيقظ الشكوك قبل
أن تمر شهور كثيرة، وفي هذه الشهور باستطاعته محو أي
دليل قد يشير إليه.

لمعت في تلك اللحظة فكرة على ذهنه فقام فارتدى
قبعته ومعطفه المكسو بالفراء وذهب إلى القاعة، وفي القاعة
وقف حين سمع خطوات الشرطي الثقيلة وهو يسير على
الرصيف ورأى شعاع مصباحه معكوساً على زجاج النافذة
فانتظر معلق الأنفاس.

بعد لحظات أراح المزلاج وخرج وأغلق الباب وراءه في
رفق شديد ثم وقف ثم شرع وهو واقف يلق الجرس،
وبعد خمس دقائق فتح له خادمه الخاص الباب وكان قد
خرج نعساناً بنصف ملابسه فقال وهو يدخل البيت:

- يؤسفني أنني أيقظتك من نومك يا فرانسيس، ولكنني
نسيت المفتاح، كم الساعة الآن ياترى؟
فنظر الرجل إلى ساعة الحائط شبه نعان وقال:
- الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدي.
- الثانية وعشر دقائق....! لقد تأخرت جداً ولا بد أن
توقظني غدا.
في الساعة التاسعة صباحاً لأن لدي بعض الأعمال.
- حاضر ياسيدي
- هل سأل عليّ أحد هذه الليلة؟
- نعم فقد حضر مستر هولور، وانتظرك حتى بلغت
الساعة الحادية عشرة ثم انصرف ليلحق بقطاره.
- يؤسفني أنني لم أره، ولكن هل حملك رسالة لي ؟
- لا يا سيدي، ولكنه قال إنه سوف يكتب إليك من
باريس إن لم يجده في النادي.
- أشكرك يا فرانسيس، ولا تنس أن توقظني غداً في
التاسعة صباحاً.
- لن أنسى يا سيدي.

ومضى الرجل يجر قدميه وهو يسير متثاقلاً في الدهليز.
في تلك الأثناء وضع دوريان جراي قبعته ومعطفه
على المائدة ودخل المكتبة، وظل يقطع أرض الغرفة ذهاباً
 وإياباً لمدة ربع ساعة تقريباً، كان يفكر في أمره وهو يعرض
شفته بين لحظة وأخرى، ثم تناول (الدليل العام) من أحد
الرفوف وبدأ يقلب صفحاته بحثاً عن عنوان حتى قرأ "
ألان كامبل، ١٥٢ شارع هرتفورد، مايفير" فقال هذا هو

الرجل المنشود.

الفصل الرابع عشر





عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل عليه خادمه حاملاً صينية عليها فنجان من الكاكاو، ثم قام بفتح النافذة فتحت النافذة.

كان دوريان نائماً علي جانبه الأيمن في هدوء ملائكي وقد طوي يده تحت خده فبدا مثل صبي أنهكه طول الدرس أو كثرة اللعب.

سار الخادم ناحيته وإضطر إلي أن يهزه من كتفه برفق ليوقظه، وحين فتح عينيه ارتسمت علي شفثيه ابتسامة خفيفة، بدا سعيداً كأنه يسترجع تفاصيل حلم لذيذ، ولكنه لم يحلم بشئ أثناء نومه، بل قضى ليلة صافية لم يعكر صفوها أي شيء، كان ابتسامه بغير داع، وكانت هذه آية من آيات سحره!.

تقلب في فراشه ثم نهض متكئاً علي مرفقه وشرع يشرب فنجان الكاكاو، بينما شمس نوفمبر قد تدفقت أشعتها الرقيقة في الغرفة، وكانت السماء زاهية وفي الجو دفء لذيذ، وكان البشر يملاً الآفاق فيعيد بعذوبته ذكرى الربيع!.

تدفقت إلى ذاكرته حوادث الليلة الماضية شيئاً فشيئاً،

وسارت في خاطره على أقدام لا يسمع لها حفيف،
فأسترجع كل ما جري في وضوح مخيف، وحزن حين ذكر ما
مر به من شقاء في الليلة السابقة، ولبسه من جديد ذلك
البغض الشديد نحو بازيل هولوردد، ذلك البغض الذي
دفعه إلي الفتك به وهو جالس علي المقعد، فشحب وجهه
من فرط الإنفعال، فالرجل لا يزال جالساً علي المقعد بأعلي
الدار بل وفي وضوح النهار، وقد كان من المنطقي أن يحتجب
بشكل ما لبشاعة ما ارتكب من جرم، وأحس بأن التفكير
المتواصل فيما جري لابد أنه سيتلف صحته أو يدمر عقله.

لقد دله إختباره على أن هناك الجرائم ما ترتاح
النفس لذكره أكثر مما ترتاح لفعله، وهناك ما يرضي الغرور
أكثر مما يرضي الشهوات، مثلما هناك ما يسعد به العقل
أكثر مما تسعد به الحواس!، ولكن هذه الجريمة لم تكن من
أمثال تلك الجرائم، هذه الجريمة كانت كابوساً لابد من محوه
من سجل الذكريات،...هذه الجريمة كانت شبحاً
مزعجاً وما يزال قائماً لابد أن ينام نوماً أكيداً أو يختنق بجبل
النسيان وإلا خنق صاحبه.

ودقت الساعة التاسعة والنصف ومر بأصابعه علي
جبينه ثم نهض مسرعاً وارتي ملابسه بعناية فائقة
تجاوزت كل ما عهد فيه من عناية، كما أنه أضاع الوقت
الطويل في إختيار ربطة عنقه، واللبوس الذي سيحلي
صدره به، كما أنه بدل خواتمه مراراً ثم تناول فطوره وقضي
في ذلك الوقت الطويل، كذلك بدامتدوا مختلف
الأطباق وهو يتحدث إلي خادمه في إطناب عن حلل الخدم

الجديلة التي كان يفكر في شرائها لخدمه من "سليبي" قارئاً رسائل اليوم مرة في ضجر وأخرى في متعة، وكان من بين الرسائل رسالة تلاها عدة مرات ثم مزقها في شئ من الغيظ وهو يردد كلمة اللورد هنري "يا للرجل من ذاكرة المرأة".

وبعد ان شرب فنجاناً من القهوة التركية مسح شفثيه في الفوطة ببطء، وأشار إلى خادمه بأن ينتظر، ثم تحول إلى مكتبه وسطر خطابين وضع أحدهما في جيبه وسلم الآخر للخادم قائلاً:

- احمل هذا الخطاب إلى ١٥٢ شارع هرتفورد يا فرانسيس، فإن وجدت أن مستر كامبل قد غادر لندن فأحصل علي عنوانه.

انصرف الخادم فبقى هو في الغرفة وحيداً، ثم أشعل سيجارة وذهب يخط رسوماً على قطعة من الورق، فبدأ أولاً برسم الأزهار، ثم انتقل إلى رسم قطاعات من العمائر، ثم انتقل إلى رسم الوجوه الأدمية، وفجأة لاحظ أن كل وجه يخططه على الورق يحمل شبيهاً قوياً للملامح بازل هولموورد، فتجهم وجهه، ونهض من مكانه وسعي إلي حمالة الكتب وانتزع منها كتاباً بطريقة عفوية.

كان صادق العزم علي أن ينسى ما حدث ولا يتذكره إلا إذا ألزمته الضرورة القصوي بتذكره، ولما تمدد على الأريكة نظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كتاب تيوفيل جوتيه (إممو وكاميه) في طبعة شربانتيه على ورق ياباني وعليه رسوم جاكمار، وكانغلاف الكتاب لونه أخضر ليموني، وعليه

تصميم من خطوط ذهبية متقاطعة وorman منقوط، وكان الكتاب عبارة عن هدية أهداها إليه آدریان سنجلتون.

وفيما هو يقلب صفحاته وقعت عينه على القصيدة التي تصف يد لاسنير تلك اليد الباردة الشاحبة (ذات الآلام التي لم تغسل بعد) ذات الشعر الأحمر الناعم كالريش و(أصابع الوحوش) ونظر إلى صوابعه الدقيقة البيضاء فارتجف بالرغم منه، وما زال يطالع في الكتاب حتي بلغ الفقرات الجميلة التي تصف مدينة البندقية.

(خرجت زهراء الأدریاتيك من الماء بيضاء الجسد وردية ومن ثدييها تساقط الدر علي بساط تدرجت فيه الألوان تدرج الأنغام في السلم الموسيقي والقباب ارفعت كصدر حسناء ناهد تتنهد على غرامها، وإرتفعت القباب علي الأمواج اللازوردية التي تترجرج في لين كأنها بيت شعر بديع التكوين

"ورسا بي الجندول وشده الملاح بالخبيل إلى العمود فوجدت نفسي على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردي وإضطربت نفسه لجمال هذه السطور وأحس وهو يقرأها أنه طاف على وجه المياه الخضراء في قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحمله جندول أسود ذو مقدمة فضية وأستار ترفرف في مهب النسيم، وترجرجت أمام عينيه السطور ذاتها فبدت له كالأمواج الفيروزية الزرقاء التي تتسلسل وراءه حين يسبح في جندوله إلى قصر الديدو، والألوان فيها تلمع أمام ناظريه فتذكره ببريق الطيور ذات الرقاب الصفراء التي ترفرف بالقرب من برج الكامبانيل

العالي الذي يشبه خلايا النحل، أو تخطر في خيلاء تطرب لها النفوس في الشوارع المظبية المظلمة التي حط عليها غبار القرون، وكان يغوص في مكانه من الأريكة ويرخي جفنيه ويردد قول الشاعر:

علي الدرج الرخامي واجهة قشر وردي فترتسم أمامه صورة البندقية في هذين البيتين، وتذكر الخريف الذي قضاه في تلك المدينة والغرام الجميل الذي ذاقه في مغانيها، فدفعه إلي إرتكاب الحماقات اللذيذة التي لا يقدم عليها إلا المجانين!

لقد قرأ في كل حجر من أحجار المدينة قصة وكل ما فيها أثار خياله، ولكن فينيسيا كأسفورد تحتفظ بالأحلام للباحثين عن الأحلام، أهل الأحلام يعيشون علي الحلم المستور وللحلم المستور.. لقد وافقه بازيل شطراً من الرحلة وفتنة جمال تنتوريت، فياله من رجل حالم وبالميتة من ميتة شنعاء!

وتنهذ وفتح الكتاب مرة أخرى وألتمس النسيان في المطالعة وفي الكتاب قرأ عن مقهي صغير بأزمير فيه طيور تخرج منه وتدخل فيه في غير حرج، والحجاج جالسون يعدون أسماء الله الحسنی علي مساجهم، والتجار ذوو العمائم يدخنون الشيعة ويتحدثون في وقار، وقرأعن المسلة القائمة بميدان الكونكورد بباريس وهي تبكي بدموع من الجرانيت وتندب وحدتها في منفاها الدائم الغيوم، وتحن إلي ضفاف النيل القائظ الذي غطته أزهار اللوتس حيث تماثيل أبي الهول، وعجول أبيس الحمراء،

والنسور البيضاء ذات المخالب الذهبية، والتماسيح ذات العيون الصغيرة الزبرجدية التي تزحف فوق الطين الأخضر المتبخر، ثم بدأ يفكر في شعر جوتيه الذي شبة فيه الشاعر تمثلاً من التماثيل رآه بقاعة في متحف اللوفر بالصوت الكونترالتو، واستوحى رخامة الذي لطخته القبل، ولكن الكتاب سقط من يده أخيراً وبدأ يتململ تململ من فقد السيطرة على أعضائه ثم غمرة إحساس بالفزع الشديد، تري ماذا يكون مصيره لو أن آلان كامبل كان خارج إنجلترا؟

ستمضي إذاً الأيام الطوال قبل أن يتمكن من العودة إليها، ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان مامبل رفض أن يستجيب لدعوته؟ إن كل ثانية تمر تدق في سمعه كناقوس القدر.

إن آلان كامبل حقاً صديقه الأوفى الذي لازمه منذ خمس سنوات ثم فترت الصلة بينهما فجأة وهما الآن يلتقيان في الأندية والحفلات فلا يتبادلان الحديث! حقاً إن دوريان يحبيه بإتسامة كلما رآه ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته.

كان آلان كامبل شاباً ذكي الفؤاد، ولكنه خلا من كل إحساس بجمال الفنون التصويرية أما القليل الذي أكتسبه من تذوق الشعر فقد جاءه من دوريان جراي وليس من سواه. أما فضوله العقلي فكان يتجة نحو العلم، وقد قضى الشطر الأكبر من وقته أيام الدراسة بكامبريدج في المعمل، ونجح بامتياز في التاريخ الطبيعي، ولكن ميله الشديد إلي الكيمياء لم ينته بإنهاء فترة الدراسة بل لازمه بعد ذلك

فأنشأ معملاً خاصاً به في لندن كان ينقطع فيه للبحث طول النهار مما أغضب أمة عليه فقد كانت تأمل أن يتقدم لعضوية البرلمان، وتحجل من اهتمام ولدها بالكيماويات لظنها أن الكيمياء رجل يركب الأدوية التي يوصي بها الأطباء، كذلك كان ألان كامبل عازفاً من أمهر العازفين يتقن اللعب علي البيانو والكمان علي حد سواء، ويتحدى في ذلك أكثر الهواة، ولقد كانت الموسيقى في الواقع هي التي ألفت بينه وبين دوريان جراي، وبالطبع كان لشخصية دوريان المغناطيسية أثر كبير في توطيد أركان هذه الصداقة، وكان لقاؤهما في دار الليدي بيركشاير ليلة أن كان روبنشتاين يعزف في صالونها، ثم باتا يترددان علي دار الأوبرا معاً في كل مناسبة، ويقصدان كل محفل يجدون فيه الموسيقى الحية ودامت صلتهم القوية هذه ثمانية عشر شهراً كان كامبل إبانها يتردد بلا إنقطاع علي ميدان جروفنور حين يكون دوريان في لندن وعلي قصر "سليبي" حين يكون دوريان في الريف، أما شغف كامبل بدوريان جراي فقد كان عظيماً لأنه كان يري فيه النموذج الحي لكل ماهو جميل في الحياة، شأنة في ذلك شأن أنداده من الشبان، ثم لاحظ الناس فجأة أنهما يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادراً، كما لاحظوا أن كامبل يعتمد التذكير في الإنصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جراي في حفل واحد ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة.

كذلك إنتاب كامبل تغير يلفت الأنظار منذ فقد الكثير من مرحلة وبات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا

يستسيغها ويرفض أن يعزف كلما طلب إليه ذلك، معتذراً بأن أبحاثه في المعمل قد شغلته عن مواصلة المرات، وقد كان صادقاً فيما يقول...، واشتد كلفة بعلم الحياة يوماً بعد يوم حتي لقد ظهر إسمه في أكثر من مناسبة في بعض الدوريات العلمية مقترناً ببعض التجارب العجيبة التي كان يجريها.

هذا هو آلان كامبل الذي كان دوريان جراي ينتظر قدومه بفارغ الصبر. وكان دوريان يرفع بصره إلي ساعة الحائط كل ثانية تقريباً، ولما طال إنتظاره إزداد يأسه، ولما ركه اليأس نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، كأنه حيوان جميل أسير، وإتسعت خطواته ولم يعد لها ديب وبردت يده إلي درجة غير مألوفة.

وأصبح الأنتظار لا يطاق، وبدأ لة أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل، وأحس بأن ربحاً هوجاء تدفع به إلي حافة هاوية مظلمة وكأنه يعرف ما ينتظره في قاع الهوة من دمار أكيد، بل لقد رأى الدمار رؤى العين فإضطرب إضطراباً عظيماً وضغط بكلتا يديه علي عينيه من غير إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا!. ولكن عبثاً كان يفعل، فالرؤيا في عقله جاثمة وخياله المريض الذي نهشته الآلام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى المسوخة، وراحت تكايد من وراء أقنعتها الشيطانية، وفجأه أحس بأن الزمن يقف...، نعم! أحس بأن هذا المخلوق الأعمي بطئ الأنفاس يكف عن الزحف، لقد مات الزمن!، وبموته تسابقت في عقل دوريان جراي الأفكار، وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب،

وعرضتها أمام عينيها بوضوح، وحملق هو فيها فجمد كأن
كتلة من حجر صوان!.

ولكن الباب إنفتح أخيراً ودخل منة خادمه، فنظر إليه
نظرة جامدة لا حياة فيها..

قال الخادم:

- مستر كامبل يا سيدي.

فتنفس دوريان في إرتياح، وعاد الدم إلي شفثيه
اليابستين وإلي خلة الشاحب ثم قال:

- أدخله حالاً يا فرانسيس.

وعاد إلي هدوءه الأول وزال عنة الجزع.

وانحني الرجل وانسحب وبعد لحظات دخل ألان كامبل
عابساً علياً إصفرار، وقد زاد شعرة الفاحم وحاجبا الناعمان
من شحوب لونه.

قال كامبل:

- لقد كان عزمي ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جراي،
ولكنك تقول إنها مسألة حياة أو موت.

كان صوته جافاً ينم عن الاحتقار، وجاءت كلماته بطيئة
لأنها خرجت في روية. وألقى علي دوريان نظرة فاحصة
ثابتة فيها زراية. وظلت يدها مدفونتين في جيبيه، كأنه لم ير
الإشارة التي حياة بها رب الدار

- نعم يا ألان، إنها مسألة حياة أو موت، وهي كذلك
بالنسبة لأكثر من شخص واحد....، اجلس لو سمحت.

وجلس كامبل علي مقعد بالقرب من المائدة وجلس
دوريان قبالة: والتقت عيونهما. فقرأ كامبل في عيني دوريان

معاني الألم الصادق فقد كان يعلم أنه مقدم على فعلة
رهيبة.

ومرت لحظة من الصمت الثقيل، وأخيراً مال دوريان نحو
كامبل وقال في هدوء بالغ متتبعاً أثر كلماته:

- أسمع يا ألان، توجد غرفة بأعلى هذا البيت مغلقة لا
يدخلها أحد إلا أنا... هذه الغرفة بها جثة رجل ميت جالسة
عليّ مقعد، وقد مات الرجل منذ عشر ساعات، ثم انفعل
قائلاً: إلزم مكانك يا ألان ولا تنظر إلى هذه النظرة.

أما هوية هذا الرجل، ولم مات؟ وكيف مات؟، فأمور لا
شأن لك بها وكل ما عليك أن تفعل هو أن...

- هذا يكفي يا جراي، فلست أريد أن أعرف بقية
قصتك وسواء أكان ما قلته صحيحاً أم كاذباً فهو لا يهمني
فأنا أبغض أن يكون لي بك شأن ولتحتفظ بأسرارك
الجهنمية لنفسك فهي لم تعد تهمني الآن.

- بل هي تهمك يا ألان، وهذا السر بالذات يخصك،
إنني أرثي لحالك ولكن لا بد مما ليس منه بد، فأنت
الشخص الوحيد، وأنت تدرس العلوم يا ألان وتعرف
الكيمياء والأحماض وما شابه ذلك، وقد أجريت التجارب
المختلفة، وكل ما عليك أن تفعله هو أن تفني الجثة الموجودة
بالطابق العلوي إفاءً حتى لا يتبقى منها أثر، وليس هناك
من رأي هذا الشخص يدخل بيتي، بل إن الناس يعتقدون
أنه في باريس في هذه اللحظة، فلن يبحث عنه أحد إلا بعد
أن تنقضي شهور، وحين يبدأ البحث عنه فلن يكون في هذا
البيت أثر من آثاره، ولا بد أن تحوله يا ألان إلى قبضة من

رماد أزروها في الهواء، وتمحو متاعه كذلك.

- أنت مجنون يا دوريان.

- لقد كنت أنتظر اللحظة التي تسميني فيها دوريان

- أنت مجنون لأنك حسبت أنني اتحرك لأنقذك من ورطتك، وأنت مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف المشين، أنا لا دخل لي بهذه المسألة أياً كانت ظروفها، هل تحسب أنني سأجازف بسمعتي من أجلك؟ ماذا يهمني أنا من أعمالك الشيطانية؟

- إن الرجل قد انتحر يا ألان.

- هذا يخفف من المسألة، ولكن من ذا الذي دفعه إلى الانتحار؟

أنت بكل تأكيد.

- ألا تزال مصراً على الرفض؟

- نعم، أنا لا شأن لي بأي شيء من هذا القبيل، ولن يثير إشفافي أن تجر على نفسي كل ما في العالم من عار ن فأنت أهل لذلك، لن يؤسفني أن يفتضح أمرك أمام جميع الناس فتسقط في نظر المجتمع، كيف تتجرأ على أن تسألني أن أجحم نفسي في هذه الجريمة الشنعاء؟، إنني آخر من يحق لك أن تطلب العون منه بعد ما أنزلت بي من خراب، لقد كنت أحسب أنك تعلم ما يكفي عن طبائع الناس، ولعل صديقك اللورد هنري وتون علمك شيئاً كثيراً، ولكنه لم يعلمك بسائط النفس الإنسانية فيما علمك. كلالن يحركني شيء لإنقاذك من محتك فاجث عن غيري لأنك قد أسأت الاختيار، دعني وشأني واجث عن صديق من أصدقائك.

- إن الرجل مات مقتولاً يا ألان، قتلتها أنا بيدي، قتلتها
جزءاً ما أنزل بي من شقاء، فهو الذي شكل لي كياني
وأفسد علي حياتي، إن أثر هاري المسكين في ذاتي لا يقاس
بأثر هذا الرجل ولعله لم يقصد سوءاً ولكن النتيجة كانت
واحدة.

- أنت قتلتها؟ يا إلهي! أهذا ما ألت إليه يا دوريان؟
لن أبلغ أمرك إلى الشرطة فليس هذا من شاني، فهم لا
شك قابضون عليك إذ لم أساعدك أنا، ما من أحد أرتكب
جريمة إلا وارتكب معها حماقة تدل عليها، وهذا لا يعنيني
- بل هو يعينك يا ألان، لحظة واحدة يا ألان، انتظر،
اسمع ما أقول، ثم احكم بنفسك.

كل ما أسألك أن تفعله هو أن تجري تجربة من تجاربك
العلمية، أنت تعمل في المستشفيات وفي حجرات التشريح
فلا يؤثر فيك ما تفعله من تقطيع وعبث بجثث الموتى، ولو
أنك وجدت هذا الرجل طريحاً على مائدة في معمل أو في
حجرة من حجرات التشريح المقبضة وفي المائدة أحواض
حفرت ليسيل فيها دمه الجاري لنظرت إلى هذا الرجل
نظرك إلى موضوع لذيذ للتجربة، فلا تضطرب نفسك ولا
يجول بخاطرك إنك تأتي أمراً تلام عليه بل على العكس من
ذلك قد تشعر بأنك تسدي إلى النوع الإنساني خدمة
كبيرة، أو أنك تضيف إلى التراث العلمي الذي يحرص
عليه البشر كل هذا لحرص أو إنك ترضي فضولك
العقلي أو أي شيء يدخل في حكم ذلك، فكل ما أطلبه
إليك هو أن تقوم بهذا العمل الذي تقوم به كل يوم، بل

إن إفناء جثة لا يقاس في بشاعته بما ألفته من أعمال، وأذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على أنني قاتل هذا لرجل فإذا افتضح أمرها هلكت، وأمرها لا شك مفتضح إذا لم تساعدني يا ألان.

- ولكنك تنسى أنني لا أرغب في مساعدتك، وأنا لا أكثرث بك أو بقصتك أو بمصيرك ولا علاقة لي أصلاً بهذا الموضوع.

- أرجوك يا ألان ساعدني، فكر في حساسية مركزي في المجتمع، لقد كاد أن يصيبني إغماء من فرط خوفي قبل مجيئك بدقائق!، ولقد تعرف معنى الهلع في يوم من الأيام لو أصابك ما أصابني، ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء دعنا من الهلع ولتفكر في الأمر تفكيرك في تجربة عملية لا غير، وأنت لا تستقصي عن الأموات الذين تجري تجاربك عليهم فلا تستقصي الآن عن هذا الميت، لقد بحث لك بما كان لا ينبغي أن أبوح به ولكني أضرع إليك أن تنقذني وتذكر يا ألان اننا كنا في الماضي صديقين.

- لا تذكر تلك الأيام يا دوريان فلقد ماتت.

- إن بعض الموتى باقون فالرجل الميت بأعلى البيت باق، وهو جالس بجوار المائدة محني الرأس ممدود الزراعين، أستحلفك يا ألان أن تساعدني فلو لم تساعدني لكنت في ذلك نهايتي المشتقة يا ألان ألا تفهم؟ سوف أشق جزاء ما فعلت.

- لست أرى ما يدعو لإطالة هذا المشهد فالنقص القبول، أنا أرفض رفضاً باتاً أن تكون لي صلة بهذه المسألة،

لقد كان خبلاً منك أن تطلب مني هذا.

- أترفض؟

- نعم

- أضرع إليك يا ألان

- لا تتعب نفسك.

فعادت إلى عيني دوريان جراي معاني الألم العميق ومد
يده وتناول قطعة من الورق وخط عليها بعض الكلمات
ثم قرأها مرتين وطواها بعناية وأزاحها على المائدة حتى
استقرت أمام ألان كامبل ونهض من مكانه، وسار إلى
النافذة.

أخذ كامبل يتأمله متعجباً ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها
فشحب وتجمدت تعبيراته، وبدا مضطرباً في مقعده، وأحس
بعدم اتزان ودوار، وسمع قلبه يدق دقاً عميقاً عالياً كأنه يدق
في صندوق فارغ!

مرت دقائق من الصمت المريب، ثم التفت دوريان
ناحيته، ثم سار نحو هكتي وقف خلفه، ثم وضع يده على
كتفه ثم هو يقول:

- يؤسفني أن أفعل ذلك يا ألان، لكنك لم تترك لي أي
فرصة للاختيار، هاهو الخطاب... لقد كتبته فعلاً!! وتستطيع
أن تقرأ عنوانه بنفسك، فإذا أنت لم تساعدني وجدتي
مضطراً إلى إرساله... وأنت أدري الناس بنتيجته... ولكنك
ستساعدني... فمحال أن ترفض ذلك الآن.

لقد كنت أود أن أعفك من كل ذلك ولكنك ألزمتني
به إلزاماً، ومن الإنصاف أن تشهد لي بذلك، وكنت أنت

معي عنيداً خشناً جارحاً في القول، وما عاملني أحد قط
معاملتك لي على الأقل ممن يزالون أحياء يرزقون،
فاحتملت كل ذلك على مضض، والآن جاء دوري لألمي
عليك شروطي، فدفن كامبل وجهه في كفيه وارتجف.
نعم يا ألان، الآن جاء دوري لألمي عليك شروطي وأنت
تعرف هذه الشروط، والأمر ليس فيه تعقيد، تشجع ولا
تقتل نفسك بالحشرات فلا مفر مما أنت قادم عليه فاقدم
عليه دون تفكير.

وصعدت من صدر كامبل آهة، واهتز من قمة رأسه إلى
إخمص قدميه وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق،
فبدا له أن دقائقها تقسم الزمن إلى جزيئات من العذاب
الذي لا سبيل إلى احتماله، وأحس كأنما حلقة حديدية قد
احتوت رأسه وأخذت تضيق تدريجياً، وهيء له أن
الفضيحة الذي يهددهدوريان جراي بها قد نزلت به فعلاً،
أما اليد التي ارتاحت على كتفه فقد تخيل أنها يد من
الرصاص تثقل كاهله وتوشك أن تسحقه سحقاً.
- والآن يا ألان لا بد أن تصل إلى قرار سريع.

فأجاب كامبل بصورة آلية وباندفاع:
- لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه مني.
- بلستفعله ولا خيار لك في ذلك، أحزم أمرك ولا
تضيع الوقت.

فتردد كامبل لحظة ثم قال:

- هل في الغرفة العليا نار.

- نعم فيها مدفأة بغاز الإستصباح والإسبستوس،

- سأذهب إذن إلى العمل لإحضار بعض الأدوات اللازمة للعملية.

- لا يا ألن لن تبرح هذا المكان، فاكتب ما يلزمك من أشياء على ورقة وسيذهب خادمي في عربة لإحضارها.

- فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفف الحبر، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بإمعان، ثم دق الجرس وناول الورقة لخدمه الخاص وسأله ألا يضيع وقتاً في إحضار محتويات الرسالة، وما أن خرج الخادم وأغلق الباب وراءه حتى نهض كامبل في سرعة عصبية ومشى إلى المائدة وكان يرتعش كأنه محموم.

مرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كاملاً لم تقطعه كلمة واحدة، لكن طنين ذبابة كانت تدور في الغرفة بات مسموعاً، وارتفعت دقات الساعة فخالها الرجلان ضربات مطرقة، ودقت الساعة الواحدة والتفت كامبل إلى دوريان جراي فوجد الدموع تنهمر من عينيه، وتأمل وجهه الرقيق الحزين فوجد في رقبته وحزنه ما أغضبه.

قال كامبل:

- أنت مخلوق منحط ما في ذلك من شك
فأجاب دوريان:

اسكت يا ألان فلقد أنقذت حياتي.

- وما قيمة حياتك؟ فلقد تدهورت منسيئاً إلى أسوء حتى انتهى بك الأمر إلى الإجرام، حتى وأنا أقدم على هذه الفعلة التي تضطرنني إليها إضطراراً لا أفكر في إنقاذ حياتك!.

فتنهـد دوريان وقال:.

ليتـك تـرثـي لـحـالـي عـشـر ما أـرثـي لـحـالـك.
وبينما هو يقول ذلك انصرف إلى التأمل في حـديـقة
بيتـه، أما كامبل فلم يعقب بشيء.

وبعد عشر دقائق طرق الخادم الباب ودخل حاملاً
صندوقاً ثقيلاً من خشب الموجنة يحتوي على العقاقير
المطلوبة ومعه لفة طويلة من الأسلاك المصنوعة من صلب،
وبلاتين، وكلايتين من الحديد هيئتهما غريبة.

وقال مخاطباً كامبل:

- هل أترك هذه الأشياء هنا يا سيدي؟

فقال دوريان:

- نعم يا فرانسس، ولكن يؤسفني أنني سأطلب منك
شيئاً آخر، هل تتذكر اسم بائع الأزهار في رتشموند ذلك
المتعهد بتوريد زهور الأوركيد إلى قصر سلمي؟
- اسمه هاردن يا سيدي.

- نعم هاردن، اسمع... اذهب بلا تأخير إلى رتشموند،
وقابل هاردن شخصياً واطلب منه أن يرسل إلى (سلمي)
ضعف الكمية التي كان يرسلها عادة واجعله يقلل من عدد
الأوركيد الأبيض بقدر المستطاع، بل إذا أمكن أطلب منه
تجنب إرسال الأوركيد الأبيض تماماً وأعتقد أن ذلك أنسب.
ثم واصل موجهاً حديثه لخادمه:

- إن اليوم صاف جميل يا فرايسيس، ورتشموند حي
أنيق...، ولولا علمي أنك ستستمتع بالذهاب إليه لما
أزعجتك بهذا الطلب.

- ليس بالأمر أي إزعاج ياسيدي، متى تريدني أن أعود؟.
كان دوريان يشعر بشجاعة غير متناهية لوجود شخص
ثالث بالغرفة فنظر إلى كامبل وسأله في هدوء تام:

- كم ساعة ستستغرق التجربة يا ألان؟

فامتعض كامبل وعض شفته وأجاب:

نحو الخمس ساعات.

- إذا عدت في الساعة والنصف نكون قد فرغنا من
التجربة، اسمع يافرنسس أعد لي ملابس السهرة واطركها
في غرفتي وبعد ذلك تستطيع أن تكون مطلق الحرية في
المساء فلن أحتاج إليك لأنني سأتعشى في الخارج هذه الليلة.
قال الرجل وهو ينصرف:

- شكراً ياسيدي

والتفت دوريان إلى ألان كامبل وقال وهو يستعجله
بلهجة أمرة مما جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة:

- والآن يا ألان يجب أن نعجل بالعمل فالوقت ثمين...

وواصل الحديث:

- ما أثقل هذا الصندوق، سأحمّله أنا..، أما أنت فلتحمل

الأشياء الأخرى.

وخرج الرجلان من الغرفة معاً ولما بلغا قمة السلم
أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره في الباب، ثم توقف
وقد اعتراه الخوف والاضطراب وقال متخاللاً:

أعتقد أنني لن أقوى على الدخول يا ألان.

فقال كامبل ببرود:

- هذا لا يهمني فلن أحتاج إليك.

وفتح دوريان الباب قليلاً فرأى وجهه في الصورة تحت ضوء الشمس، كان ينطق بالخبث والشهوة الصريحة، ورأى الستار الممزق ملقى على الأرض أمام الصورة فتذكر أنه في الليلة السابقة قد نسى في المرة الأولى في حياته أن يحجب اللوحة النكراء وكاد أن يندفع إليها ليسترها مرة أخرى ولكنه أرتد مضطرب القلب.

لقد رأى على إحدى يديه في الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل، فمن أين للصورة بهذه البقعة الحمراء؟ كأنما اللوحة قد نضحت دماً، وأرعبه هذا أكثر مما قد يرعبه منظر الجثة الصامته التي تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لوأنه رآها، ورأى ظلها المسوخ ملقى على البساط الملطخ بالدم فعرف أنها لا تزال في مكانها حيث تركها ليلة أمس.

وملاً رثيته بالهواء لعله يتشجع، ودفع الباب قليلاً واندفع في الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئاً، وانصرف بوجهه عن جثة القتل جاهداً ألا يراه، وانحنى ورفع الستار الملون بالذهب والأرجوان ونشره على الصورة فأخفاها.

ثم توقف لحظة، وخشى أن تقع عينه على الجثة إن هو حاول العودة فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار، دار كل ذلك بينما كامبل كان مشغولاً بإدخال الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى في جلبة مسموعة، وبدا دوريان يفك.

* ترى هل كامبل كان يعرف بازيل هولولوورد؟، لو فرضنا أنه كان يعرفه فكيف كانت صلاته به؟

في النهاية سمع الصوت الجاف يقول له.
- والآن، فلتخرج.

فاستدار دوريان وخرج مسرعاً، وفيما هو يفعل ذلك وقع
بصره على وجه القاتيل بعد أن رده كامبل إلى موضعه
الطبيعي على المقعد، ورأى كامبل يتفرس في وجهه الأصفر
اللامع وفيما هو ينزل على السلم سمع صوت المفتاح يدار
في قفل الباب.

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة،
كان وجهه شاحباً ولكنه كان محافظاً على هدوءه وهو يقول:
- لقد أنجزت ما طلبته مني والآن وداعاً وأرجو ألا
نلتقي مرة أخرى.

فقال دوريان في بساطة:

- أنت أنقذتني من موت محقق يا ألان ولن أنسى لك
هذا الجميل أبداً.

وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغرفة العليا
فملأت أنفه رائحة قبيحة هي رائحة حامض النتريك،
ولكنه لم يجد الجثة التي كانت جالسة بجوار المائدة،

الفصل الخامس عشر





في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة كان خدم يعلنون قدوم دوريان جراي وينحنون تحية له، كان دوريان جراي في قمة أناقته، كان يحلي عروته بمجموعة من بنفسج بارما، وكانت عروق جبهته نافرة، كما كانت نفسه مضطربة، لكنه مع ذلك حافظ على سجيته الجميلة حين انحنى يقبل يد ربة البيت، ولم تكن رشاقتة قد فارقتة وهو يتصرف بمثل تلك الشياكة.

قد لا يشعر الإنسان انه على سجيته إلا حين يمثل دوراً، ومهما يكن من شيء فما من أحد رأى دوريان جراي في تلك الليلة كان يتوهم أنه مر بمأساة مفاجئة دونها كبار المآسي، فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدية السفاح، وتلكما الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم، ولقد روعه ما رآه في نفسه من هدوء في المظهر واتزان في السلوك، ومرت به لحظة تمنى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة.

وكان الحفل صغيراً يضم عدداً قليلاً من الناس دعتهم الليدي نار بورو على وجه السرعة، والليدي نار بورو

غمراً نادرة الذكاء وعليها بلغة اللورد هنري بقايا قبح قديم، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضي به الواجب في قبر من المرمر وضعت هي تصميمه بنفسها، وبعد أن زوجت بناتها لبيعض الأثرياء المتقدمين في السن، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرغت للاستمتاع بالقصص الفرنسي وبالطبخ الفرنسي وبالذكاء الفرنسي كلما وجدت إليه سبيلاً.

وكان دوريان من المقربين إليها، وكانت تقول له في كل مناسبة إنها سعيدة الحظ لأنها لم تقابله وهي في شبابها.

كانت تقول: "لو أنني عرفتُك في تلك الأيام يا صديقي دوريان لكان من المحقق أن أجن بحبك، ولكان من المحقق أن أفسد كل شئ في سبيلك، ولكن من حسن حظي أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود، إن الحياة في تلك الأيام لم تكن كالحيّة في هذه الأيام، وهكذا ضاع شبابي دون أن أغازل رجلاً حتى ولو من بعيد، فمن أين لي فرصة الحب؟ لقد كان زوجي اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة، وأية لذة تجدها امرأة في الزواج من رجل لا يرى شيئاً أصلاً، على أن هذا كان عيبه الوحيد".

لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر، فقالت من وراء مروحتها المزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها من ضيقها، ثم همست في أذنه قائلة: "أعتقد يا عزيزي أن هذه وحشية منها لا تغتفر صحيح أنني أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طوال

الصيف بعد عودتي من هومبرج، ولكن هذه مسألة أخرى، فسيلة عجوز مثلي تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى آخر، ثم إنني أمنعهما من النوم المبكر، وهذه خدمة عظيمة أسديها لهما فأنت لا تستطيع أن تتصور كم الحياة مملة عندهم....، وهي حياة ريفية بكل ما في الكلمة من معني فهما يستيقظان مبكراً لكثرة الأعمال وهما ينامان مبكراً لقلة الأفكار، وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة اليزابيث، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر.

سوف أنفذك يا دوريان من حديثهما الثقيل فمكانك من المائدة بجانبني لتفتح نفسي بحديثك الشهي".

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة، وتلفت في أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جمعاً من ثقلاء القوم وكان بينهم شخصان لا يعرفهما، أما الباقيون فقد تبين منهم إرنست هارودن وهو كهل تافه من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نواحي لندن ممن لا أعداء لهم، ولكن أصدقائهم يكرهونهم كرها تاماً، ثم الليدي ركستون وهي امرأة في السابعة والأربعين من عمرها مقوسة الأنف تتزين بلا حساب اجتهدت ما وسعها الاجتهاد في أن تثير الغبار حول سمعتها، ولكن أحزنها أن الناس لا يصدقون ما يقال عنها لفرط دمايتها، ثم مسز إرلين وهي امرأة لا قيمة لها كثيرة الجلبة، في كلامها لثغة جذابة وشعرها أحمر، ثم الليدي أليس تشابمان ابنة الليدي ناربرو ربة البيت، وهي امرأة رثة الهيئة ملامحها من تلك الملامح الشائعة في بريطانيا، إن رأيتها مرة لم تذكرها بعد ذلك، ثم زوجها اللورد رتشابمان وهو رجل

أحمر الخدين أبيض السوالف، يحسب أن الإفراط في التطرف يعوضه عن فقرة الكامل في الأفكار.

وأحس دوريان بالندم على قبول الدعوة، ثم رأى الليدي ناربورو تنظر إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المكسوة بقطعة من القماش البنفسجي وسمعتها تقول:

- أليس غشماً من اللورد هنري أن يتأخر كل هذا التأخير ؟ لقد أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق، ولكنه وعد أن يقبل جميع دعواتي، فلما عرف دوريان أن هاري قادم وجد في هذا العزاء الكافي، فلما سمع الباب يفتح وصوته الرخيم الهادئ يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة ونفاقه المتقن هدأ باله وزال ما به من الضيق.

ولكنه لم يأكل إلا قليلاً في العشاء، وجاءته الأطباق واحد بعد آخر دون أن يمسه، وأخذت الليدي ناربورو تلومه على عزوفه هذا، ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاھيها (أدولف المسكين الذي اختار قائمة طعام خاصة ليناسب ذوق دوريان بالذات)، أما اللورد هنري فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجباً لصمته وشرود فكره، على حين كان رئيس الخدم يمر به في فترات متقطعة ويملاً كأسه بالشمبانيا فيشربها كالظمآن وما ارتوى بل زادته الخمر ظمناً إلى الخمر.

وأخيراً قال اللورد هنري قرب انتهاء العشاء:

- ماذا دهاك الليلة يا دوريان ؟ يبدو أنك متوَعك

المزاج تماماً

قالت الليدي ناربورو:

- اعتقد أنه عاشق وهو يخشي أن يطلعني على أمره
فتثور في صدري الغيرة، وله العذر في ذلك فأنا امرأة شديدة
الغيرة.

فقال دوريان مبتسماً:

- يا سيدتي الليدي ناربورو أنا لم أذق الحب أسبوعاً
كاملاً، أي منذ أن تركت مدام فيرول لندن.

فصاحت به السيدة العجوز قائلة:

- عجباً لكم يا معشر الرجال كيف تستطيعون أن
تحبوا امرأة كهذه هذا ما يحيرني فيكم.

قال اللورد هنري:

- السبب بسيط وهو أنها تتذكرك حين كنت تلبسين
فستانين قصيرة يالليدي ناربورو، فهي حلقة الوصل
الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة.

- هذا غير صحيح فهي لا تستطيع أن تتذكر فساتيني
القصيرة مطلقاً يالورد هنري، أما أنا فأستطيع أن أتذكرها
تماماً حين كانت في فيينا منذ ثلاثين عاماً، وقد كانت حينئذ
تسرف في كشف صدرها.

قال اللورد هنري وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة:

- وهي لا تزال تسرف في كشف صدرها، وحين تهل
علينا بفستان أنيق تبدو كطبعة فاخرة من قصة فرنسية
تافهة، إنها سيدة العجائب وأنا معجب بها كل الإعجاب،
فهي تستطيع مثلاً أن تحب أهلها إلى حد يلفت الأنظار
وحين مات زوجها الثالث أصفر شعرها من فرط الحزن!
فصاح به دوريان قائلاً:

- هذا اجترأ منك يا هاري !
- وضحكت ربة البيت وقالت:
- هذ تفسير ممتع ولكن كيف تقول إن زوجها
- الثالث مات ؟ أتعني أن السيد فيرول هو الرابع ؟

بالتأكيد يا ليدي ناربورو

- هذا مستحيل.
- اسألي مستر جراي إذن، فهو من أقرب المقربين إليها.

- أضحك ما يقوله اللورد هنري يا مستر جراي ؟

فأجاب دوريان قائلاً:

- هذا ما أكدته لي هي بنفسها يا ليدي ناربورو، وقد سألتها هل كانت تحب قلوب أزواجها وتعلقها في زنارها كما كانت تفعل مرجريت دي بافار، فأجبتني بالنفي لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب!

- أربعة أزواج!، يا لها من شهية عظيمة !

قال دوريان:

- بل يا لها من جراءة كبيرة!، هذا ما أقوله لها دائماً.
- إن جرأتها تتسع لكل شيء يا عزيزي ولكن حدثني عن فيرول، فأنا لم أره حتى هذه اللحظة.

قال اللورد هنري وهو يرفع كأس النبيذ:

- إن أزواج النساء الفاتنات ينتمون عادة لطبقة المجرمين، فضربته الليدي ناربورو بمروحتها وقالت:
- ليس جديداً أن يصفك كل من في العالم بأنك رجل شرير.

قال اللورد هنري متكلفاً الدهشة:

- ولكن أي عالم يصفني بهذا الوصف ؟ أعتقد أن علاقاتي مع هذا العالم على أحسن حال، فلا بد أن يكون العالم الآخر هو ما تقصدينه!

فهزت السيدة العجوز رأسها وقالت:

- كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير.
- بدت الجدية على وجه اللورد هنري لبرهة ثم قال:
- هذه خسة من الناس أن يغتابوا المرء بالحقائق الصادقة، وأنا استنكرها.

ومال دوريان في مقعده إلى الأمام وقال:

- إن اللورد هنري لا أمل في إصلاحه، هل توافقين يا ليدي ناربورو؟

أجابت ربة البيت ضاحكة:

- ليته يبقى على حاله، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دي فيرول على هذا النحو المضحك فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر.
- فقاطعها اللورد هنري قائلاً:

- لا يا ليدي ناربورو، إن من هن مثلك لا يتزوجن مرتين، فأنت في سعادة تحميك من هذا الخطأ، إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تكره زوجها الأول، أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعبد زوجته الأولى....! ثم أردف مواصلاً:

- في الزواج تجرب النساء حظهن، أما الرجال فيقامرون بحظهم.

قالت السيدة العجوز:

- إن زوجي لم يكن كاملاً.

فأجاب اللورد هنري:

- هذا من حسن حظه فلو أنه كان كاملاً لضقت به يا

سيدتي العزيزة إن النساء يعشقنا لعيوبنا، فكلما زادت عيوبنا غفروا لنا أخطئنا حتى جريمة التفكير يغفرونها، وأنا أخشى يا ليدي نارבורو أن تكفي عن دعوتي للعشاء بسبب ما قلت، ولكني ما قلت غير الحق.

- بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنري ولو أننا معشر النساء لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذن؟ لولا ذلك لما وجد رجل واحد امرأة تقبل أن تتزوجه، لولا ذلك لبقيتم جماعة من العزباء التعتساء.

- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً ففي هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزباء، وأكثر العزباء يعيشون عيشة المتزوجين.

قال اللورد هنري:

- هذه نهاية القرن.

فأجابت ربة البيت:

بل هذه نهاية العالم.

وتنهى دوريان جراي وقال:

- ليتها كانت نهاية العالم إن الحياة قد خيبت أمني

فيها.

فصاحت الليدي ناربورو وهي تلبس قفازها قائلة:

- لا تقل يا صديقي إنك قد أتيت علي كل ما في

الحياة من أسباب السعادة، فحين أسمع رجلاً يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد أتت عليه، إن اللورد هنري شرير وإني لأغبطه على ذلك أحياناً، أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجاً للخلق الجميل ووجهك يدل على ذلك، دعني

أبحث لك عن زوجة صالحة، ألا تعتقد يا لورد هنري أن
مستر جراي قد بلغ سن الزواج؟

انحنى اللورد هنري بأدب وأجاب:

- هذا رأيي الثابت يا ليدي ناربورو وطالما ذكرته له.

- إذن فلنبدأ في البحث له عن زوجة تناسبه سأحضر

الليلة الفتيات اللاتي يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة
بأسمائهن.

فسألها دوريان قائلاً:

- وبأعمارهن كذلك يا ليدي ناربورو!

- بطبيعة الحال، ولكن أعمارهن ستكون محرفة تحريفاً

طفيفاً ولا داعي للعجلة فأنا أحب أن أتوسط له في زواج
تصفه ((المورننج يوست)) بأنه زواج مناسب، كما أحب
له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج.

فقال اللورد هنري:

- إن الناس يكثرون من الكلام الفارغ في موضوع

السعادة الزوجية فالرجل يستطيع أن يسعد مع أي امرأة في
العالم إن كان لا يحبها.

قالت السيدة العجوز وهي تدفع مقعدها إلى الوراء

وتحني رأسها تحية لليدي ركستون:

- يا لك من ساخر قاس، لابد أن تأتي للعشاء ثانية في

المستقبل القريب فأنت خير دواء يزيل عني الصداع، بل
أنت أنفع من الدواء المقوي الذي أوصاني به السير
توماس أندروز ولكن أشر علي بمن تحب أن تقابلهم من
الضيوف حتى يكون الحفل بهيجاً؟.

فأجاب:

- أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل، ومن النساء من لهن ماض، ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط.

فضحكت الليدي ناربورو ثم نهضت وهي تقول:

- هذا ما أخشاه أنا أيضاً.

ثم أضافت تعتذر عن تركها المائدة:

- عفواً يا عزيزتي الليدي ركستون فقد حسبت انك فرغت من التدخين.

- لاداعي للاعتذار يا ليدي ناربورو فالواقع أنني أدخن أكثر مما يجب وقد قررت أن أحدد الكمية التي أدخنها في المستقبل.

قال اللورد هنري:

- أرجو ألا تنفذي هذا القرار يا ليدي ركستون، فالاعتدال يقضي على بهجة الحياة، الاعتدال يذكرني بحياتنا اليومية، أما الإفراط فيذكرني بالولائم والعراس. فنظرت إليه الليدي ركستون عالجة وقالت وهي تنصرف:

- أرجوك أن تزورني ذات مساء يا لورد هنري لتشرح لي هذه النظرية.

وصاحت الليدي ناربورو وهي تقف بالباب:

- سنصعد نحن إلى الصالون العلوي ونترككم لتتحدثوا في السياسة وفي أعراض الناس ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا في معركة شديدة.

فضحك الرجال، وانتقل مستر تشامبان من نهاية المائدة إلى رأسها، وانتقل دوريان جراي إلى جوار اللورد هنري، وبدأ مستر تشامبان يتكلم بصوت عال عما يحدث في مجلس العموم، وأخذ الحماس في الرد على معارضيهِ حتى أنساه ذلك آداب المناقشة، وأكثر من استعمال عبارة "أفكار نظرية" وهي الأفكار التي تخيف العقل البريطاني الضيق ولم ينس أن يغلف أقواله بالتراكيب البلاغية، ولم ينس أن يضع العلم البريطاني على قمم التفكير الإنساني، ولم ينس أن يسمي غباوة الشعب البريطاني الموروثة بالذوق العام ويمتدحها ويزعم أنها درع المجتمع الواقعي.

وابتسم اللورد هنري حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى دوريان وسأله:

- أتخسنت حالتك الآن يا دوريان ؟ لقد بدا عليك الإعياء أثناء العشاء.

- أنا على خير ما يرام وكل ما في الأمر أنني متعب

- لقد سحرت جميع الحاضرين في حلقة الأمس يا

دوريان والدوقة العجوز تحبك حبا جما، وقد قالت لي إنها ستزورك في سبلي.

- نعم وعدت بأن تأتي في العشرين من هذا الشهر.

- وهل سيزورك مونغوث كذلك.

- نعم يا هاري

- أنه شخص ثقیل على نفسي، ثقیل على نفس

الدوقة، ورأيي في الدوقة أنها نادرة الذكاء بل إنها أذكى مما يجوز لأمرأة أن تكون ولكن ينقصها ذلك السحر الذي

يكن في ضعف النساء، يقولون إن المعبودات ذاتها لها أقدام من الصلصال، وأن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها، ولكني أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات، وقدا الدوقة تفتن الناكسين ولكنها ليست من الصلصال بل من الصيني الأبيض إذا أحببت، وقد احترقتا بنيران الحياة، والنيران كما تعلم تقوي مالا تستطيع أن تتلفه، إنها من صاحبات الاختبار الواسع.

فسأله دوريان قائلاً:

- هل مضت على زواجها فترة طويلة ؟
هي تقول أنه مرت على زواجها زمناً. ولكني أقدر هذا الزمن بعشر سنوات لأن زوجها لم يرثاللقب إلا منذ عشر سنوات، وعشر سنوات في عشرة رجل كمونماوث لا بد تبدو زمناً طويلاً، فتقديرها لا يدهشني. ولكن حدثني عن ضيوفك الآخرين.

- سيكون بينهم آل ويلوبي واللورد رجي وزوجته، والليدي ناربورو، وجفري كلاوستون وبقية الرهط الذي تعرفه، وكذلك دعوت اللورد جروتريان.

قال اللورد هنري:

- أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه، فهو في نظري رجل جذاب، وإذا كان من رذائله الإسراف في التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف في الإطلاع، إنه نموذج للرجل العصري.

- لست واثقاً من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة يا هاري، فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت

كارلو.

قال اللورد هنري:

- ما أثقل الآباء يا دوريان ؟ أرجوك أن تلح عليه في

النجي.

- ولكن خبرني يا دوريان، لقد تركتني في وقت

مبكر ليلة أمس، تركتني قبل الساعة الحادية عشرة، فماذا

فعلت ببقية الليلة؟ هل عدت إلى بيتك مباشرة؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عابساً:

- كلا يا هاري، لم أعد إلى بيتي إلا قرب الساعة

الثالثة.

- أذهبت إلى النادي؟

- نعم.

ولكنه عض شفته وصحح كلامه قائلاً:

- لا، أقصد أنني لم أذهب إلى النادي، بل تجولت في

الطرق، لقد نسيت الآن ما فعلته ليلة أمس، ما أشد

فضولك يا هاري !، إنك تحب دائماً أن تعرف ما كنت

أفعله، وأنا أحب دائماً أن أنسى ما كنت أفعله، لقد عدت

إلى بيتي في الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن

يهمك، ثم تبين لي أنني قد نسيت المفتاح في البيت ففتح

الباب لي خادمي، وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه

الرواية فعليك به، سله كما تحب.

فقال اللورد هنري مظهراً عدم الاكتراث:

- وما شأني بكل هذا ؟ هيا بنا إلى الصالون يا

دوريان، أشكرك يا مستر تشامبان، فلست أريد المزيد نم

النبذ، لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص علي ما جرى، إنك هذه الليلة لست على عهدي بك.

- لا تهتم بأمرى يا هاري، فأنا الآن غير مضبوط المزاج، وسأزورك غداً أو بعد غد على أكثر تقدير، وأرجوك أن تعتذر عن انصرافي إلى الليدي ناربورو نيابة عني، فأنا راجع إلى داري، نعم لا بد أن أرجع إلى داري.

- حسنا يا دوريان، أرجو أن أراك غداً في وقت الشاي، ولسوف تجد الدوقة عندي.

- سأبذل كل المستطاع يا هاري.

وانصرف، وفيما كانت عربته تمضي به صوب بيته عاوده شعور الفزع الذي ظن أنه قد كبته في نفسه، فالأسئلة العارضة التي ألقتها عليه اللورد هنري أفقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين، وهو لا يزال بحاجة إلى اتزان الأعصاب، ففي بيته أشياء قد تجره إلى المشنقة، ولا بد من القضاء عليها تماماً، وكان مجرد التفكير في أنه سيمسها يقبض نفسه، ولكنه كان يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولوورد، فما إن دخل المكتبة وأقفل بابها بالفتاح حتى فتح الكوة الخلفية واستخرج منها معطف بازيل هولوورد وحقييته، وكانت في المدفأة نار مشبوبة، فألقى فيها قطعة أخرى من الخشب ليذكيها وامتلأت الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق، ولم يفرغ من تدمير كل شيء إلا بعد ثلاث أرباع الساعة، ويعد أن انتهى كل شيء أحس بدوار شديد وإعياء مروع، ثم أحرق بعض الطيوب المغربية في إناء نحاسي محروق، وغسل يديه

وجبهته في خل بارد معطر بالمسك.

وفجأة اضطرب قلبه ولمع في عينيه بريق وأنشأ يعرض شفته السفلى بقوة عصبية، وكان بين النافذتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من أبنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم، وشخص بصره إلى الخزانة كأن بها قوة سحرية أو قوة رهيبية. كأن بها شيئاً تتوق نفسه إليه وتبغضه في آن واحد، وتلاحقت أنفاسه في سرعة وتملكه نهم شديد، اشعل سيجارة ثم قذفها بعيداً عنه، وارتخى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة أن تمس خديه. ولكن بصره لم يتحول عن الخزانة، وأخيراً نهض ومشى إليها وأدار فيها مفتاحاً، ثم ضغط على زر خفي فبرز منها درج مثلث الشكل قليلاً قليلاً، وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعي منه وغاصت فيه وأمسكت بشيء ما، أمسكت بصندوق صيني صغير دهانه أسود وذهبي دقيق الصنع جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج، وقد ركبت فيه خيوط من حرير تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المضفور، وفتح الصندوق فوجد داخله معجوناً أخضر يلتمع لمعان الشمع له رائحة نفاذة لا تضيع.

وتردد بضع لحظات، وكانت على شفثيه ابتسامه ثابتة غريبة، ثم مشى في أوصاله رعدة برغم الحرارة الخائفة التي تملأ الغرفة، وجمع أشتات قوته ونظر إلى الساعة فوجدها قرب منتصف الليل، وأعاد الصندوق إلى مكانه وأغلق الخزانة، وآوى إلى غرفة النوم.

ودقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل، وكان دوريان جراي

قد استبدل ثياب السهرة بثياب أخرى عادية، ولف حول
عنقه كوفيه وانسل خارجاً من داره، وفي بوند ستريت وجد
عربة فاستوقفها وهمس في أذن الحوذي بالعنوان الذي
يبيغيه.

وهز الحوذي رأسه قائلاً:

- هذا مكان بعيد يا سيدي ولا أستطيع أن املك
إليه.

فنفحه دوريان بجنيه وقال:

- أعدك بمثله إن أسرعت في الطريق.

فأجاب الرجل:

- حسناً يا سيدي. سوف تبلغ المنزل في أقل من ساعة.
وبعد أن وضع أجره في جيبه لوى أعنة جياده ، وركضت
العربة في اتجاه نهر التيمس.



الفصل السادس عشر





بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدأت مصابيح الشارع كالأشباح المخيفة بعد أن ابتلت بالماء واختنق نورها. كانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها، وعند أبوابها تكاثر الناس في جماعات متفرقة، وقد أخفى الظلام معالمهم، ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع، ومن حانات أخرى كان السكارى يتشاجرون ويصرخون.

وفي العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطي عينيه، وطفق يتأمل المدينة العظيمة ومخازيها في ذلك الوقت من الليل. وتذكر قول اللورد هنري له يوم لقائهما الأول: ((إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس))، وتذكر أن هذا السر هو سره الذي جربه المرة بعد المرة فلم يخب ظنه، وها هو ذا يجربه من جديد في هذه الليلة، ويجربه في أوكار الأفيون حيث النسيان يباع ويشترى، ويجربه في بؤر الفساد حيث تمحى ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضي القديم.

وتدلى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل، وبدأ في السماء كالجمجمة الصفراء، وبين وقت

وآخر مرت غيمة هائلة لا شكل لها ولا حدود وحجبته عن الأرض، وكلما تقدمت العربة في المسير ضاقت الشوارع أمامها وازدادت المدينة كآبة، وضل الحوزي طريقة مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل، وكلما خاض الجواد في المياه المتخلفة من الأمطار ارتفع حوله رشاش يشبه البخار، أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغبر.

وترددت عبارة اللورد هنري في أذنيه طول الطريق، أجل... شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس، وهذه روحه مريضة تدب فيها المنية، وكيف تشفي روحه الحواس وقد سفك الدم البريء؟ وأي كفارة تغسل عنه الذنب العظيم؟

لا كفارة، فمثل هذا الذنب لا تغسله أنهار الدموع، ولكن إذا عز الغفران، فالنسيان لا يزال مفتوحاً سبيله، وقد وطد العزم على أن ينسى، على أن يسحق غصة الألم في نفسه كما يسحق الأفعى بعد أن لدغته، فبأي حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه موقف المعنف؟ ومن ذا الذي أقامه في الناس قاضياً؟ إن بازيل قد فاه بعبارات مفزعة، عبارات لا تحتمل.

كانت العربة تمضي في ركضها، وخيل إليه أنها تقلل من سرعتها في كل شبر تحتازه، فرفع الكبود وهتف بالحوزي أن يلهب جواده بالسوط، وبدأ شوقه إلى الأفيون يأكله أكلاً والتهب حلقة وانقبضت يده الدقيقتان بحركة عصبية، وضرب الجواد بعصاه كالجنون وضحك الحوزي وضرب

الجواد بسوطه فضحك دوريان جراي وتلا ذلك صمت.
واحس بأن الطريق لا ينتهي، وبدأت له الشوارع المظلمة
المتشعبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة، ورأى
الضباب يتكاثف من حوله فشعر بالخوف.

ثم مر بخلوات يصنع فيها الطوب، وفي هذه الخلوات
كان الضباب أقل كثافة منه في المدينة، واستطاع أن يرى
محارق الطوب التي تشبه الزجاجات في هيئتها، وأبصر السنة
اللهب البرتقالية تصعد منها بصورة مروحة من النار، وسمع
في طريقه كلباً ينبح ، وسمع طائراً تائهاً يصرخ على البعد،
وكبا الجواد في حفرة ثم انثنى وأسرع في الركض.

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفي وبدأت
عجلاتها تجلجل على طريق معبد خشن، وكانت أكثر
النوافذ مظلمة، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من
غرفة مضاءة وظهرت على ستائرهما أشباح عجيبة، وطفق
دوريان جراي يتأمل هذه الأشباح في فضول فوجدها تتحرك
كدمى الأرجوز، وتشير بأيديها كما يشير الأحياء، وانقبضت
نفسه مما رأى، وامتلاً قلبه بغضب مكتوم، ودارت العربة في
منعطف فسمع امرأة تصرخ به من مكانها في أحد الأبواب
ورأى رجلين يعدوان رواء العربة نحو مائة ياردة ولكن
الحوزي أعمل سوطه فيهما.

يقولون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية،
وهذا ما حدث لدوريان جراي وهو يعرض شفته ويكرر قول
اللورد هنري ويستخرج منه المعاني الدقيقة، حتى وجد في
نظرية استشفاء الروح بالحواس خير معبر عن حالته وخير

مبرر لما هو مقدم عليه، ولو لم يجد المعبر أو المبرر لما غير هذا من أمره شيئاً، وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها، وشحذت أعصابه المضطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمة في الحياة، وإرادة الحياة في الإنسان تكتسح أمامها كل إرادة، وبدأ يتذوق القبيح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع بعد أن كان ينكر القبيح لأنه يقترب من الإنسان من الواقع، بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار، والبؤر النكراء، وفظاظه الحياة المضطربة وقسوتها، وخسة اللصوص ووضاعة الأوباش والمنبوذين، كل هذه بدت له أصداق تعبيراً عن الحياة الواقعة من النماذج الجميلة التي يختلقها الفن اختلاقاً، والظلال الحاملة التي تملأ قريض الشعراء، وإذا كانت الحقيقة مرة شائنة فهو بحاجة إلى مرارتها وجوهرها الشائنة فهما تلهمانه النسيان فليتنزل إلى الدرك الأسفل، وبعد أيام ثلاثة سوف تبرأ روحه من جراحها.

ثم توقف الحوزي فجأة عند مبدأ زقاق مظلم فارتجفت العرب، ورأى دوريان جراي صواري السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة، ومن ورائها مداخنها، وفي الميناء رأى قطع الضباب الأبيض تحوم في كل مكان كأنها قلوب خرافية، وسمع الحوزي يسأله بصوت أجش:

- العنوان في هذه المنطقة. أليس كذلك؟

وتنبه دوريان وبدأ يلتفت حوله ثم أجاب:

- هذا يكفي.

وخرج من العربة مسرعاً وأعطى الحوذي ما وعده به من مال، ثم سار مستعجلاً في اتجاه رصيف الميناء، وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك في مقدمة السفن التجارية الضخمة، واهتز النور وتفتت في الماء المتخلف من المطر، وجاء ضوء أحمر من بلخرة خارجة من الميناء كانت تتزود بنصيبها من الفحم، أما رصيف الشارع المغطى بالأوحال فبدأ كمعطف مبتل من الجلد.

وانعطف إلى اليسار وأسرع في المسير، وكان يلتفت إلى الورا بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفى أثره فلم يجد أحداً، وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتاً حقيراً محشوراً بين مصنعين ضيقين، ورأى مصباحاً منيراً في أحد النوافذ العليا، فتوقف، ثم طرق الباب طرقة غير مألوف.

وبعد وقت قصير سمع دبيب أقدام في الدهليز، وسمع سلسلة الباب ترفع، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئاً للشخص المسوخ القصير القامة الذي فتح له الباب، ثم توارى في الظلام، وفي نهاية القاعة تدلى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التي اقتحمت الباب أثناء دخوله، وجذب الستار ثم دخل في غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت في يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة، واصطففت على جدران الغرفة مصابيح كانت تنثر أزيزاً عالياً، وقد طمست نورها وشوهته المرايا القذرة المصطفة أمامها، ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلع قبالتها تعكس أنوارها في هيئة أقراص من النور المرتجف، وكانت

الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة في مواضع عدة بأوحال الشارع التي حملتها أقدام الداخلين، وملطخة في مواضع أخرى بأثار النبيذ المسكوب، وبالقرب من المدفأة جلس على الأرض رجال أصلهم من الملايو وذهبوا يلعبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث، في ركن الغرفة رقد بحار على مائدة، وعند البار الطويل الذي شغل جانباً كاملاً من جوانب الغرفة وقفت امرأتان صاحبتا الوجه تنهكمان بشيخ كان ينظف كمية في امتعاض واضح ضاحكة: "إنه يتصور أن النمل قد ملأ كمية". ورأى الشيخ ينظر إليها فزعاً، ثم يزجر.

وكان في نهاية الغرفة سلم صغير. وكان السلم الصغير يفضي إلى غرفة مظلمة. وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهافئة صعدت في أنفه رائحة الأفيون القوية، فملأ رثتيه منها واختلج أنفه انشراحاً. ودخل فوجد بالغرفة شاباً أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليو قد منه بيته. ونظر الشاب إليه، ثم أوماً إليه بعد تردد. قال دوريان:

- لم أكن أتصور أنك هنا يا دريان:

فأجاب الشاب في فتور:

- هل بقي لي غير هذا المكان؟ إن جميع أصدقائي قد

أنكروني.

- كنت أحسب أنك خرجت من أجليترا.

- لم أجد داعياً لذلك لأن دارلنجتون لن يرفع الأمر

إلى القضاء، فقد سدّد أخي جورج قيمة الصك، وهو الآن يقاطعني، ولكني لا أكرّث، فما بي حاجة إلى الأصدقاء طالما أنا أحصل على هذا الجوهر السحري الذي يمسخ الأحزان. ثم أنني اعتقد أنني أسرفت في اختيار الأصدقاء.

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام، وتلفت حوله ليتأمل الأجسام الزرية المستلقية على المراتب في أوضاع عجيبة. فرأى السيقان المنتفخة، والأقوام المفغورة، والعيون المنطفئة الشاحصة وسحرة مرآها. فقد كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية، وما يسعدون به من نيران الجحيم، وخيل إليه أنهم أسعد منه حالاً فهو البائس الذي يستهلك مهجته وتذهب نفسه حشرات، وهو التاعس الحبيس في سجن الذكريات، الذكريات.. ؟ نعم. الذكريات، ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث. لقد رأى عيني بازيل هولوردد تحملقان فيه مراراً، وهو بحاجة إلى النسيان، ولكنه أحس أنه لا يستطيع البقاء في ذلك المكان، لأن وجود أدريان سنجلتون قد أزعجه وهو يرغب أن يكون في مكان لا يعرفه فيه إنسان، وأراد التخلص منه فقال بعد صمت قصير:

- إنني ذاهب إلى المكان الآخر.

- عند رصيف الميناء؟

- نعم.

- سوف تجد هناك البغي المجنونة، ما في ذلك ريب، فقد طردوها من هذا المكان.

قال دوريان في استخفاف: إن نفسي زهدت النساء

اللائي يعشقنني فليت لي نساء يكرعني، ومن ناحية أخرى
أجد البضاعة هناك أجود نوعاً - لا أعتقد أن هناك فرقاً -
أنا أفضلها على أية حال، تعال واشرب معي كأساً فأنا
بحاجة إلى الشراب.

- قال الشاب: لست أرغب في شيء.

- سواء عليّ.

- ونهض أدريان سنجلتون في إعياء وتبع دوريان إلى
البار، وفي البار حياهما منبوذ من منبوزي الهنود على رأسه
عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف ثقيل، حياهما تحية خير
منها السكوت، ووضع أمامهما زجاجة من الكونياك
وقدحين، وانتحت المرأة مكاناً جانباً وبدأتا تثرثران
وأولاهما دوريان ظهره، وهمس في أذن أدريان سنجلتون
ببعض الكلمات فابتسمت إحداهما ابتسامة تشبه خنجر
الملايو المنحني وقالت في تهكم:
- شرفتنا.

لكن دوريان نهرها قائلاً وهو يضرب الأرض بقدمه:

- خير لك ألا تتكلمي، ماذا تريدين مني ؟ إن كنت
تريدين مالاً فهاهو ذا المال، ولكن ابعدي عني وإياك أن
تكلميني بعد الآن.

فلمع الشرر في عيني المرأة الدامعتين قدر لحظة، ثم
انطفأت عيناها وعادتا جامدتين لا معنى فيهما، وهزت
رأسها وخطفت النقود من الكونتوار بأصابع جشعة،
وتحركات الغيرة في قلب صاحبتهما.
وتنهذ أدريان سنجلتون وقال:

- لا جدوى من التفكير في هذا فأنا لا أرغب في العودة، والأمر عندي سواء لأنني سعيد هنا.
- قال دوريان بعد صمت قليل:
- أنا أنتظر منك أن تكتب إلى كلما احتجت إلي شيء. أليس كذلك؟
- ربما
- طاب مساؤك إذاً.
- طاب مساؤك.
- وعاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسح فمه الملتهب بمنديله. أما دوريان فالتجه إلى الباب حزين القلب. فلما جذب الستار ليخرج إلى الدهليز سمع المرأة التي أخذت منه النقود تضحك ضحكة مفزعة ، وبلغه صوتها الخشن يقول في تقطع:
- ها قد ولى صنعة الشيطان.
- فأجاب دوريان قائلاً:
- لا تسميني صنعة الشيطان ، أيتها اللعينة.
- وطقطقت المرأة أصابعها وصاحت به:
- أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر. أليس كذلك؟
- فلما سمع البحار الراقد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ يجول بعينه في أنحاء الغرفة كالوحش الهائج. وسمع باب القاعة يقفل فاندفع خارجاً من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جراي.
- وأسرع دوريان جراي بالسير على رصيف الميناء والمطر

ينهمر فوق رأسه. وقد أثارت رؤية آدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه، وخيل إليه أنه علة شقاء هذا الفتى والمسئول عن تخطيط حياته كما صارحه بازيل هولوردر بذلك في عبارات مهينة. وعرض شفته ألماً وارتسم الحزن في عينيه بضع ثوان ، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار ، وأحس بأن حياة الإنسان أقصر من أن يثقلها بأوزار الآخرين. فلتحيا كل نفس حياتها. ولتدفع كل نفس ثمن ما تجنيه من لذات. وما آله إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مراراً وتكراراً ، فالقدر لا يرضي بأن يصفى حسابه مع الإنسان دفعة واحدة.

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة في الخطيئة أو ما يسميه الناس بالخطيئة حين تتملك النفس تماماً فتملاً شعاب العقل وتملاً جنبات الحسد تقترب في طبيعتها من النزعات الإجرامية فتري الناس يفقدون كل قدرة على الاختيار ، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا يملكون لها قهراً ، وكأنهم آلات صماء. وتتلاشى فيهم الإرادة ويموت فيهم الضمير ، فإن لم يمت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد الجسد وهو صراع مسرحي يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفني. ذلك لأن جميع الخطايا جوهر العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت في كل مناسبة. وإبليس العظيم ، إبليس نجم الشر الوضاء ، لم يسقط من كنف الله إلى الهاوية إلا لثورته على الحكم المطلق.

وأسرع دوريان جراي في سيره ، وقد مات فيه الشعور وتركزت خواطره في الشر، وثارت في عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة. ولكن ما إن نفذ في بعض البواكي

المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق إلى ذلك المكان
الجهنمي حتى أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من
الخلف فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع
عن نفسه.

وحاول أن ينجو بحياته في قوة جنونية حتى استطاع
بمجهود جبار أن يخلص عنقه من قبضة غريمه ، ولكن لم
تمض ثانية حتى سمع صوت مسدس يصبوب إلى رأسه ورأى
خزانة المسدس المصقولة تلمع في الظلام وتبين أمامه رجلاً
بديناً قصير القامة طمس الليل معلمه. قال دوريان جري
وهو يلهث:

- ماذا تبغي يا هذا ؟

قال الرجل:

- اسكت. إن تحركت قتلتك.

- أنت مجنون ، كيف تقتلني وما أذيتك.

- فأجاب الرجل:

- أنت حطمت حياة سيبيل فين ، وهي أختي. وأنا

أعلم أنها انتحرت ولم تمت خطأ كما زعم المحقق فأنت
المسئول عن موتها. ولقد أقسمت أنني قاتلك عند عودتي ،
وقد فتشت عنك أرجاء المدينة فلم أهتد إليك. لقد ماتت
أختي ومات اليهودي فلم أجد بعدهما من يستطيع أن
يصفك لي. فكيف أهتدي إليك وأنا لم أعرف عنك شيئاً
إلا أن سيبيل كانت تطلق عليك اسم الأمير الساحر. فما
إن سمعت إسمك يتردد الليلة مصادفة حتى علمت أنني
ظفرت ببغيتي. صل إلى الله واطلب منه الغفران فأنت

الليلة هالك.

فأصاب دوريان جاري جزع شديد وانتابه دوار وطفق يقول:

- ما عرفت أختك قط ، وما سمعت بها. إنك مجنون.
- خليك بك أن تعترف بما فعلت ، لأنك ميت لا محالة.

وتبعت ذلك لحظة صمت كلها أهوال ، ولم يجد دوريان ما يقوله أو يفعله ، وزجر جيمس فين قائلاً:
اسجد ، وصل إلى الله. وأمامك دقيقة واحدة أقبض بعدها روحك.

إنني راحل الليلة إلى الهند ، ولا بد أن أنجز مهمتي أولاً.
أمامك دقيقة واحدة لا أكثر.

وتخاذل ذراعاً دوريان من فرط الإعياء ، وسد الفزع عليه مسالك تفكيره فلم يعرف ماذا يفعل. ولكن فكرة خطرت له فجأة فرأى بصيصاً من الأمل في نجاته. قال:

- مهلاً. متى انتحرت أختك هذه. اجبني بسرعة!
- انتحرت منذ ثمانية عشر عاماً. ولكن لم تسال، وما دخل السنين في كل هذا ؟

فضحك دوريان ضحكة المنتصر وقال:

- ثمانية عشر عاماً! انظر إلى وجهي يا هذا واحكم بنفسك. هيا خذني إلى المصباح.

وتردد جيمس فين برهة ولم يفهم لقوله معنى، ثم أمسك بدوريان جراي وخرج به من البواكي ، ومضى به إلى مصباح من مصابيح الشارع.

وكانت الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافياً.

وتبين جيمس فين خطاه الفاحش ، فقد رأى أمامه وجهاً اجتمعت فيه نضارة الصبار وطهارة الشباب. رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعاً إلا بأيام قليلة، فتى لا يزيد عمره عن عمر سيبل حين تركها وذهب يحول ويطوي البحار، فكيف يكون هذا الفتى الرجل الذي حطم حياتها؟! هذا مستحيل.

فبك عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلاً:

- يا إلهي..! يا إلهي..! لقد كدت أن أقتل نفساً بريئة.

وتنفس دوريان الصعداء وقال له في تحدي:

- لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا، فليكن

هذا درساً رادعاً لك، فلا تتولى قصاص الناس بنفسك.

قال جيمس فين بصوت متقطع:

- أرجو أن تصفح عني يا سيدي لقد خدعتني كلمة

عابرة سمعتها في ذلك الوكر اللعين جعلتني أتعقب رجلاً بريئاً.

فقال دوريان وهو ينصرف عنه:

- خير لك أن تعود إلى بيتك وأن تخفي ذلك المسدس

وإلا جرّ عليك المتاعب.

ووقف جيمس فين على رصيف الشارع مذعوراً

يرتحف كل جزء من أجزاء جسمه، وبعد فترة قصيرة برز من

الظلام ظل قائم كان يزحف بجوار الحائط الذي بللته

الأمطار، وخرجت إلى النور امرأة تسترق الخطى، وأمسكت

بذراعه فالتفت إليها فزعاً، وكانت المرأة هي البغي التي كانت تحتسي الخمر عند البار.
واقرب وجهها الشاحب من وجهه وهمست في أذنه
قائلة:

- لماذا لم تقتله ؟ لقد عرفت إنك تطارده حين خرجت على عجلة من بار دالي، واصلت قائلة:
- يا لك من أحمق! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالاً كثيراً وهو يفوق إبليس خطراً، فأجاب جمس فين:
- ليس هذا بالرجل الذي أبحث عنه، وأنا لست قاطع طريق أسلب الناس أموالهم، وإنما أطلب الثأر، والرجل الذي أريد قتله لا بد أن يكون في الأربعين من عمره، أما هذا الفتى فهو صغير، وشكراً لله الذي جعلني أتبين خطئي.
ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة وقالت في احتقار:

- كيف تقول إنه صغير؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذي حطم حياتي كما ترى منذ ثمانية عشر عاماً.
رد عليها جيمس فين بصوت مرتفع :
- أنت تكذبين!
- فرفعت يديها إلى السماء وقالت:
- بل أقسم بالله أنني ما قلت إلا الصدق.
- اتقسمين بالله؟
- نعم فإن كنت كاذبة فليخرس الله لساني، إن الأمير الساحر هو أفجر رواد هذا المكان، ولقد سمعت الناس

يروون عنه أنه باع روحه للشيطان في مقابل وجه جميل،
فحين عرفته منذ ثمانية عشر عاماً كان كما هو الآن، إنه لم
يتغير إلا قليلاً، أما أنا فقد تغيرت.
ولع في عينها بريق الشهوة وهي تقول تلك العبارة
الأخيرة.

- أتقسمين على ذلك ؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح:

- نعم أقسم على ذلك.

ثم قالت في استعطاف:

- ولكن لا تشي بي عنده، فأنا أخشى شره، ثم قالت

تستحته:

- هيا أعطني بعض المال لأدفع أجر المبيت هذه

الليلة.

فنزح جيمس فين ذراعه من قبضتها وهو يلعن، واندفع

إلى منعطف الشارع باحثاً عن فريسته، ولكنه لم يجد

لدوريان جراي أثراً، فلما تلفت وراءه وجد ان المرأة قد

اختفت كذلك!.

الفصل السابع عشر





بعد أسبوع كان دوريان جراي جالساً في صالون الموسيقى بقصر سلمي، كان يتحدث إلى دوقة مونماوث الجميلة التي نزلت في ضيافته مع زوجها الدوق، وكان رجلاً في الستين من عمره بادي الإعياء، وكان الوقت وقت الشاي، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير القاتم على المائدة يخرج منه نور رقيق يضيء أواني الشاي المتنوعة بين أواني صينية، وقطع من فضة مطروقة، وكانت الدوقة على رأس المائدة، وذهبت يداها البيضاءوان تنتقلان برشاقة بين الفنّاجين، وهمس دوريان في أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحمرانوان الممتلئتان، أما اللورد هنري فقد كان يتأملهما وهو مستلق على كرسي من فروع الشجر مكسو بالحرير، وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست الليدي ناربورو وتكلفت الإصغاء إلى كلام الدوق في وصف جعران برازيلي أضافه إلى مجموعة جعارينه، وذهب ثلاثة من الشبان في ملابس السهرة يقدمونالكعك إلى بعض السيدات،وقد بلغ عدد الضيوف إثني عشر ضيفاً، وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين في اليوم التالي.

ثم نهض اللورد هنري وسار إلى المائدة ووضع عليها
فنجانه قائلاً:

- فيم تتحدثان؟ أرجو يجلاديس أن يكون دوريان قد
حدثك عن مشروعي الذي وضعته لأغير جميع الأسماء فهو
مشروع جميل.

- فأجابت الدوقة وهي تنظر إليه بعينيها
الساحرتين:

- ولكني لا أحب أن أغير اسمي ياهاري فانا راضية به،
وأعتقد أن مستر جراي راض باسمه كذلك.

- إن اسمك يا عزيزتي جلاديس اسم جميل، وكذلك
مستر جراي اسمه جميل، ولن أقبل أن يدخل عليهما أي
تعديل، إنما كنت أفكر في الأزهار خاصة حين وضعت
مشروعي لتغيير الأسماء، فبالأمس قطفت زهرة من أزهار
الأوركيد لأضعها في عروة سترتي، وكانت الزهرة رائعة
المنظر منقطة، لها فتحة الرذيلة وسحر الخطايا السبع، وفي
لحظة طيش سألت البستاني بما يسمونها، فأجابني بأنها
ضرب نادر من الروبنسونيانا أو ما شابه ذلك من الأسماء
المنكرة، لقد تأملت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا قد فقدنا
القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة، إن الأسماء هي كل شيء
يا عزيزتي جلاديس، وأنا لا أبداً لأفعال الناس، فكل ما
يعنيني هو أقوالهم، وهذا سر بغضي للإبتذال الذي نجده في
الأدب الواقعي، والإنسان الذي يسمى الأشياء بأسمائها
يفسد طعم الحياة.

- فسألت الدوقة قائلة:

- إذن فيماذا تحب أن نسميك يا هاري؟
- قل دوريان:
- فلنسمه أمير التفائض.
- قالت الدوقة
- هذا اسم على مسمى
- فأجاب اللورد هنري ضحكاً وهو يغوص في أحد المقاعد:
- أرجو أن أعفى من هذا الاسم، وإذا لم يكن هناك مفر من ماركة مسجلة، فأنا أرفض هذا اللقب.
- قالت الدوقة الجميلة محذرة:
- تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم!
- تحبين أن أدافع عن عرشي؟
- نعم.
- أنا الكاشف عن حقائق الغد.
- قالت الدوقة:
- ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم.
- فصاح قائلاً وهو يجادلها بأسلوبها:
- أنتي تجرديني من سلاحي يا جلاديس.
- أجردك من درعك لا من رحك يا هاري.
- قال بإشارة مؤدبة:
- أنا لا أسدد رجلي إلى الجمال.
- هذا خطأ منك يا هاري، فأنت تبالغ في تقدير الجمال.
- هذا غير صحيح فأنا أعترف حقاً أنني أفضل

الجمال على الخير، ولكني أول من يفضل الخير على القبح.
قالت الدوقة:

- إذن فالقبح أحد الخطايا السبع القاتلة؟ وكيف
يتفق ذلك مع قولك بأن زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا
السبع في جمالها؟

- بل القبح أحد الخطايا السبع القاتلة يا جلاديس،
وأنت وأصحابك من الأرسطوقراط آخر من يحق له أن
يتجاهل قيمة هذه الفضائل، فالبيرة، والكتاب المقدس،
والفضائل السبع القاتلة هي التي جعلت إنجلترا على ما
هي الآن.

- فسألته قائلة:

- إذن فأنت تكره إنجلترا.

- أنا أعيش في إنجلترا.

- لتفصح عيوبها بأمانة؟

فسألها قائلاً:

- أتحب أن أقبل حكم أوروبا علينا؟

- وما حكم أوروبا علينا؟

- أن طرطوف ملك المنافقين هاجر إلى إنجلترا وفتح
فيها متجرًا.

- أهذا رأيك يا هاري؟

- وقد تنازلت لك عنه.

- ولكني لن أستطيع أن أعلن هذا الرأي بين الناس،

فهو يصف الحقيقة

- لا تخشى شيئاً، فمواطنونا الكرام لا يفهمون

الأوصاف.

- لأنهم قوم عمليون
- بل لأنهم قوم ماكرون، وفي ميزانهم التجاري تعوض الثروة عن الغباوة، والنفاق عن الرذيلة.
- ولكننا أتينا بالعجائب برغم كل ذلك.
- بل أوتينا العجائب يا جلاديس فقد فرضت علينا العجائب فرضاً.

- هذا جائز، ولكننا حملنا عبء المجد، وهو ثقیل.
- نعم حملنا عبئه حتى البورصة، ثم تخلينا عنه.
- فهزت الدوقة رأسها وقالت:
- أنا أوقن بسلالتنا.
- إن سلالتنا لا تمثل بقاء الأصلح بل تمثل بقاء الأقوى.

- أنها تتقدم.
- ليتها تنحل، فالانحلال عندي خير من التقدم
- قالت.

- وما رأيك في الفن؟
- الفن مرض.
- وما رأيك في الحب؟
- الحب وهم.
- وما رأيك في الدين؟
- الدين هو الاسم الحديث للعقيدة.
- أنت إذن من المتشككين.
- حاشا لله، فالشك مبدأ الإيمان.

- ماذا أنت إذن؟
- التعريف يفسد المعرف.
- أريد ان أهتدي إلى شخصيتك
- إن خيوط الشخصية تتشابك، ولسوف تضلين في التيه.
- أنت تحيرني، ومع ذلك فلتكلم عن شخص آخر.
- نعم، وإن مضيفنا هو موضوع شائق للحديث، لقد سمي منذ سنوات طويلة بالأمير الساحر.
- فصاح دوريان جراي قائلاً:
- لا تذكرني بذلك.
- أجابت الدوقة وقد احمر وجهها:
- إن مضيفنا ضيق الصدر هذا المساء، وأظن أنه يعتقد أن موناوث قد تزوجني لأسباب علمية حين وجد في أحسن نموذج من نماذج الفراشات الحديثة.
- قال دوريان ضاحكاً:
- أرجو ألا يضع فيك الدبابيس يا سيدتي الدوقة كما يضع الدبابيس في فراشاته الأخرى.
- لا حاجة به إلى ذلك، فوصيفتي تغرس في الدبابيس بنفسها كلما غضبت مني يا مستر جراي
- ولم تغضب وصيفتك منك؟
- أؤكد لك يا مستر جراي أنها تغضب لأتفه الأسباب. تغضب
- مثلاً حين أعود إلى المنزل في الساعة التاسعة، ثم أقول لها إن علي أن أستبدل ثيابي قبل الثامنة والنصف.

- هذا تعنت منها! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هي عادت إلى ذلك.

- لست أجروُ على ذلك يا مستر جراي فهي التي تبتكر لي قبعاتي، أتذكر القبعة التي لبستها في حفلة الليدي هيلستون؟، طبعاً أنت لا تذكرها، ولكني أشكر لك ادعاءك أنك تذكرها، تلك القبعة صنعتها لي من لا شيء.
فقاطعها اللورد هنري قائلاً:

- شأنها شأن السمعة الطيبة يا جلاديس، فكل أثرٍ يتركه المرء في الوسط المحيط به يكسب المرء عدواً جديداً. ولا سبيل إلى اكتساب قلوب الناس إلا بأن تكون من الأوساط التافهة.

قالت الدوقة وهي تهز رأسها:

- هذا الكلام لا ينطبق على النساء، والنساء يحكمهن العال، وأنا أؤكد لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء، وقد قال حصيف إننا معشر النساء نعشق بآذاننا كما تعشقون أنتم معشر الرجال بعيونكم، إن كنتم تعشقون.

فقال دوريان:

- يبدو لي أن العشق هو كل عملنا في الحياة
أجابت الدوقة وهي تتكلف الحزن:
- إذا كانت الحال كذلك فأنتم لا تعرفون الحب.

قال اللورد هنري:

- أنا أحتج يا عزيزتي جلاديس، فالحب يحيا بالتكرار، والتكرار يصقل الرغبة ويكسبها صفة الفن، إن الحب

واحد مهما تعدد موضوعه، وفي كل مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد، والتعدد لا يضعف الحب، بل يذكّيه. فالحياة لا تتسع إلا لاختبار واحد عظيم، وسر السعادة أن نكرر هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.

وسألته الدوقة بعد صمت قليل:

- و إذا كان الاختبار أليماً، فهل نسعى إلى تكراره؟

أجاب اللورد هنري:

- بل يجب أن نسعى إلى تكرار الاختبار الأليم قبل

غيره.

وتحول نظر الدوقة إلى دوريان جراي، وبدا في حياها

تعبير غريب وسألته قائلة:

- ما رأيك في هذا الكلام يا مستر جراي؟

وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الورا، وقال

ضاحكاً:

- أنا أوافق دائماً على ما يقوله هاري يا سيدتي

الدوقة.

- حتى إذا أخطأ؟

- هاري لا يخطئ يا سيدتي الدوقة.

- وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التي تنشدها؟

- أنا لم أنشد السعادة في يوم من الأيام، فما بي حاجة

إليها، إنما نشدت اللذة.

- وهل وجدت اللذة يا مستر جراي؟

- نعم وجدتتها، وجدت منها أكثر مما أحتمل.

وتنهدت الدوقة، ثم قالت:

- أما أنا فأنشد الهدوء، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابي فلن أذوق طعم الهدوء في هذه الليلة.
- فنهض دوريان وسار إلي أقصى الصالون قائلاً:
- اسمحي لي أن آتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتي الدوقة.
- وقال اللورد هنري لابنة عمه الدوقة:
- إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة، وأنصحك أن تحتاطي فهو شخص فتن.
- لو لم يكن فاتناً لما كان هناك صراع.
- إذا فهذه معركة بين آخيل وآخيل!
- كلا، فأنا في جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة.
- وقد هزموا.
- فأجابت:
- السبي أهون ما في الحرب.
- إنك تركضين على جواد بلا زمام.
- أجابت:
- هذا يجدد الحياة
- سأدون هذا في يومياتي الليلية.
- وماذا ستكتب؟
- سأكتب أن الطل يجب النار التي تحرق أصابعه.
- هذا غير صحيح ، فأنا لم اكتب بعد ، فكيف تقول
- إني احترقت ، وهذه أجنحتي سليمة.
- أنت تستخدمين أجنحتك في كل شيء إلا الطيران.

- إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء، وهذا اختبار لم نألفه.
- إن لك غريمة.
- ومن تكون هذه ؟
- فضحك وقال:
- الليدي ناربورو.
- ثم همس في أذنها قائلاً:
- إنها تحبه إلى حد العبادة.
- أخشى أن يجذبه جمال الأطلال ، فنحن الخياليين يسحرنا القدم.
- ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم.
- لقد تعلمنا في مدرسة الرجال.
- نعم. لقد علمناكن ولكننا لم نفسر من طبيعتكن شيئاً.
- قالت بتحد:
- ما رأيك فينا كجنس ؟
- المرأة أبوهول بغير سر.
- فنظرت إليه باسمة وقالت:
- لقد غاب مستر جراي طويلاً ، فهيا بنا نساعده على اختيار الأوركيد ، ولعله حائر فيما يختار لأنني لم أخبره بلون الفستان الذي سألبسه.
- فلتختاري الثوب الذي يناسب أزهاره.
- إن فعلت هذا كان ذلك تسليماً من قبل الأوان.

- ولكن الفن الخيالي يبدأ حيث يجب أن ينتهي.
- لا بد أن أحفظ بنفسى خط الرجعة.
- طبقاً لخطّة موضوعة على طريقة اليارثيين ؟
- لقد اعتصم البارثيون بالصحراء ، وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك فلجأ قائلًا:
- قد لا يجد النساء مجالاً للاختيار بين تراجع وتراجع.
- ولكنه ما كاد أن يتم قوله حتى سمع أنه مخنوقة آتية من أقصى الصالون ، وتلاها صوت جسم ثقيل يسقط مكتوماً فاضطرب كل من الغرفة ، وثبتت الدوقة في مكانها جزعي ، وشق اللورد هنري طريقة فزعاً بين الأشجار المضطربة فوجد دوريان جراي مستلقياً على وجهه فوق البلاط في إغماء يشبه الموت.
- وحمل دوريان جراي إلى غرفة الاستقبال الزرقاء ، وهناك وضع على إحدى الأرائك. ثم أفق بعد قليل ، وتلفت حوله زائغ العينين ، وقال:
- ماذا حدث ؟ نعم ، تذكرت الآن ما حدث. أنا هنا في أمان يا هاري ؟
- وأخذت أوصاله ترتجف. فلجابه اللورد هنري قائلًا:
- لقد أغمي عليك يا عزيزي دوريان ، هذا كل ما في الأمر فلا تجزع. لا بد أنك أنهكت نفسك إنهاكاً بالغاً ، ومن الخير ألا تتعشى معنا الليلة ، وسأملأ أنا مكانك في المائدة.
- وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال:

- بل سأتعشى معكم. نعم ، إني أفضل أن أتعشى معكم فليس من الخير أن أبقى وحيداً.
ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة. ثم أخذ مكانه في صدر المائدة ، وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالي بشيء ، ولكنه كان يرتجف من وقت إلى آخر حين يفكر في أنه لمح وجه جيمس فين شاحباً كأنه منديل أبيض ملتصقاً بزجاج النافذة في صالون الموسيقى

الفصل الثامن عشر





وفي اليوم التالي لزم
دوربان جراي داره بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت،
وكان يحس بخوف شديد من الموت، ومع ذلك فقد رخصت
في نظره الحياة. وبدأ يحس بأنه مطارِد. وبدأ يرى الفخاخ
تنصب حوله، وملأت هذه الفكرة شباب عقله، فما اهتز
في بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله، وشاهد أوراق
الأشجار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشق بالرصاص
فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة. وحين أطبق جفنيه
رأى وجه البحار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج
المغطى بالضباب، فحقق قلبه هلعاً.

ولكن لعل ما رآه كان طيفاً منتقماً نسجه في الظلام
وهمه، ولعل أشباح القصاص انطلقت من خياله المريض
لترقص أمام عينيه وترعبه. إن الحياة الواقعية قوامها
الفوضى، أما الخيال فمنطقي ومرتب، فالخيال هو الذي
جعل الندم يتبع الخطيئة، والخيال هو الذي جعل لكل
حرية أحلامها المزعجة. وفي الحياة اليومية ينجو الأشرار من
العقاب، ويضيع على المحسنين الثواب، ويحني الأقوياء ثمار
النجاح، أما الضعفاء فلهم الخيبة وسوء المآل، وهذه قصة
الحياة. فلتطمئن نفس دوربان جراي إذ لا قصاص إلا في
خيال المذنبين. وإن الوجه الذي يراه من وراء الزجاج ليس

إلا صورة في خياله الحموم. ولو أن رجلاً كان يتربص به خارج المنزل لرآه الخدم لا محالة ، ولو أن أقداماً غريبة تركت آثارها في الحديقة لأخبره البستاني بأمرها نعم ، لم يكن ما رآه إلا نسج الخيال ، وأخو سييل فين لا يتعقبه ليفتك به، فقد رحل في سفينته ولعله الآن غريق في بحر من بحار الجليد، وهو في مأمن منه، هو في مأمن من جيمس فين على الأقل. إن جيمس فين لم يعرف هويته ولم يستطع أن يعرفها، ولقد أنقذه قناع الشباب.

ولكن هب ما رآه دوريان جراي لم يكن إلا وهماً ، فما أقسى هذا الضمير الذي يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ، ويعطي للهواجس أجساداً تراها العيون ، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان ، وأي جحيم هذا الذي قدر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصاص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة ، وتسخر به من الدهاليز المهجورة ، وتهمس في أذنه الويل والثبور في المآدب والحفلات ، وتوقظه من منامه بأصابع من جليد! وفيما يفكر في ذلك شحب لونه جزعاً ، وأحس فجأة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل. لقد قتل صديقه في ساعة جنون ، فأني نجم دام عبوس ذلك الذي ارتفع في السماء وسلب منه لبه ! ويا له من الذكرى فهي موجعة ! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشؤمة فخلعت فؤاده رعباً ، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته في وشاح أحمر ، وحين دخل عليه اللورد هنري في الساعة السادسة وجده ينتحب في مرارة وقد أوشك قلبه أن يتفطر.

ولم يجسر على الخروج من قصره إلا في اليوم الثالث.
فالصباح النادي جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد إليه
مرحه ورغبته في الحياة ، ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي
أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة
التي كدرت صفاء نفسه، فأصحاب المزاج الرقيق لا يحتملون
الحزن ، وعواطفهم القوية إن لم تنحن أمام النكبات تنكسر،
ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير. وأصحاب
العواطف التافهة يحبون ويشقون فحبهم مديد وشقاؤهم
مديد، أما أصحاب العواطف الجبارة فغرامهم الجبار يذبح
نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة ، ولقد أقنع
دوريان جراي نفسه بأن الرؤى التي رآها لم تكن إلا زيفا
من عمل خياله السقيم، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من
الرثاء والاحتقار.

وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة ، وتحدث على
الدوقة ساعة أو بعض ساعة، ثم ركب عربته وقطعت به
المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين إلى الصيد. وكان الصقيع
الهش يغطي الحشائش كأنه الملح المنثور، وبدت السماء
كأنها كأس مقلوبة صنعت من معدن أزرق ، وطففت طبقة
رقيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التي نما فيها
البوص.

ووقع بصره على السير جفري كلوستون ، أخي الدوقة ،
عند ركن الغابة الصنوبرية فرآه يقذف بخرطوشتين فارغتين
من بندقية. فوثب خارجياً من العربة، وأمر السائس أن
يعود بالمهر إلى القصر، ثم سعى إلى أضيافه شاقاً طريقه بين

الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة.

قال:

- أوجدت صيداً طيباً يا جفري؟
- كلا يا دوريان ، وأظن أن أكثر الطيور ذهبت إلى
الخلاء. وأعتقد أننا سنصادف توفيقاً أعظم بعد الغداء حين
نغير المكان.

- وسار دوريان وجفري جنباً إلى جنب. وشاع في
نفس دوريان إحساس جميل بالحرية حين لسعه الهواء
العاطر، ورأى الأنوار الحمراء والأنوار البنية تلمع في بطن
الغابة، وسمع أصوات العمال الخشنة تعلو بالصياح وهم
يضرّبون الأغصان لتخرج منها الطيور. وكان خلي البال
سعيداً مشرق النفس مقبلاً على الحياة.

- وفجأة أبصر أرنباً منتصب الأذنين أسودهما يقفز
على بعد عشرين ذراعاً بين الأعشاب الذابلة بعد أن تحفز
على رجله الخلفيتين ، واندفع الأرنب صوب دغل من
الأدغال ، فرفع السير جفري بندقيته إلى كتفه وهم بأن
يطلق عليه النار لولا أن دوريان جرای ارتاع لرشاقة حركته
فصاح بصاحبه قائلاً:

- لا تقتله يا جفري. دعه يعيش.

فضحك صاحبه وقال:

- ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان؟
وفيما كان الأرنب يقفز داخلاً الدغل أطلق عليه النار.
وارتفعت صرختان، صرخة أرنب جريح وصرخة رجل
مصاب.

صاح السير جفري قائلاً:

- يا للسموات ! لقد أصبت أحد الحراس. وإن وقوفه أمام البنادق غباوة شديدة. لا تطلقوا النار فقد أصبت أحد الرجال.

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملاً بيده عصا ، وصاح:

- أين يا سيدي ، ؟ أين ؟

وبطل إطلاق النار بطول الخط. وأجاب السيد جفري غاضباً. وهو يسرع نحو الدغل:

- في هذا المكان لم لا تبعد أتباعك عن مرمى النار ؟ ها أنت ذا قد أفسدت شهيتي للصيد في هذا الصباح.

- وأنشأ دوريان يتأملها وهما يدخلان الدغل ويبعدان الأغصان عن طريقهما. وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء. ولم يحتمل دوريان جراي أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهه ، وخيل إليه أنه يجلب الرزايا أينما سار. وسمع السير جفري يسأل رئيس الحراس عما إذا كان الرجل قد مات فعلاً، وسمع رئيس الحراس يجيبه بالإيجاب. وخيل إليه فجأة أن الغابة يسكنها ألف شبح ، وسمع ألف قدم تدك الأرض بوطنها ، وطن في أذنه همس كثير ، وجاء طائر صدره نحاسي اللون ورפרف بين الأغصان فوق رؤوسهم.

- ومرت لحظات خالها دهوراً من الآلام في حالته المضربة تلك ؟ وفي النهاية أحس بيد ترتكز على كتفه فانتبه من غفلته وتلفت حوله فإذا اللورد هنري قد جاءه يقول:

- لعل من الأصوب يادوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد. فاستمراهم لن يحدث أثراً طيباً في الناس.
أجاب دوريان بمرارة:

- ليتته ينتهي إلى الأبد يا هاري. فهذا هو إجرامي بشع. والرجل ؟ هل.. ووقفت الكلمة في حلقة ؟ فأجابه اللورد هنري:

- نعم يا دوريان ؟ مات الرجل ؟ فقد أصابه الرش كله في صدره ولا بد أن يكون قد مات فوراً. هيا بنا ؟ فلنعد إلى البيت.

وسار الرجلان جنباً إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعاً في اتجاه الطريق الظليل. ثم التفت دوريان إلى اللورد هنري وتنهد من أعماقه ، وقال:

- هذا نذير شؤم يا هاري ؟ هذا نذير شؤم. فسأله اللورد هنري قائلاً:

- ماذا تقصد أتقصد الحادثة، لا تبتئس يا صديقي فلم يكن هناك سبيل لتفاديها. لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذي وقف في مرمى النار ، ثم إن الأمر لا يهمنا ، لأن جيفري هو المسئول عن الحادث بطبيعة الحال. ومن الخطأ أن ندلل الحراس وإلا حسبك الناس مهملاً في الرماية ، وما جيفري بمهمل هو يحسن التصويب. ولكن دعنا من هذا الموضوع ، فالكلام فيه لا ينفع.
وهز دوريان رأسه قائلاً:

- عن هذا نذير شؤم يا هاري. وأنا أحس بأن شراً ما

سيحيق بأحدنا... بي أنا مثلاً.
وفيما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه في ألم واضح.
وضحك اللورد هنري وقال:

- إن الشر الوحيد في العالم هو الملل يا دوريان.
والملل هو الخطيئة الوحيدة التي لا تغتفر. ولكن الملل لن
يصب أمثالنا؟ اللهم إلا إذا رأى ضيوفك أن يتحدثوا في
موضوع هذا الرجل أثناء الغداء. ولسوف أخبرهم بأن
الكلام في هذا الموضوع محرم عليهم. أما النذير الذي
تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرسل
لتحذرننا ، بل يأخذنا على غرة. ولعل هذه حكمة منه
ولعلها إجرام. ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان ، ولقد
أوتيت كل ما في الدنيا من أسباب السعادة ، وليس بين
الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك.

- بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أستبدل
مكانه بمكاني يا هاري. وكفاك ضحكاً ، فما قلت غير الحق.
إن الحارس المسكين الذي قتل منذ هنيهة أسعد مني حالاً.
وأنا لا أخاف الموت ، ولكني أخاف مقدم الموت ، وأحس
بجناحيه الشيطانيين يطنان حولي في هذا الهواء الثقيل. انظر
يا هاري ! ألا ترى رجلاً يتحرك خلف الأشجار متربصاً
بي؟

- فالتفت اللورد هنري إلى الناحية التي أشارت نحوها
يده المرتجفة ذات القفاز. ثم قال مبتسماً:

- نعم. أرى البستاني واقفاً في انتظارك ، وأحسب أنه

يود أن يسألك عن الأزهار التي تريده أن يضعها على المائدة
هذا المساء. إن أعصابك متوترة إلى حد بعيد يا دوريان ،
وهو توحى لك بأسخف الخيالات ، وأنصحك أن تستشير
طبيبي حين نعود إلى لندن ورأى دوريان البستاني يتقدم منه
فعاد إليه هدوءه. وهم الرجل برفع قبعته تحية لسيده ، ونظر
إلى اللورد هنري في تردد لحظة أو لحظتين ، ثم أخرج من
جيبه خطاباً إلى دوريان قائلاً:

- إن سيدتي الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب.

ووضع دوريان الخطاب في جيبه وقال في برود:

- قل لسيدتك الدوقة إنني سألحق بها.

وانصرف الرجل مسرعاً وسار في اتجاه القصر

قال اللورد هنري ضاحكاً:

- ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان !

إن هذه هي الصفة الوحيدة التي تعجبني فيهن. والمرأة

تغازل أي رجل في العلم إذا تأكدت من أن هناك من يراها.

- وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هاري ! وأعتقد

أنك مخطئ هذه المرة ، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ،

ولكني لا أحبها.

- والدوقة تحبك أشد الحب ، ولكنها لا تميل إليك ،

فأنتما كما ترى يكمل أحكما الآخر.

- أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هاري ،

والفضائح لا أساس لها في الواقع.

فأجاب اللورد وهو يشعل سيجارة:

- أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقي بل

اليقين الذي يتنافى مع الأخلاق.

- إنك تضحي أي مخلوق في مقابل قول طريف.

فأجاب الورد هنري قائلاً:

- أنا لا أضحي أحداً لأن الناس يسرون إلى المذبح

من تلقاء أنفسهم.

قال دوريان وفي صوته رنة من الحزن العميق:

- ليتني أستطيع أن أحب ، ولكن يبدو لي أنني قد

قتلت العاطفة ونسيت الرغبة. فأفكارها كلها مركزة في

نفسي ، وشخصيتي قد أصبحت عبئاً على ثقيلاً. فكيف

الهرب من هذه الأنا ، وكيف النسيان ؟ أظن أنني سأبرق إلى

هارفي طالباً إليه أن يعد اليخت لي ، ففي اليخت أكون

بمأمن من الخطر.

- أي خطر هذا الذي لا تفتّ تتحدث عنه ؟ لا بد

أنك في محنة ، ويجمل بك أن تقضي إلى بكل شيء ، فأنت

تعرف أنني سأقف إلى جانبك.

أجاب الفتى في حزن:

- لا أستطيع أن أفضي إليك بشيء يا هاري ، ثم إن

هذه الحادثة المشؤمة قد أثارت أعصابي ، وأنا أحس بأن

مكروهاً من هذا النوع سينزل بي.

- دع عنك هذه الخزعات !

- أرجو أن تكون هذه خزعات حقاً ، ولكن أفكر

فيها برغمي. أنظر ! هذه الدوقة مقبلة علينا وهي تبدو

كالإلهة ارتيميس لابسة جاكته تاير. لقد عدنا من الصيد يا

عزيزتي الدوقة.

أجابت:

- نعم يا مستر جراي ، لقد علمت بما حدث ،
وجفري المسكين في اضطراب شديد ، وقد قالوا لي إنك
سألته ألا يطلق النار فما أغرب هذه المصادفة.

- نعم. إنها لمصادفة عجيبة ، ولا أستطيع أن أفسرها.
ولعلها نزوة طارئة فقد كان الأرنب آية في الرشاقة ، وربما
عز علي أن يقتل مهما يكن من شيء فيؤسفني أنك علمت
بخبز هذا الرجل ، فالموضوع كله بغيض.

قال اللورد هنري:

- نعم إنه لموضوع ممل ، وليست له أية قيمة من
الناحية النفسية فلو أن جيفري قتله عامداً لاستحق أن
نهتم له كل هذا الاهتمام ، وكم أحب أن أعرف رجلاً
ارتكب جريمة قتل حقيقية.

فصلحت الدوقة قائلة:

- هذه وحشية منك يا هاري. ألا توافقني على ذلك يا

مستر جراي ؟

إن مستر جراي قد عادت إليه النوبة يا هاري ، وها هو
ذا يوشك أن يدركه الإغماء.

وجمع دوريان أشتات قوته المتخاذلة وقال مبتسماً:

- لا تنزعجي يا عزيزتي الدوقة ، فما بي مرض. كل

ما في الأمر أن أعصابي منهكة ، فقد أسرفت في السير هذا
الصباح. ماذا قال هاري ؟

إنني لم أسمع كلماته ، فهل قال شيئاً فظيلاً ؟ لا بد أن
تعيدي على ما قاله هاري في مناسبة أخرى ، أما الآن فأعتقد

أن من الأصوب أن أستريح.

هل تأذنان لي بالانصراف ؟

وسار اللورد هنري والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التي تؤدي إلى الشرفة من صالون الموسيقى ، وبعد أن أقفلا الباب الزجاجي بينهما وبين دوريان نظر اللورد هنري إلى الدوقة بعينه الناعستين وسألها قائلاً:

- كم تحبين دوريان ؟

فلم تجب ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئاً ، ووقفت الدوقة تتفرس في الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيراً:

- ليتني كنت أعلم.

قال اللورد هنري وهو يهز رأسه:

- العلم يفسد كل شيء ، فاحتفظي بهذا الشك لأن في الشك سحراً خاصاً ، وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة.

- وماذا أفعل يا عزيزتي جلاديس فكل الطرق تؤدي

إلى نقطة واحدة

- وما هي هذه النقطة ؟

- الاستفاقة إلى الحقيقة

- قالت وعي تتنهذ:

- لقد بدأت حياتي بهذه الاستفاقة.

- وقد جاءتك الاستفاقة متوجة في شخص دوق

- لقد تعبت من أوراق الغار.

- أنها تناسبك.

- في الحفلات الرسمية فقط.

قال اللورد هنري:

- لو نزلت عنها لا فتقدتها في مستقبل الأيام.
 - لن أنزل عن ورقة واحدة منها.
 - ولكن مونغاوث له أذنان.
 - الشيخوخة سمعها بطيء.
 - ألم غيرته قط؟
 - يا ليتها ثارت.
- وتلفت اللورد هنري في كل مكان بالحثاً عن شيء
فسألته قائلة:

- عم تبحث؟
 - عن زرار سقط مني.
 - ولكن قناعي لم يسقط بعد.
 - أجاب اللورد هنري:
 - وهو يزيد عينيك سحراً.
- فضحكت ثانية وبدت أسنانها كالحبوب البيضاء في
فاكهة حمراء.

وكان دويان جراي مستلقياً علي أريكة في غرفته
بالطابق العلوي مرتجف الأوصال ينهشه الفزع، وأحس
فجأة بأن حياته قد أصبحت عبئاً ثقيلاً لا سبيل إلي
احتماله، وبدأ له موت الحارس المسكين الذي سقط في
الغابة قتيلاً كأنه حيوان بري، بدأ له موت الحارس كنسوة
بموته، ولقد كاد أن يصيبه الإغماء حيث سمع ما قاله اللورد
هنري عرضاً من باب العبث.

ولما بلغت الساعة الخامسة دق جرس، واستدعي خادمه

وأمره بأن يحزم أمتعته استعداداً للرحيل إلي لندن
بأكسبريس الليل، وأن يعد له عربته في الساعة الثامنة
والنصف، فقد قرر أن ينام ليلة أخرى في سلمي، ذلك
القصر المشئوم الذي مشي الموت في كنفه في وضح
النهار، وخضبت الدماء حشائش غاباته.

ثم سطر رسالة كتبها إلي اللورد هنري معتذراً بأنه
راحل إلي هنري ليستشير طبيبه، سائلاً إياه أن ينوب عنه
في القيام بواجب الضيافة نحو أصحابه أثناء غيابه، وبينما
هو يضع الرسالة في غلاف، طرق الباب خادمه وأخبره بأن
رئيس الحراس يطلب مقابلتة، فعبس دوريان وعض شفته
وقال بعد تردد قليل:

- أدخله.

ولما دخل رئيس الحراسٍ أخرج دوريان دفتر الشيكات
من أحد الأدراج وفتحه قائلاً:

- أظنك جئت لتحدثني في شأن الحادثة الأليمة التي
وقعت في الصباح يا ثورنتون؟

أجاب الحارس:

- نعم يا سيدي.

قال دوريان وقد بدأ عليه الملل:

- هل كان ذلك الرجل متزوجاً؟ هل كان يعول أحداً؟
إذا كان يعول أحداً فلست أحب أن يتعرض أبنائه للفقر
والعوز؟ وسوف أرسل لهم أي مبلغ من المال تراه أنت
كافياً.

- لم نتعرف علي شخصية سيدي، وهذا ما دفعني إلي

إزعلجك الآن.

فقال دوريان في فتور:

- وكيف كان ذلك؟ ألم يكن القتل رجلاً من رجالك؟

- أبداً يا سيدي، وأن لم أره قبل اليوم، ويلوح لي بأنه

بحار يا سيدي.

فسقطت الريشة من يد دوريان جراي، وأحس بقلبه

يتوقف عن الخفقان، وصاح قائلاً:

- بحار؟ أتقول أنه بحار؟

- نعم يا سيدي، إن مظهره يدل علي أنه بحار، ففي

ذراعيه وشم وعليه سمات البحارة.

فمال دوريان جراي إلي الأمام، وأخذ يتفرس في الرجل

منزعجاً، ثم قال:

- ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل علي اسمه؟

- وجدنا بعض النقود يا سيدي، ووجدنا مسدساً ذا

ست طلقات، ولكننا لم نجد اسمه، وهيئته تدل علي أنه رجل

فاضل، ولكن عليه سمات الخشونة، ونحن نظن أنه بحار.

ونهض دوريان واقفاً وطاف بخاطره أمل شيطاني فلم

يغير الموضوع بل قال في إصرار:

- أين وضعتم الجثة؟ لا بد أن أراها فوراً.

- أنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل يا سيدي.

وضعناها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها في

منازلهم، فهم يعتقدون أن الجثث تجلب عليهم الشؤم.

- قم إلي الحقل فوراً وانتظرنني هناك، وقل للسائس أن

يأتيني بجوادي، ولكن من الأفضل أن أمضي بنفسني إلي

مزاود الخيل ففي هذا توفير للوقت.

ولم تمض ربع ساعة حتي كان دوريان جراي يركض علي فرسه في الطريق الظليل بسرعة قصوي، وكانت الأشجار علي جانبيه تبدو له هو ينهب الأرض نهباً كأنها صفان من الأشباح، ورأي ظلالها الماردة في طريقة وهو يطؤها وطئاً، وأنحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضاً، وأخذ يضربها بسوطه علي عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق ، وطار من وقع حوافزها الأحجار. وأخيراً بلغ العربة فوجد رجلين يتكسعان في الفناء، وترجل وسلم عنان الفرس إلي أحدهما، ولمح نوراً ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف أن الجثة ملقاة فيه فأسرع إلي بابه ووضع يده علي المزلاج.

ثم تردد قليلاً وأحس بأنه يوشك أن يكشف عن حقيقة عظمي قد تنقذه من محنته، وقد تودي بما بقي له من هناء، ثم دفع الباب ودخل.

وفي نهاية المزود رأي جثة رجل ميت يلبس قميصاً خشناً وبنطلوناً أزرق مستلقياً علي كومة من الخيش، ورأي منديلاً عليه نقط يغطي وجه الرجل، ورأي شمعة من النوع الردي مثبتة في عنق زجاجة ترسل ضوءها بجانب الجثة.

وشاعت في جسده رعشة، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدم لرفع المنديل، فنادي علي أحد الفلاحين، ولما دخل الرجل قال له وهو يعتمد علي الباب حتي لا يتهاوى:

- أكشف وجه هذا الرجل فأنا أريد أن أعرف من يكون!.

ورفع الرجل المنديل عن وجه الرجل، وتقدم دويان
جراي خطوات، وحين تبين وجه الميت لم يستطع كتم صيحة
الفرح الذي مشي في بنيانه، فلقد عرف أن الرجل الذي
سقط في الغابة قتيلاً لم يكن إلا جيمس فين.
وثبت في مكانه بضع دقائق متفحصاً الجثة، ثم أعتلي
فرسه وعاد أدراجه إلى داره، وفي الطريق فاضت عيناه
بالدموع، دموع الفرح وغمره شعور بالسلامة والطمأنينة.

الفصل التاسع عشر





قال اللورد هنري وهو يضع أصابعه البيضاء في إناء من
النحاس الأحمر مملوء بماء الورد:

- لا تحاول أن تفهمني يا دوريان أنك ستصبح رجلاً
صالحاً وأنت علي ما يرام كما أنت الآن، ولا تحاول أن تغير
من طبيعتك.

فهز دوريان جراي رأسه وأجاب:

- كلا يا هاري، لقد فعلت في حياتي كثيراً في الذنوب
المخجلة، ولن أضيف إلي قائمة جرائمي شيئاً بعد الآن،
وقد بدأت حياتي الجديدة أمس بفعل الخير.

قال اللورد هنري وهو يتسم:

- وأين كنت أمس.

- أسمع يا عزيزي دوريان، إن أي أسان يستطيع أن يكون
صالحاً في الريف، لأن الريف خال من أسباب الغواية، وهذا
هو السر في أن الناس الذين يعيشون بعيداً عن المدينة
متأخرون في المدينة. فالمدينة ليست شيئاً سهل المنال إطلاقاً،
وهناك طريقتان لا ثالث لهما يصل بهما الإنسان إلي المدينة،
الأولى هي الثقافة، والثانية هي الانحطاط، وأهل الريف لا
سبيل لهم إلي الثقافة أو إلي الانحطاط ، ولذا تراهم

يتعفنون من فرط الركود.

قال دوريان:

- أنت تتحدث عن الثقافة والانحطاط، ولقد أصبت من كليهما شيئاً مذكوراً، ويبدو لي الآن أن اجتماعهما في شخص واحد سيء العاقبة، فقد اتخذت لنفسني مثلاً أعلي جديداً يا هاري، وقررت أن أغير من طبعي، بل أعتقد أنني قد غيرت طبعي فعلاً.

وضع اللورد هنري بعض الشليك ذي البذور في طبقة، ورش عليه بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقب، بهيئتها تشبه المحارة، وقال:

- أنت لم تخبرني بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التي قمت بها أمس.

- سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسراري، وهي قصة لا أستطيع أن أطلع عليها أحداً غيرك، وقعت في يدي فريسة ولكنني لم أفك بها بل تركتها وشأنها، وقد يبدو لك ذلك فخراً حيث لا موضع للفخر، ولكنك تفهم ما أقصد إليه، عرفت فتاه تدعي هيتي بارعة وجميلة، وفيها شبه قوي من سييل فين، وأعتقد أن هذا الشبه هو الذي جذبني إليها أول الأمر.

واصل مسترسلاً:

- أنت تذكر سييل دونشك؟ لقد مضت علي حكايتها أيام طويلة كأنها دهور، ومهما يكن من شي فقد كانت هيتي من طبقة غير طبقتنا بطبيعة الحال، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة، ولكنني أحببتها من أعماق قلبي، نعم

لست أشك في أنني أحببتها، وقد واظبت علي الخروج إلي
الريف للقائها مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال
شهر مايو الجميل الذي أسعدنا به هذا العام، وقد قابلتها
البارحة في بستان صغير، وبينما نحن جالسان كانت الأزهار
تتساقط من شجرة التفاح فوق شعره فتضحك، وقد وضعنا
الخطّة لنهرب معاً هذا الصباح عند مولد الفجر، ولكنني
قررت فجأة أن أتركها كما وجدتھا طاهرة كالزهرة
البيضاء.

فقاطعه الورد هنري قائلاً:

- أعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التي لما تألفها قط
ملأتك بإحساس اللذة الحقيقية يا دوريان؟، ولكن أستطيع
أن أتم أنا هذه القصة الغرامية نيابة عنك، لقد زودتها
بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها، وهكذا بدأت حياتك
الصالحة!

- ما أقساك يا هاري! أرجو أن تقلع عن قول هذه
العبارات السخرة، فقلب هيتي لم ينكسر، وكل ما هنالك
أنها بكّت وتألّت إلي آخره، ولكنني تركتها نقية كما
وجدتها، وهي تستطيع أن تعيش الآن كبرديتا في حديقتهما
بين أوراق النعناع وأزهار الأقحوان.

قال اللورد هنري ضاحكاً وهو يغوص مقعده:

- وتبكي علي فولريزيل عاشقها الخائن، إن لك يا
عزيزي دوريان نزوات صبيانية لا أفهمها.

أتحسب أن هذه الفتاة سترضي الآن برجل من طبقتهما؟
كلا ولعها تتزوج في يوم من الأيام بحوزي فظ أو فلاح

عبوس، ولكنها ستحتقر زوجها وتعيش في شقاء لأنها عرفتكَ وأحببتكَ، فمن الناحية الأخلاقية لست أري في توبتك العظيمة ما يستحق الإكبار، بل إن البداية نفسها بداية سيئة، ثم ما أدراك بأن هيتي ليست الآن طافية علي وجه بركة ساكنة أنعكست فيها نجوم السماء، تحيط بها أقلامي الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت؟

- هذا لا يتحمل يا هاري، فأنت تمزق كل شي إرباباً تهكمك اللاذع، ثم تتوج كل شي بمأساة فظيعة من نسج خيالك، وأناي لأسف علي الإفصاح لك بما حدث، ولم يعد حكمك يهمني لأنني واثق بأنني قد فعلت ما فيه الخير، يا لهيتي من فتاة مسكينة، فيما كنت عائداً علي جوادي هذا الصباح مررت بالحقل ورأيت وجهها في نافذة بيتها أبيض كباقة الياسمين، كفي حديثاً في هذا الموضوع، وإياك تحاول أن تقنعني بأن القليل من إنكار الذات الذي أبديته لأول مرة في حياتي هو في الواقع خطيئة جديدة، فأنا أريد أن أذهب من طبيعتي، بل أنني لمهذبها مهما كانت الظروف، فلتحدثني الآن عن نفسك، حدثني عن لندن وما يجري فيها فأنا لم أزر النادي أياماً وأياماً.

- أن أعضاء النادي لا يزالون يتحدثون عن اختفاء بازيل المسكين.

قال دوريان عابساً وهو يصب بعض النبيذ في كأسه:

- حسبتهم قد سئموا الكلام في هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة.

- إنهم لم يتحدثوا في هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا

عزيزي دوريان والجمهور في بريطانيا أغبي من أن يتحدث
في أكثر من موضوع كل ثلاثة أشهر ولقد كان حظه لا بأس
به في الأيام الأخيرة، فقد وجد قصة طلاقي أنا، وقصة
انتحار ألان كامبل، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين.
وسكوتلانديارد لا يزال تصر علي رأيها القائل بأن الرجل
الذي سافر إلي باريس بقطار منتصف الليل لابساً معطف
رمادي كبيراً هو بازيل المسكين، والبوليس الفرنسي لا يزال
يقول أن بازيل لم يصل إلي باريس أصلاً، وأعتقد أننا
سنسمع بعد أسبوعين أن بازيل قد شوهد يتجول في
شوارع سان فرنسسكو، فلا بد أن تكون سان فرنسسكو
مدينة جذابة فيها كل مغريات العام الآخر.

فسأله دوريان وهو يرفع نبيه البورغوني إلي النور
ويتأمله متعجباً من قدرته علي الكلام في موضوع بازيل
هولورددون انزعاج:

- كيف تعلل اختفاء بازيل؟

- ليست لدي فكرة عن هذا الموضوع. فإذا كان بازل
يري اخفاء نفسه عن الناس فهذا ليس من شأني، وإذا كان
قد مات فلست أحب أفكر فيه، فالموت هو الشي الوحيد
الذي يزعيني وأن أمقته مقتاً شديداً.

قال دوريان في أعياء:

- ولم تكره الموت؟

أجاب اللورد هنري وهو يذني من أنفه علبة قارورة
للعطور مفتوحة مخططة بماء الذهب:

- لأننا نستطيع في هذا الأيام أن نقهر كل شي إلا

الموت.. نعم الموت والابتذال هما كما ما بقي في القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها، هيا نتناول قهوتنا في صالون الموسيقى يا دوريان، وأرجوك أن تعزف شيئاً من شوبان فأنا أتوق إلي سماعه، أن الرجل الذي هربت معه زوجتي كان يعزف موسيقي شوبان بمهارة لا تجاري. يا لفكتوريا المسكينة ! كم كنت أميل إليها ! أن البيت يبدو مهجوراً بعد إن تركته، ولا شك أن الحياة الزوجية مجرد عادة، عادة سيئة، ولكن الإنسان يأسف علي فقدان عاداته، حتى الخبيثة منها، بل لعل الإنسان يأسف علي فقدان عاداته الحسنة ! لأن العادات الخبيثة جزء متمم لشخصية الإنسان.

لم يجب دوريان بشي بل نهض من مكانه في المائدة ومضي إلي الغرفة المجاورة وجلس أمام البيانو وترك أصابعه تجول بين مفاتيحه العاجية البيضاء ومفاتيحه العاجية السوداء، وجاءت القهوة فتوقفت عن العزف ثم نظر إلي اللورد هنري وقال:

- أسمع يا هاري ألم يخطر لك قط أن بازيل مات قتيلاً ؟

فتشاءب اللورد هنري وقال:

- أن بازيل كان محبوباً من الجميع، فما الداعي إلي قتله ؟ وهو لم يكن ذكياً فيكون له أعداء. أنا لا أشك في عبقريته كرسام، ولكنك تستطيع أن تكون لك مهارة فيلاسكينز في الرسم، وتبقي برغم ذلك نموذجاً للغباوة، ولقد كان بازيل في الواقع علي شي من الغباوة، ولم أجد في تفكيره ما أثار اهتمامي إلا مرة واحدة، أعني حين باح لي منذ سنوات

طويلة بأنه يجب حباً يقرب من العبادة وأنتك النفس الجبار الذي يلهم فنه.

قال دوريان في وجوم:

- وأنا كذلك كنت أحب بازيل حباً جماً ولكن ألا يقول الناس إنه مات مقتولاً يا هاري ؟

- نعم، هذا ما تقوله بعض الصحف، ولكني أستبعده، صحيح أن بارييس ملأى بالأوكار الجهنمية، ولكن بازيل لم يكن بالرجل الذي يتردد عليها، فالفضول عنده كان ميتاً، وهذا كان عيبه الرئيسي.

قال الشاب:

- لو أنني قتلت إني قتلت بازل فماذا تقول هاري ؟
ثم أخذ يتفرس في اللورد هنري ليري وقع كلماته في نفسه.

- أقول أنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقي، فالجريمة بكل أنواعها مبتذلة، كما أن الابتذال بكل أنواعه جريمة، وليس في طبيعتك ارتكاب الجرائم يا دوريان. أقول هذا راجياً أن تغفر لي جرحي لكبريائك، ولكن أؤكد لك أن الإجرام ليس من طبعك، الإجرام امتياز خاص تملكه الطبقة الدنيا في المجتمع، وأنا لا ألوأ أبناء هذه الطبقة علي ذلك، فالإجرام عندهم يقوم مقام الفن عندهنا، أي أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات غير المألوفة، هذا ما أتصوره أنا علي الأقل.

- وكيف يكون هذا ؟ أعتقد إذن أن من قتل مرة يستطيع أن يقتل ثانياً ؟ هذا بعيد الاحتمال.

قال اللورد هنري ضاحكاً:

- أن أي عمل قد يصبح مصدر لنة إذا اكتسب قوة العادة ، وهذا سر من أهم أسرار الحياة، علي أنني أعتقد أن القتل خطأ مهما كانت ظروفه. فالإنسان يجب ألا يفعل شيئاً يتأفف من الكلام فيه بعد العشاء. ولكن دعنا من موضوع بازيل المسكين. ليتني أستطيع أن أحمل نفسي علي الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول، ولكنني عاجز عن ذلك، وإذا كان بازيل قد مات فعلاً فأرجح أنه سقط من الأتوبيس في نهر السين مثلاً وأن الكمساري نجح في إخفاء هذه الحقيقة، نعم أرجح أن نهايته كانت شيئاً من هذا القبيل، وإني لأتصوره الآن مستلقياً على ظهره في قاع ذلك النهر الأخضر المنطفئ وقد اشتبكت في شعره الأعشاب الطويلة وطففت من فوقه الزوارق الكبيرة، وإني أعتقد يا دوريان إن فنه كان في اضمحلال مستمر في السنوات العشر الأخيرة، ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئاً آخر ذا قيمة حقيقية.

وتنهذ دوريان وقطع اللورد هنري أرض الغرفة، وبدأ يداعب رأس ببغاء جاءه من جافة وهو طائر هائل أشهب الريش وردي الصدر والذيل يقف على غصن من الخيزران، وحين مسته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه المتكسرين على عينيه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة ويسره ثم التفت اللورد هنري إلى الخلف وأخرج منديله من جيبيه قائلاً:

- نعم إن فنه قد انحط، ويبدو أن شيئاً ضاع منه، يبدو

أن المثل الأعلى ضاع منه، وحين فترت الصداقة بينكما
خمدت جذوة فنه فمماذا فرق بينكما يا دوريان ؟ أظن أنه
أضجرك بمواعظه وتفاهاته ؟، إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه
ألقي عليك اللوم دائماً فهذه عادة الناس المضجرين، وبهذه
المناسبة يا دوريان ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التي
رسمها لك ؟ أظن أنني لم أرها منذ أن أتم بازيل رسمها أذكر
أنك قلت لي منذ سنوات عديدة إنك أرسلتها إلى قصر
سلي وفي الطريق اختفت ضاعت أو سرقها سارق ألم
تستردها يا دوريان ؟ إن ضياعها لشئ محزن فقد كانت
صورة من بدائع الفن الخالد وإنني لأذكر أنني رغبت في
شرائها ويا ليتي اشتريتها فهي من إنتاج بازيل إبان عنفوانه
الفني. ولقد صار فنه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجاً من
الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة ، وهو المزيج الذي يؤهل
صاحبه في كل عصر لأن يكون فناناً بريطانياً من الطراز
الأول. قل لي: أعلنت عن ضياع الصورة ؟ إن كنت لم
تعلن بعد فالواجب يقضي عليك بأن تفعل ذلك.
قال دوريان:

- لست أذكر يا هاري. ولكني أرجح أنني أعلنت عن
ضياعها ، وإن كنت لم أحبها قط ، بل إنني لأسف على أنني
سمحت لبازيل أن ينقلها عني ، وذكرها تثير في نفسي
أبغض الخواطر، لم تتحدث عنها ؟ لقد كانت تذكرني ببيت
من الشعر في مسرحية من المسرحيات ، اعتقد أنها مسرحية
((هاملت)) كانت تذكرني بهذا البيت :
هي صورة الأحزان ، هي وجه بلا قلب

نعم يا هاري ، هذا وصف صادق لتلك الصورة.
وضحك اللورد هنري وأجاب وهو يغوص في مقعده:
- لو أن رجلاً عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه.

ولم يجب دوريان جراي بل هز رأسه وعزف لحنا حنوناً
على البيانو وأنشأ يردد:
هي صورة الأحران ،
هي وجه بلا قلب

واستلقى اللورد هنري إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلاً
وأدمن النظر إلى دوريان ، ثم قال بعد صمت قليل:

- ما رأيك يا دوريان في قول المسيح: ((ماذا يستفيد
الإنسان لو خسر روحه وربح العالم أجمع ؟))

واضطرب اللحن ، والتفت دوريان جراي إلى اللورد
هنري منزعجاً وحلق فيه طويلاً ، ثم قال:

- لم تسألني هذا السؤال يا هاري ؟

قال اللورد هنري وهو يرفع حاجبيه دهشة:

- سألتك هذا السؤال لأنني حسبت أنك قد تعرف

الجواب عليه. وهذا كل ما في الأمر يا صديقي.

ففي يوم الأحد الماضي كنت أمر في هايد بارك ، ولما
كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت نفراً من الناس قليلاً ،
ثيابهم رثة ، يستمعون إلى واعظ تافه من وعاظ الشوارع.
وفيما أنا أمر بهذه الجماعة سمعت الواعظ يطرح هذا
السؤال على سامعيه ، وقد خيل إلى أن في المشهد الذي
رأيتُه قوة مسرحية بليغة. إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر

الغريبة ، ومن المؤلف أن تخرج كما خرجت في يوم مطير
من أيام الأحد فترى مسيحياً خشناً يرتدى معطفاً من الجلد
ومن حوله اجتمع رهط من الناس وجوههم شاحبة وفوق
رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر عليها مياه المطر ، وتسمع
عبارة بليغة يطلقها في الهواء صوت عصبي حاد. لقد كانت
الكلمة جميلة على طريققتها الخاصة ، وكانت تحمل معنى
قويًا. وقد عن لي أن أجيب على سؤال هذا النبي الصغير
قائلاً بأن للفن روحاً ، أما الإنسان فلا روح له ، ولكني
خشيت ألا يفهم معنى كلامي ، فمضيت لحالي.

- لا تشك في وجود الروح يا هاري ، فالروح حقيقة
رهيبة لا مرأى فيها ، وهي تباع وتشتري وتستبدل بشتى
الأشياء ، وهي تقبل أن تسمم وهي تقبل أن تهذب. إن في
كل منا روحاً ، وأنا على يقين من ذلك.

- أنت واثق تماماً من وجود الروح يا دوريان ؟

- تمام الوثوق.

- لا بد إذن أن تكون الروح وهماً. فكل ما نثق منه لا
أساس له من الصحة. وهذه مأساة الإيمان ، وهذه عظة
الخيال. لم كل هذا الوجوم يا دوريان ؟ هيا انفضه عنك. هذه
ترهات العصر ونحن لا نكثر لها. نعم ، لقد تخلينا عن
إيماننا بالروح. هيا اعزف لي شيئاً على البيانو ، اعزف لي
ليلية من ليليات شوبان يا دوريان ، وقص على بصوت
مهموس كيف استطعت أن تحتفظ بشبابك. لاشك أن
لديك سراً تصون به الجمال. فأنا أكبرك بعشر سنوات لا
غير ، ومع ذلك تراني مغضن الوجه متعب الجسد شاحب

اللون. أما أنت يا دوريان فنموذج للجمال الحي ، وما رأيك
قط أشد فتنة مما أنت الآن ، فأنت تذكرني الليلة بيوم لقائنا
الأول. لقد كنت يومئذ شديد الخجل لا مثل لك في الدنيا.
ولقد تغيرت ، ولكن في شخصيتك لا في مظهرك ، وليتك
تبوح لي بهذا السر العظيم الذي يديم عليك الشباب ،
فأنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لأسترد شبابي ، إلا أن
أصبحو مبكراً أو أقوم بالتمارين الرياضية أو أصطنع
مظهر الرجل المحترم. فيا ليت الشباب يعود ، فهو النعمة
الأولى في هذه الحياة. ومن السخف أن يتحدث الناس عن
حماقة الشباب ، فأنا لا أقيم وزناً لرأي أحد إلا إذا كان
يصغرني بسنوات عديدة. إنني أرى الشبان يتقدمون
الكهول من أمثالي ، لأن الحياة قد كشفت لهم عن أحدث
عجائبها وضنت به علينا. أما الشيوخ فأنا أختلف معهم في
كل شيء ، وهذه سنة أتبعها ، فلو أنك سألتهم عن رأيهم
في شيء وقع بالأمس رددوا لك الآراء التي كانت منتشرة في
عام ١٨٢٠ ، أيام أن كان الناس يلبسون الجوارب حتى
الركبة، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ، ويجهلون كل شيء في
الوجود. ما أعذب هذا اللحن الذي تلعبه يا دوريان. لعل
شوبان وضعه وهو في ميوركا وهو يسمع البحر ينتحب
حول بيته ورشاشه المالح يلطم زجاج نافذته. كم يحرك هذا
اللحن خيالي يا دوريان. يجب أن نشكر الآلهة يا دوريان
على أنها أبقت لنا فناً واحداً لا يقوم على التقليد. استمر
يا دوريان فنفسي تحن إلى الموسيقى هذه الليلة. ويبدو لي
أنك أبولو الإله الصغير وأناي مارسياستمع إليك. إن

نفسى حزينة، وأحزانها خبيثة لا يعرف عنها أحد شيئاً حتى أنت يا دوريان. إن مأساة الشيوخوخة ليست في شيخوختنا ولكن في شبابنا. هذا قول صادق أقوله وأعجب لإخلاصي في القول. وما أسعدك يا دوريان بهذا الشباب الذي لا ينضب ، وما أجمل حياتك ، فلقد شربت من كل شيء حتى الثمالة ، ولقد عصرت عناقيد السعادة على لسانك فما أبقيت منها شيئاً ، ولقد عرت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئاً ، ومع ذلك فقد جاءتك السعادة مجيء لحن حميل بعيد فلم تفقد توازنك ، ولم تفسد طبيعتك. أجل. أنت لم تتغير برغم كل ما مر بك.

- ولكني تغيرت يا هاري !

- كلا. أنت لم تتغير بل بقيت على حالك. ترى كيف تكون حياتك المستقبلية ؟ مهما يكن من شيء فلا تفسدها بالتوبة. أنت الآن نموذج للكمال ، فلا تنتقص من نفسك يا دوريان. أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب. لا تهز رأسك فأنت تعرف أنني صادق فيما أقول. ولا تخدع نفسك يا دوريان ، فالحياة لا تخضع للإرادة أو النوايا ، ولكنها تخضع للأعصاب والألياف والخلايا التي تنمو رويداً رويداً وتختبئ فيها الأفكار وينسج القلب أحلامه ، ولقد تحال نفسك بمأمن من صوت الماضي ، ولقد تحسب نفسك حديدي العزيمة ، ولكنك في الواقع خاضع لأتفه الأمور. لون تراه صدفة في غرفة من الغرف ، أو صفاء تراه في السماء ذات صباح ، أو عطر كنت تحبه في يوم من الأيام يعود إليك بحفى الذكريات أو بيت من قصيدة منسية أو

تنعيم بقى لك من لحن قديم ، مثل هذه الأشياء تتوقف عليها يا دوريان. لقد كتب براوننج شيئاً في هذا المعنى. ولكننا لسنا بحاجة إلى شعره لنفهم ذلك ، فحواسنا لها قدرة التصور. ولقد يهب في أنفى أريج الليلج الأبيض فأبقى شهراً كاملاً سجين الذكريات وأعود بخلدي إلى أغرب شهر مر بي في حياتي. ليتني كنت مكانك يا دوريان. إن المجتمع شائئى وشائئك ، ولكن المجتمع يعبدك ولا يعبدني. ولسوف يمضي المجتمع في عبادتك فأنت نموذج لكل ما يصبو إليه العصر وكل ما يخشاه من حقائق الحياة. وإني لمغتبط بأنك لم تخرج من نفسك ففتحت تمثالاً أو ترسم صورة أو تنتج أي شيء تنزل فيه عن جزء من شخصيتك. لقد كانت الحياة فنك ، فكان كل يوم من أيام عمرك لحن جميل.

ونفض دوريان من مكانه أمام البيانو ومر بأصابعه خلال شعره وقال:

- نعم. لقد كانت حياتي الماضية جميلة ، ولكن حياتي المستقبلية لن تكون كحياتي الماضية يا هاري. وأنا أسألك ألا تردد على مسامعي هذه الأقوال الطنانة فأنت لا تعرف بعض نواحي حياتي ، ولو عرفتها لانصرفت عني. ها أنت ذا تضحك ، ولكني أرجوك ألا تضحك.

- لم توقفت عن العزف يا دوريان ؟ عد إلى البيانو والعب هذه الليلة مرة أخرى. وانظر إلى القمر الكبير تر لونه كلون الشهد ، انظر إليه وهو معلق في السماء الظلماء تر أنه ينتظر منك أن تسحره بألحانك ، فعد إلى

اللعب يقترب القمر من الأرض. أراك تصر على رفضك.
إذن فهيا بنا إلى النادي حيث نحتّم هناك الليلة الجميلة ختاماً
جميلاً. إن في نادي هوايت فتى متشوقاً إلى التعرف عليك
هو اللورد بول الشاب وهو الأبن الأكبر للورد بورنغوث ،
وقد بدأ فعلاً بتقليد ربطات الرقبة التي تلبسها ، ورجاني
رجاءً حاراً أن أقدمه إليك. وسوف تجد فيه أنيساً مسلياً ، ولا
أكتملك أنه يذكرني بك إلى درجة ما.

قال دوريان في حزن:

- أرجوك ألا يكون هذا صحيحاً. ولكني الليلة متعب
يا هاري ولن أستطيع الذهاب إلى النادي. لقد أوشكت
الساعة أن تبلغ الحادية عشر ، وأنا أفضل أن آوى إلى
فراشي مبكراً.

- أرجوك أن تبقى معي يا دوريان ، فأنا لم أسمعك قط
تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة ، ولقد كان أسلوبك أقوى
تعبيراً منه في أي وقت مضى.

فأجاب دوريان وهو يبتسم:

- ذلك لأنني قررت أن أفلح عن الشر ، ولقد تغيرت
فعلاً كما ترى ولو بقدر قليل.

قال اللورد هنري:

- ولكن علاقتنا لن تتغير يا دوريان ، وصداقتنا لن
يصيبها شيء.

- أنت نسيت أنك سممت أفكارك بكتاب أرسلته إلى ،
ولا يصح أن اغتفر لك ذلك. فعطني يا هاري بألا تعير هذا
الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر.

- أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلاً فيما تجيزه الأخلاق وما لا تجيزه. وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحي ، تسير في الناس محذراً إياهم من الخطايا التي شبت منها حتى زهدت فيها. فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ، ثم إنك لم تنجح في ذلك مهما حاولت فأنت وأنا باقيان على حالنا ولن نتغير في المستقبل. أما قولك بأن كتابي سمك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له في سلوك الإنسان ، فإن كان له أثر في سلوك الإنسان فهو يشل الرغبة في العمل. الفن عقم جميل. والكتب التي ينعثها الناس بأنها منافية للأخلاق هي التي تكشف للإنسانية عن عوراتها. هذا كل ما في الأمر. ولكن دعنا الآن من حديث الأدب. سأنتظرك غداً ، وأنا خارج للنزهة على جوادي في الساعة الحادية عشرة ، فلنخرج معاً إذا شئت ، وبعد النزهة سأخذك إلى الليدي برانكسوم حيث نتغدى على مائدتها ، فهي سيده لطيفة المعشر ، وهي تحب أن تستشيرك في بعض المنسوجات المصورة التي ترغب في شرائها. لا تنس أن تأتي ، وإن كنت تفضل أن نتغدى مع الدوقة الرشيقة كان بها. إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تماماً في هذه الأيام الأخيرة ، فلعلك قد مللتها كما كنت أتوقع ، فمهارتها في الحديث تتعب الأعصاب. على أية حال تعال في الساعة الحادية عشرة ولنتصرف بعد ذلك كما تشاء.

- وهل هناك ضرورة لمجيئي غداً يا هاري ؟

- نعم ، بلا جدال فهاید باری فی هذه الأيام فی أجمل

حلة ، وفيه من البنفسج ما لم أره منذ أن قابلتك أول مرة.
قال دوريان:

- إذا سأكون هنا في الحادية عشرة ، فإلى اللقاء يا هاري.
وبلغ الباب ثم تردد قليلاً كأن بنفسه شيئاً يريد أن يبوح
به لصاحبه ولكنه تنهد وخرج.



الفصل العشرين





كان الليل ساجياً فحمل دوريان معطفه على ذراعه إذا لم تكن به إليه حاجة، كذلك لم يتحمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه وسار قاصداً بيته وكان يدخن. وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء، وسمع أحدهما يقول للآخر: (هذا هو دوريان جراي) وتذكر دوريان جراي أيامه الخاليات حين كان يغتبط إذا أشار الناس إليه فحملوا فيه أو تحدثوا عنه. أما الآن فقد سئم كل ذلك وأصبح يسوءه أن يسمع اسمه يتردد. كان يرتاح إلي القرية، قرية هيتي التي أكثر من زيارتها في الأسابيع الأخيرة، لأنه كان مجهولاً فيها. وكم من مرة قال لتلك الفتاة التي ساقها إلي حبه سوفاً إنه رفيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئاً فصدقته. ولقد ذكر لها مرة أنه مخلوق شرير، فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لا بد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة السن. نعم ضحكت ملء رئتيها ورنّت ضحكاتها كأنها زقزقة عصفور، كم كانت هيتي جميلة في ثيابها وقبعاتها الكبيرة، ولم يكن علم هيتي كبيراً ولكنها لم تكن لحاجة إلي العلم، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل.

ولما بلغ بيته وجد الخادم في انتظاره ، وصرفه لينام ثم

مدد علي أريكة بالمكتبة وبدأ يفكر في بعض ما قاله اللورد هنري.

هل سيعجز حقاً عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنري؟ إن به شوقاً إلي صباه الطاهر الغض ،إلي صباه الذي يشبه باقة من الورد الأبيض والورد الأحمر، بلغة اللورد هنري، إنه يعلم أنه لوث نفسه وأفسد عقله وشحن خياله بالأشباح المخيفة. وهو يعلم أنه ينشر الانحطاط حوله أينما ذهب، وأنه كان يسر بذلك سروراً عظيماً ، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكاهم وأصلحهم للحياة فيلقي بهم في أتون الشر كأنه إبليس الرجيم ، ويجردهم من الشرف. ولكن هل فات الأوان حقاً ؟ هل ضاع كل أمل في التوبة.

لقد أخذه الغرور مرة وأعماه حب الدنيا فصلي إلي الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته وأن تبقي له شبابه الناصر إلي يوم يموت. وقد كان. وهكذا بدأت مأساة حياته فيا ليت ذنوبه حفرت علي حفرت علي وجهه أثارها النكراء وشهوته أولاً بأول، ولو قد حدث هذا لجاء عقابه أجلاً سريعاً رادعاً، وفي القصاص تطهير للنفس الآثمة. ولخير للإنسان أن يصلي أمام عدالة الله قائلاً: (أبانا الذي في السموات ابطش بنا لذنوبنا).

وكانت المرأة العجيبة التي أهداها إلي اللورد هنري منذ سنوات طويلة لا تزال قائمة عل المائدة، وكانت رسوم كوبيد التي تزيناها لا تزال تضحك كمل كانت تضحك قديماً. وتناول دوريان جراي المرأة، تناولها كما تناولها في تلك

الليلة العصبية حين لاحظ التغير الذي أدرك الصورة المشثومة، ونظر إلي خياله فيها بعين زائغة دامعة. وذكر الكلمات الوثنية التي كتبها إليه عاشقة مجنونة في خطاب محموم: (أن العالم يتغير لأن الآلهة صاغت من عاج وذهب: إن خطوط شفتيك تكتب التاريخ من جديد). عادت هذه الكلمات إلي خاطره فرددها خاطره المرة تلو المرة، ثم سئمت من نفسه جمال وجهه فقذف بالمرآة علي الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلي شظايا تلمع كقطعة الفضة. لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه علي سعادته، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا يعرف الدنس. إن جماله لم يكن إلا قناعاً، وشبابه لم يكن إلا حله مسمومة فماذا أفاد من الشباب؟ زمان الصبوات المتلفة والثمار الفجة، والعواطف السطحية المريضة. لقد فسد دوريان جراي وما أفسده إلا شبابه.

ولكن كان من الخير ألا يفكر في الماضي، وما كان كان، ولن تمحو قوة الأرض أو السماء. فليفكر إذا في نفسه وفي مستقبله. إن جيمس فين راقد في قبره بغير شاهد في كنيسة سلبلي. إن ألان كمبل قد أطلق النار علي نفسه ذات ليلة وهو في معمله، ولكنه لم يبح بسرهما لأحد. ولسوف تسكن الضجة ألي أثرت حول اختفاء بازيل هولوررد عما قريب، بل لقد خفيت فعلاً. إذن فهو سالم لا يخشى افتضاحاً ولكن اضطرابه لم يأت من تفكيره في موت بازيل هولوررد. لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حي في روحه. إن بازيل رسم له صورة قضت علي حياته، ولن

يغتفر له تلك الإساءة. نعم كل ما نزل به علته الصورة. إن بازيل أباح لنفسه أن يزره زجراً لا يحتمل، ذلك فقد أحتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم. إن قتل بازيل كان في لحظة جنون استولي عليه. أما الآن كامبل فقد قتل نفسه بيده، وهو الذي شاء أن يموت، فكيف يسأل دوريان جراي عنه؟

إلى الحياة الجديدة إذن، فالحياة الجديدة هي ما تصبو إليه نفسه، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة، فعلاً أو لم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية. إن نفسه تطلب عمل الخير.

وفيما هو يفكر في هيتي مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة في الغرفة المقفلة، وخطر له أنها لابد أن تكون قد تغيرت، فمحال أن تحتفظ بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتي. وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها في اللوحة، فظن أنه طهر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يمحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر، وأن يرد إليها الرونق المفقود. بل ما يدرية أن الصورة لم تتغير فعلاً وأن معالم الشر لم تزال عنها؟ إذا فليفحصها لفوره.

وحمل المصباح القائم على المائدة ودب ديبياً خفيفاً إلى الغرفة العليا. وشد المزلاج وهو يبتسم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة فأضاء وجهه الدائم النظرة فهو لن يفزع اليوم من مرأى الصورة لأنه تائب، ولأن الصورة المسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه. وأحس بالراحة الكبرى.

ودخل في هدوءه، وأقفل الباب، وراءه كعادته، ونزع الستار الأرجواني فكشف اللوحة. خرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب في وقت واحد ذلك لأنه لم ير في الصورة التحول المنشود، فكل ما جد فيها بريق في العينين هو بريق المكر والتواء في الشفتين ينم عن النفاق: لقد كانت الصورة كما تركها آخر مرة، مسخاً حياً، لعل مسخها أشد إن كان قد بقي فيها مجال لذلك. ورأي البقعة الحمراء التي تلتطخ اليد اشد أحمراراً مما كانت ورأي فيها آثار دم جديد. ومشيت في أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله الورد هنري، وأن اللورد هنري زعم أن غروره قد ساقه إلي فعل الخير، أفهذا صحيح؟ إن اللورد هنري زعم أن رغبته في الحصول علي لون جديد من ألوان الإحساس هي التي دفعته إلي فعل الخير. أفهذا صحيح؟ لعله كان يمثل دوراً سامياً لا حبا في السمو بل كلفاً بالتمثيل. لعل العوامل مجتمعة هي التي ألهمته أن يفعل ما فعل. ثم البقعة الحمراء التي تلتطخ أصابعه الشوهاء كيف اتسعت هذه البقعة الحمراء؟ وشاهد علي قدميه آثار دماء كأنما سالت القطرات من يده قطرة قطرة. كذلك اليد الأخرى التي تمسك بالمديّة شاهد عليها دماء. تري ما معني هذا؟ الاعتراف؟ هل يراد به أن يعترف، أن يسلم نفسه إلي العدالة؟ وضحك دوريان جرائي، أنه علم أن هذا محال، ولو أعترف لما صدقه أحد. فأين جثة القتيل؟ لا أثر لها. أين أشياءه؟ لا أثر لها لقد أحرقتها دوريان بنفسه ولو أنه تجود علي الناس بهذه القصة لظنه الناس مخبولاً. ولو أصر علي دعواه لأودعوه في

مستشفى المجاذيب. ولكن الواجب يقضي عليه أن يعترف، وأن يعلن علي الناس عاره، وأن يكفر أمام الناس عما اقترفت يده. فالله يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء، ولن يغسل عنه خطايه إلا أن يعترف بها. وما هي خطايه؟ أن موت بازيل هولوردد لم يزعجه كثيراً، لأنه يفكر في هيتي ميرتون. يا لها من امرأة خائنة، هذه المرأة التي يري فيها روحه، كان غروره أم فضوله أم رباؤه هو الذي دفعه إلي توبته المزعومة؟ ألم يكن في توبته ذرة واحدة من الإخلاص، نعم لقد كان في توبته شيء من الإخلاص، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يري الصورة. تري من يستطيع أن يدلّه علي الحقيقة، الصورة، والصورة تقول إن توبته لم تكن فيها ذرة واحدة من الإخلاص. فهو لم يفتك بهيتي ميرتون إلا إرضاء لغروره، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء وهو قد جرب إنكار الذات من باب الفضول. فهذه هي الحقيقة، وهو يدركها الآن.

ولكن ما سبيله إلي الخلاص من آثار جريمته، وهل قتله بازيل هولوردد سيطارده بقية حياته؟ وكيف يفعل بماضيه؟ أو يحمل عبئه دائماً، دائماً؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف؟ كلا. فلم يبق من الأدلة التي تدينه إلا دليل واحد، وهذا الدليل هو الصورة، فلتدمر الصورة تدميراً، تري ما حمله علي الإبقاء عليها كل هذا الزمن؟ لقد كان في وقت من الأوقات مجد لذة في تتبع التغير الذي يطرأ عليها، ولكن فقد هذه اللذة أخيراً. ولكم أرقت الصورة جفينه، ولكم امتلأ جزعاً كلما الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيجت

الأحزان. لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحي ما في ذلك شك. فليحطم ذلك الضمير الذي يفسد عليه طعم الحياة.

وتلفت حوله فرأى المدينة التي قتل بها بازيل هولورود. كم غسل المدينة ومسحها حتى لم يبق عليها أثر الدم ، رآها تلمع. أنها المدينة التي قتلت الرسام ، فلتقتل إذن عمل الرسام ، ولينته بذلك الأمر. فلتقتل المدينة الماضي ، وحين يموت الماضي ينعم دوريان جراي بحريته مرة أخرى. ولولا هذه الروح اللعينة الحية في الصورة لوجد الطمأنينة الكاملة. فلتزهق إذن هذه الروح اللعينة الحية. وأمسك دوريان جراي بالمدينة وطعن بها الصورة.

وارتفعت صرخة وعقبها سقط جسم. وكانت الصرخة مفاجئة حتى لقد أيقظت الخدم من نومهم فخرجوا من غرفهم ليقفوا علي ما كان، وكان رجالان عابران سمعا الصرخة العالية. فتوقفاً عن المسير ونظرا إلي البيت الكبير في ارتياب ، ثم مضياً يبحثان عن شرطي ، وعادوا بالشرطة إلي البيت. ودق الشرطي الجرس عدة مرات ، فلم يتلق جواباً وكان البيت مظلماً ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة إلا النور المنبعث من النافذة العليا. وبعد قليل أنصرف الشرطي ووقف عند مدخل بيت مجاور ، وأنشأ يترقب الحوادث.

وسأله أحد الرجلين قائلاً: بيت من هذا ؟
فأجاب الشرطي:

هذا بيت دوريان جراي يا سيدي.

وتبادل الرجلان النظر وعبساً، ثم انصرفا. وكان أحدهما عم السير هنري أشتون.

وفي داخل البيت كان الخدم المذعورون في ملابس النوم يتهايمسون وكانت المديرية العجوز مسز ليف تبكي وتعصر يديها عصراً. وكان فرانسيس شاحباً شحوب الأموات.

وبعد ربع ساعة خف الحوذي وأحد الخدم إلي فرنسيس وصعدوا جميعاً إلي الغرفة العليا وبخطي واجفة طرقوا الباب فلم يجيبهم مجيب. ونادوا علي سيدهم فلم يجيبهم مجيب. وحاولوا أن يفتحوا الغرفة عنوة ولكن الباب كان عنيذاً ، فلما يئسوا تسلقوا إلي السطح ومنه نزلوا إلي الشرفة ودفعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية.

ودخلوا الغرفة فشاهدوا علي الحائط صورة رائعة لسيدهم، وقد سجلت جماله الفذ وشبابه الناضر. وعلي الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة. وقد غارت في قلبه مديّة. وكان الرجل مغضن الوجه يابس البدن كرية الملامح. ولم يتبينوا هويته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي يلبسها.